الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر- بسكرة-
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الأدب العربي

الوطن في شعر " إيليا أبو ماضي "
دراسة تحليلية سيميائية

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث والمعاصر

***-إعداد الطالب :** عبد الكريم اروينة

***- إشراف الدكتور:** أحمد فوار بن لخضر

لجنة المناقشة:

الأستاذ	الدرجة العلمية - الجامعة	الصفة
أ.د/محمد خان	أستاذ التعليم العالي- جامعة بسكرة	رئيسا
د /أحمد فوار	أستاذ محاضر- جامعة بسكرة	مشرفا ومقررا
أ.د/صالح مفقودة	أستاذ التعليم العالي- جامعة بسكرة	عضوا مناقشا
د/عباس بن يحيى	أستاذ محاضر- جامعة المسيلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:2007-2008

دعـــــــــــاء :

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ
وَأَصْلِحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
إِلَيكَ
وَإِنِّي مِنَ
المُسْلِمِينَ }

- سورة الأحقاف ، الآية :15 -

شكر خاص:

لا يسعني إلا أن أتقدم إلى الأساتذة الأفاضل

أعضاء لجنة المناقشة :

أستاذي الدكتور؛محمد خان المحترم

أستاذي الدكتور : صالح مفقودة المحترم

أستاذي الدكتور :عباس بن يحي المحترم

لكم مني جزيل الشكر ، وعظيم الامتنان ،

فقد أكرمتموني بقراءة بحثي وشرفتموني بمناقشته ،

ورفعتم من مقامي بوافر علمكم

وجميل تواضعكم .

الطالب / عبد الكريم اروينة

مقدمة :

لقد مضت قرابة المائة عام عن واحدة من أكبر مظاهر التجديد في الشعر العربي ؛ هي ظاهرة الشعر المهجري الذي نشأ ونما وتطور في مهاجر القارة الأمريكية شمالا وجنوبا بفضل كوكبة من أدباء العرب الذين رمت بهم الغربة بعيدا عن أوطانهم وأهليهم..فقد شهد مطلع القرن العشرين هجرات متتابعة لكثير من السوريين واللبنانيين، بفعل الظروف السائدة آنئذ ، خاصة ظروف المعيشة القاسية ، والطائفية في القطر اللبناني تحديدا .لكن المهاجرين العرب ظلوا مرتبطين أشد الارتباط بأوطانهم وأمتهم , ولم يمنعهم اغترابهم الطويل والمسافات البعيدة أن يبقوا على صلة بأرض العروبة وروح الشرق , وكان الحرف العربي الجناح الأمين الذي يحملهم إلى بلادهم والريشة الصادقة التي ترسم تفاعلهم وحنينهم وتنقل حرارة عواطفهم ؛ تنقلها عبر المكان والزمان .. فجاء شعرهم جديدا متدفقا بالحياة والروح القومية والبعد الإنساني ، وظل كذلك إلى اليوم.

ويعتبر الشاعر إيليا أبو ماضي أبرز الأصوات الشعرية في المهاجر الأمريكية، هذا الشاعر الذي تغرب مبكرا عن وطنه فقد رحل إلى مصر ، وخرج منها طالبا الولايات المتحدة ، حيث ذاع صيته شاعرا مجددا، و ما يعطي الشاعر أهمية خاصة سببان هما : كثرة إنتاجه الشعري الذي يتمثل في خمس مجموعات شعرية، وقدرته الفنية العالية لدرجة وضوح ملامح التجديد في الشعر العربي الحديث فيها.

ويتوق هذا البحث الذي يحاول رصد الوطن في شعر "إيليا أبو ماضي"، إلى أن يجيب على كثير من الأسئلة , منها : ما علاقة الشاعر بوطنه - لاسيما- وهو بعيد عنه في أقصى الغرب ? وما هي طبيعة نظرته إلى بلاده ? بل ما معنى الوطن-

تحديدا – في مخيلة الشاعر ونظرته الإنسانية والفنية سواء ? كما يتطلع البحث إلى ضبط مفهوم دقيق للوطن , فهل هو الأرض ? أم الأهل والعشيرة و القوم ? أو هو مجموعة أوطان? أم يكون معنى مجردا في ذهن الشاعر ووجدانه يتجاوز معنى المواطنة المألوف ?! كما يطرح البحث أسئلة أخرى ويجتهد في الإجابة عليها , منها : كيف كانت علاقة الشاعر بالمهاجر التي أقام فيها ؟ وهل أحس فيها بالمواطنة أم أن علاقته بها ظلت علاقة

الأجنبي في غير أرضه ؟ وهل للشاعر بدائل يمكن أن تحل محل الوطن, وتشبع فيه غريزة الانتماء، وتؤدي نيابة عن بلاده دور الوطن؟ سواء أكانت هذه البدائل أوطانا أخرى أم معاني ذاتية تخص الشاعر وطبيعته.

ولعل من أهم الأسباب التي دفعتني إلى هذا الاختيار، طبيعة الشعر المهجري الذي ظل عربيا خالصا صادقا رغم وجوده في بيئات غربية مخالفة تماما للبيئة العربية ، هذه البيئات التي تنفس فيها الحرف العربي بحرية أكبر وبعمق أبعد مدى ، رغم قلة الناطقين به هناك .. كما أن مخاطر العولمة قد تكون وراء طرح بحث بهذا الشكل ؛ فالمفاهيم الجديدة في حياتنا المعاصرة تجعلنا نتوقف وقفات طويلة لنتساءل واقعيا : ما هو الوطن في معتقد الأجيال الناشئة في زمن سقطت فيه كل الحواجز و لعبت ثورة الإعلام و تكنولوجيا الاتصالات بكل شيء.. فسياسة القطب الأوحد التي تسعى جهدها لإذابة الشعوب وطمس شخصيتها والميل بها جميعا شطر الغرب ، تصدر ثقافة وفكرا يتسمان بقوة الاكتساح والانتشار، ويتمظهران بمظهر العالمية والإنسانية ، ليجدا قابلية أكثر للاستهلاك، عند الأمم الضعيفة أو الناهضة التي يُراد استعمارها من جديد ولكن بأغطية مبتكرة، وطرائق مستحدثة.

في ظل كل هذه التغيرات وجدتني أتساءل : ما الذي يجعل شاعرا مثل أبي ماضي (ومن خلاله كل شعراء المهجر) يحافظ على هويته العربية ممثلة في لسانه فيبدع بهذا اللسان(اللغة العربية) أرقى أشكال الإبداع ،أي الإبداع الشعري ? هذا، دون أن أغفل الأسباب المتعلقة بالميل الذاتي إلى قراءة هذا الشاعر

واعتباره واحدا من القلائل في عصره الذين استطاعوا أن يوفقوا بين الهوية والتراث من جهة والعصر والبيئة من جهة ثانية ؛ فقد استطاع أبو ماضي أن يكون بجدارة محطة انتقال و تجديد من محطات الشعر العربي , دون أن أغفل ما لرومانسية شعره من جاذبية و تأثير، لا سيما اندماجه مع الطبيعة وتفاعله القوي مع مختلف صورها وأحوالها، وهو أمر باعث على التساؤل والنظر. وكذا قدرته على تحريك إنسانية القارئ والنفاذ إلى أخص

خصائصه : ضميره وأخلاقه وقيمته في الوجود ، وبراعته في طرح الأسئلة المحيرة للإنسان في عمق وصدق و نظرة شاملة للإنسان مطلقا.

ولتحقيق تصوري لهذا البحث ، قمت بضبطه وفق خطة اجتهدت ما استطعت أن أجعلها تمتاز بالدقة والشمول ، ليصل هذا العمل إلى تحقيق الصورة والأهداف المبتغاة ما أمكن ؛ فقسمت البحث إلى فصلين:

فأما الأول - وهو فصل نظري - فجعلته خاصا لمجموع المفاهيم والمقدمات الضرورية للبحث ، والممهدة للأسس التي أرتكزُ عليها في الفصل التطبيقي ، وتناولتُ فيه مبحثين رئيسين هما:

- المفاهيم المتعلقة بالوطن من قريب أو بعيد ، ونظمتها في خمسة عناصر؛ تلم بدلالات الوطن في جميع أشكاله ومسمياته والعواطف المرتبطة به.

- الشاعر والموضوع ؛ وهو مبحث يسعى إلى توفير الحد الأدنى من المعلومات والتعاريف التي رأيت أنه لا استغناء عنها في فهم نصوص الشاعر ، والنفاذ إلى أعماقها عند التحليل التطبيقي ، وتوقفت فيه عند ثلاثة عناصر شديدة الصلة بالشاعر والموضوع هي :

- ترجمة الشاعر
- الهجرة وأسبابها
- لمحة في تاريخ الشعر الوطني.

أما الفصل الثاني ، وهو دراسة تطبيقية ، ميدانها قصائد الشاعر ذات الصلة بما يرتبط بالوطن لفظا صريحا أو دلالة ضمنية ، أو إشارة أو رمزا بحسب ما يستجيب لطبيعة

الدراسة وانطلاقا من المفاهيم المؤسِسة ؛ مما جعلني أقسمه وفق المباحث التالية :

- الوطن الأم (الصغير) وهو لبنان.
- الوطن الأمة(الكبير) وهو الأمة العربية.
- الوطن المهجر.
- الوطن العالم (أو الإنسانية).
- معادلات موضوعية للوطن.

ولتحقيق العنوان من خلال الخطة المقدمة ، يتوجب الالتزام بمنهج يقدم مقاربة دقيقة تضفي العلمية والموضوعية ، وعليه فقد رأيت أنه من المناسب جدا أن أعتمد منهجين أساسيين ، رأيتهما يتكاملان ويتحدان في تبليغي إلى غاية البحث المنشودة هما المنهج الوصفي التاريخي ، ومنهج التحليل السيميائي.

وقد اعتمدت أولهما في حصر المفاهيم التي يقوم عليها البحث بجملته من جهة ، وضبط الإطار التاريخي للنصوص لمحاولة فهم سياقاتها ، والظروف الدافعة في إنتاجها أو المصاحبة لها من جهة ثانية . بينما اعتمدت المنهج الثاني (التحليل السيميائي) لكونه الأنسب- كما أتصور- والأقدر في الكشف عن الدلالات البعيدة للوطن، والمعادلات الموضوعية الدالة عليه عند الشاعر وما يرتبط به من بعيد أو قريب، ليتضافر المنهجان لمقاربة الموضوعية العلمية قدر المستطاع .

وكان لابد من مكتبة بحثية تَكُونُ موادها منطلقاتِ البحث وأسُسَه ودعائمَه ، لذلك اعتمدت عددا من المصادر أولها ديوان الشاعر ، وقد اعتمدت طبعة تضم جميع أعماله الشعرية في مؤلَّف واحد بعنوان(شرح ديوان إيليا أبو ماضي) من تقديم ودراسة :حجر عاصي . كما أني استعنت كثيرا بعدد من المعاجم اللغوية والمتخصصة لتقريب المفاهيم وضبطها من مثال:لسان العرب لابن منظور، و(موسوعة السياسة) لعبد الوهاب الكيالي ، و(المعجم الأدبي) لجبورعبد النور، وبعض الدراسات مثل:(مفاهيم قرآنية) لمحمد أحمد خلف الله ، و(الأمة والعوامل المكونة لها) ، لمحمد المبارك و(قصة الأدب المهجري) لمحمد عبد المنعم خفاجي

و(أدب المهجر) لعيسى الناعوري و(إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب) ، لسالم المعوش، وغيرها مما لا يتسع المجال لبسطها.

هذا ، ولم تكن الدروب معبدة أمامي ولا كانت الحركة ميسورة لقطع رحلة هذا البحث ؛ فبقدر المتعة والاستفادة كانت المشقات والصعاب ، ولعل أقواها- عندي- صعوبة الحركة في البحث عن بعض مصادر والمراجع العزيزة النادرة ، خاصة بعد أن أقعدني المرض لشهور طويلة. أما الصعوبة الأخرى فكانت موضوعية أكثر، وتمثلت في

طبيعة البحث نفسِه ، المحددِ ظاهرا المتشعبِ في حقيقته ؛ فقد كان لزاما علي أن ألامس مختلف حقول المعرفة الإنسانية من تاريخ وفلسفة واجتماع ، وأن أطوف بتاريخ الأدب العربي في كل عصوره ، وأن أستعين بعلوم اللغة العربية ما أمكن من نحو وصرف وصوتيات ولسانيات وبلاغة وعروض ونقد لمقاربة التحليل السيميائي وتطبيق تقنياته قدر المستطاع. لكنها كانت مشقة تتسم بالمتعة والفائدة ؛ فقد جددتْ معارفي وأضافتْ إليها ،وصقلت أدواتي البحثية ، وتركتني أعيد النظر في كثير من الأشياء وأطرح أسئلة جديدة ، والباحث بخير ما ظل يتساءل.

وكانت عناية الله تكلأني بعينه التي لا تنام ، و تسندني بجميل الصبر وتقويني بالإصرار. وُتقيِّضُ لي من يساعدني عند اشتداد الأزمة ، ويأخذ بيدي ، فلا أيأس ، ولا أتوقف إلا لأنطلق من جديد . ومن جملة الأيدي التي أبَرّتْني يدُ أستاذي الكريم: الذي أشرف متفضلا على هذا البحث ، الدكتور: أمحمد فورار بن لخضر، الذي ما بخل عني بكتاب أردته ، ولا ردني في طلب طلبته ، أو تأخر في إسداء النصيحة الحكيمة، والتوجيه الصائب ، كما أنه كان شديد المؤازرة لي في بحثي بآرائه وإشاراته ، وفي نكبتي بسؤاله عن صحتي ، وحرصه على راحتي . فضلا عن منحه إياي كل الحرية في العمل مع كثير من الثقة وحسن الظن.

فالحمد لله حمدا غير منقطع ، والشكر الجزيل لأستاذي المشرف ، ولكل من ساعدني بمرجع أو رأي أو مؤازرة ، ولو بالكلمة والدعاء.

الفصل الأول :
الوطن والشاعر

بحث في المفهوم والموضوع

أولا – المفاهيم المتعلقة بالوطن:

1- الوطن والوطنية
2- الأمة والقومية
3- الانتماء والولاء
4- الغربة والحنين
5- الإنسانية أو عالمية الوطن

أولا: **المفاهيم المتعلقة بالوطن.**

1- الوطن والوطنية:

إن مفهوم الوطن لم يتشكل في الذهنية الاجتماعية بالمعنى الذي نتداوله في عصرنا هذا ، إلا بعد تراكم معرفي حضاري أخذ من حقول المعرفة الإنسانية المختلفة من اجتماع وسياسة ودين وفلسفة تشكيلته الدلالية، وإذا نظرنا في المعاجم العربية سنجد أن مادة (وطن) تعني :

وطـن: « المنـزل تقيم بـه ، وهـو مـوطن الإنسـان ومحلـه . » (1) ،والـوطن بتحريـك الطـاء وتسكينها « منـزل الإقامـة ومـربط البقر والغنم، ج أوطـان، ووطـن بـه يطـن وأوطـن ؛أقـام، وأوطنه ووطنه واستوطنـه؛ اتخذه وطنـا ، ومواطن مكـة ؛ مواقـفها ،ومن الحـرب مشـاهدها، وتوطيـن النفـــس تمهيدها . » (2)،وليس يشترط أن يكون الوطن مكان الميلاد ؛« الوطن،ج أوطان ؛ منــزل إقامة الإنسان ولد فيه أم يولد ، المواطِـن :الذي نشــأ معك في وطن واحد، أو الـذي يقيم معـك فيـه.الميطـان : موضـع ترسل الخيل منـه فـي السباق» (3) ، ومعنـى الـوطن يتضمن الألفــة والتعلق وقد يتعدى الإنسـان إلى الحيوان ؛« وطن يطن وطنا بالمكـان ؛ أقام به وألــفه ، وطـّن المكـانَ ؛اتخذه مكـانا يقيـم فيـــه ، أوطـــن البعيرُ المكـانَ: اتخـــذه مناخـا؛ بـرك فيـه .» (4) ويتعـــدى أيضـا إلـى معنـى العـادة والتعـــويد ؛ « توطنـت النفـس علـى كذا؛تحملته» (5). وللكلمـة دلالات جغرافيـة وبيئيـة وسياسيـة ،فالوطن تـــرادف: «موطِـن (habital): إقليـم يتسم بخصـائص طبيعيـة تلائـم أحيـاء معـينة..والوطـــن الأصغـــر

1- لسـان العـرب،ابن منـظور الإفريقـي المصـري ،دار صـادر ، بيـروت ، لبنـان، ط 3 ،1994 ، مجلـد:13، ص:451 مادة (وطن).
2- القامـوس المحيط ، الفيروز آبادي، دار الكتاب العربي، المجلد :4 ، ص: 276 (فصل الواو والهاء ، باب النون).د.ت.
3- المنجد في اللغة والأعـلام،دار الشـروق، بيـروت ، لبنان، ط:31 ،1991، ص: 906 مادة (وطن).
4- معجـم مـتن اللغة (موسـوعة لغـوية حـديثة)، أحمـد رضـا ، دار مكتـبة الحياة ، بيروت ، لبنـان، 1960 ، مجلد :5، ص:777، مـادة (وطن).
5- المـرجـع نفســه،ص: 778.

(microhabital) هو الموطـن البيئـي الخـاص الـذي يعـيش فيـه كـائن مـا .وطـن الأصـل (d.d'origine): موطـن الشخـــص عند ميـــلاده.الـوطـن المكتســـب (D.acquis de droix) الموطن الذي يكسبه بإرادته بعد اكتمال أهليته.المواطن(citoyen): الوطني الذي يتمتع بالحقـوق السياسـية كافة كحق الانتخاب وحـق الترشيـح للهيئـات النيابيـة ، وحـق تـولي الوظائـف العامـة» (1).

وفي تعريف آخر نجد أن الوطـن : « هو البيئة الروحيـة التي تتجـه إليـها عواطـف الإنسـان القومية ، ويتميـز عن الدولـة التي هي المجتمـع المنظـم ذو الحكـومة المستقلـة والشخصيـة المعنـويـة »(2).

أمـا الدولـة(Etat) فهـي : « مجموعـة دائـمة ومستقلـة مـن الأفـراد يملكـون إقليـما معيـنا ، وتربطهـم رابطـة سياسيـة مصدرها الاشتـراك في الخضـوع إلى سلطة مركزية تكفل لكل فرد التمتـع بحريتـه ومباشـرة حقـوقه.»(3)، وفي تعريف آخـر: « هـي جمـع مـن النـاس مستقـرون في إقليـم معيـن الحـدود ، ويستقلـون بحكم أنفسـهم وفق نظـام خـاص . سياسيا: الدولـة مجتمـع منظم له حكـومة مستقلـة ، وشخصيـة معنـوية متميـزة من المجتمعـات الأخـرى التـي تربطـه بهـا بعض العلاقـات.»(4)

أمـا **الوطنيـة** (patriotism) فهـي : « حـب المـرء لوطنـــه ؛ " واحد من أكثر العواطـــف تغـلغـلا بعمـــق يرسخـــه وجـود أوطـان أمّ منفصـــلة لمـدة مئـات السنيـــن"(لينـين)، والوطنيـة ليســـت نتيجـة «لـروح قوميـة » غامـضة أو« لـروح عنصـرية» علـى حـــد مـا يؤكـــد علمـاء الاجتـمـاع المثاليـون ، وإنمـا هـي نتـيجة لظـــروف اقتصـادية اجتماعيـــة محـددة ، فهـي ظاهـرة تاريخـية ، لها مضـمون يختلـف

1- معجـم المصـطلحات العلميـة والفنيـة(عربـي ، فرنسـي،إنجليزي،لاتيني)،يوسـف خيـاط ،دار لسـان العرب، بيروت ، لبنان،د.ت، ص:276

2- المعجـــم الفلسـفـي المدرسي الميسـر، أحمـد الزعيـبي ، دار الآثـــار ، ط1 ، 1996،ص:.270

3- قامـوس مصطلـحات علم الاجتـــماع ، فاروق مـداس ، دار مدنـي ، 2003 ، ص: 120 ، .121

4- معجم المصطلحات العلمية والفنية ،ص : 245.

باختـــلاف العصـــور» (1).

والوطنيـــة فـي رؤيـا أخـرى تتمثـــل فـي حقيقـة الدافـــع الـذي يحـدث التماسك بـين الأفـراد ويخـــلق فيـــهم قـــوة الـولاء التـي تصـــل إلـى درجـة التضحيـــة فـي الـــذود عن الـــوطن ؛« الوطنية في كافة مظاهـرها عبارة عن الدافـع الذي يؤدي إلى تماسك الأفـراد وتوحـدهم وإلـى ولائـــهم للوطـــن وتقاليده والـدفاع عنـه ، ويتكـون الشعـــور بالوطنيـة منـذ سـنوات التنشئـــــة الأولى، ومن ارتباط الفرد في أول عهده بالبيئة المباشرة . والمشاعر التي تتـولد لدى الوطني قد لا تستند إلى التفكير بقـدر ما تستـــند إلى استجاباته العاطفيـة»(2). أما من وجهة نظـــــر علم الاجتمـــاع ، فالوطنـــية تـــتخـــذ تعريفا آخر: « **الوطنيـة** (patriotism) تعني حب الوطن ، وهي مثل **القومية** عاطفـــة إنسانيـــة تربـــط الفرد بالوطـــن، والوطـــن ذو مدلول واســـع ،فـقد يراد به الوطـــــن الصغير،وهي القـــرية التي يقيـــــم بها الفـلاح في الـــــريف،وقد يراد بهـا الدولة بمعناها الحديث» (3)

ويمكـن ربـط مفهـــوم الوطنيـــة بالـــولاء لـلأرض بصـــرف النظـــر عـن الأبعـــاد الأخـرى: «الوطنية معنـاها أن يشـعر جميـع أبناء الوطن الواحـد بالـــولاء لذلك الوطـن ، والتعصـــب لـه ، أيا كانت أصـولهم التي ينتمـون إليها ، وأجنـاســـهم التـي انحـدروا منهـا. أي أن الـولاء فيـها للأرض بصرف النـظر عن القـــوم أو اللغـة أو الجنـس.» (4)

وربمـا كـان مـن الجـدير إيـراد بعـض أشـهر الأقـوال فـي الـوطن والوطنيـة خـارج الضـوابط الاصطـــلاحية بغيـة استيفـــاء أقصى الدلالات.

فبالعودة إلى ارتباط الوطن بالأرض ارتباطا وثيقا يكاد يجعـلهما شيئا واحدا،من جهـة،وارتباط الإنسان بهما من جهة ثانية، فإننا نجـد هذا الارتبـاط قديما،من أبعـد ما وصلنا

1- الموسوعة الفلسفية ،(وضع لجنة من العلماء الأكاديميين السوفياتيين) بإشراف: م.روزنتال و: ب.يودين ، ترجمة : سمير كـرم ، دار الطليعة ، بيروت ،لبنان، ط2 ، فبراير2006 ، ص:585.

2- إشكاليات الخطـاب العربـي المعاصـر، كمـال عبـد اللطيـف ونصـر محمـد عـارف،دار الفكـر، دمشـق، سورية - دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان ، ط 1، مارس2001،ص:182.

3- قاموس مصطلحات علم الاجتماع، ص:295.

4- مذاهـب فكرية معاصرة ،محمـد قطـب، دار الشـروق،القاهـرة- بيروت، ط 8 ،1993 ، ص: 554.

وأعمق ما حدث التاريخ عنه؛ فقد روي « عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أنه قال : قال رسول الله- ρ-:« جاء ملك الموت إلى موسى - عليه السلام- فقال له : أجب ربك» قال : «فلطم موسى - عليه السلام – عينه ففقأها » قال: « فرجع الملك على الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني» قال : « فرد الله إليه عينه، وقال : ارجع إلى عبدي ، فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة ، فضع يدك على متن ثور فما تورات يدك في شعره ، فإنك تعيش بها سنة.قال ثم مه؟ قال :تموت.قال : فالآن من قريب ، رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر.»

قال رسول الله-ρ-: « والله ؛ لو أني عنده لأريتكم قبره، إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر.». [أخرجه البخاري: 1339 ومسلم 2372] (1)

وهذا ما يؤكد أن من ألصق الطبائع بالإنسان تعلقه بالمكان الذي نشأ فيه ودرج عليه أيامه الأولى ،وقضى فيه سنوات طفولته وشبابه. بل إن ذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز لا يمكن حصرها بعصر أو إقليم أو عقيدة دون غيرها : « من نواميس الخلقة حب الذات للمحافظة على البقاء، وفي البقاء عمارة الكون، فكل ما تشعر النفس بالحاجة إليه في بقائها فهو حبيب إليها . فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته، لما يرى من حاجته إليهم ، واستمرار بقائه فيهم. وما البيت إلا الوطن الصغير.» (2)

وإذا كبر الإنسان كبرت مداركه ، واتسعت دائرة معارفه ونشاطه وعلاقاته، وصار له صلات كثيرة بمن حوله من الناس على تباين درجات القرابة والروابط والأهمية ،واحتك بالذين يشاركونه عواطفه وانشغالاته ، ويتوحدون معه في المصالح والأهداف « ..ووجد فيهم صورته بلسانه ووجدانه وأخلاقه، ونوازعه ومنازعه، شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته ولما فيه - كما تقدم- من غريزة حب الذات وطلب

1- مختصر صحيح مسلم، الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان، ط 1 ،2001ص:595.

2- ابن باديس ، حياته وآثاره، جمع ودراسة : عمار الطالبي ،الشركة الجزائرية ، ط 3 ،1997، مجلد 3:،ص:367.

البقاء، وهؤلاء هم وطنه الكبير ، ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية.» (1)

وهذا الارتباط بمكان المولد والنشأة والطفولة والالتصاق ببيئة الأهل والأقربين،ليس مشروطا بالجمال أو الاعتدال الطبيعي أو وفرة المحاصيل وخصب التربة ،وصفاء الأجواء، بل إن هذا التعلق عند أهل الحضر وأهل البدو سواء ، يقول الجاحظ في بعض رسائله:« وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى الفيافي، وساكني السهول إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار، وساكني الوبر إلى المدر، لأذاب قلبهم الهم ، ولأتى عليهم فرط النزاع ، قال الله -عز وجل-:{ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم} فقرن الضن بالأوطان إلى الضن بمنهج النفوس .» (2) ولذلك لا نستغرب التضحية بالنفس في سبيل الأرض .

فإذا تأملنا في هجرة المسلمين الأوائل من مكة إلى المدينة ، لوجدنا أنها ما كانت إلا بعدما استنفذوا كل طريقة تحفظ لهم بقاءهم وبقاء عقيدتـــهم الجديدة ؛ولهذا لا يمكن الحديث عن انتماء لوطن أو أمة ما لم يرتبط بعنصر الأرض(ولعله العنصر الجغرافي للوطن)لأن حب الأرض من طبيعة الإنسان « واقتران حب الأرض في القرآن بحب النفس: {اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم } واقترانها في موضع آخر بالدين{لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين،ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم } وكل ذلك يدل على تأثيرالأرض،وعلى أن فطرة الإنسان التي فطر الله عليها حب الوطن» (3)

ولهذا احتمل المسلمون أنواع التعذيب والتجويع والحصار، فلما لم يجدوا بدا اضطروا إلى الهجرة فرارا بدينهم، وحماية لعقيدتهم وقد « روي أن أبان قدم على رسول الله-ρ-، وهو في المدينة ، فقال له: كيف تركت مكة ؟ قال : تركت الإذخر وقد أغدق ، وتركت الثمام وقد خاص ، فاغرورقت عينا رسول الله-ρ- وقال : دع القلوب في أماكنها.» (4)

1- المرجع السابق ، ص:.366،367

2- أحلى ما قيل في الوطن ، إيمان البقاعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، 2006 ، ص:05.

3- الأمـــة والعوامـل المكـونة لها ، محمـد المبـارك ، دار الفكر ، ط 3 ،1975، ص: .37

4- أروع ما قيل في الوطنيات، إميل ناصيف، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، ط1، 1992، ص: 20.

ومثـل هـذا مـا حـدث للمهـاجرين المـؤمنين إلـى الحبشـة ، فقـد ُأثِـر أنهـم لمـا نزلـت سـورة (قريش) جعلوا يقرؤونها صباح مســاء تشــوقا إلى مكة موطــن قريــش وموطــنهم، وحنــينا إلــيها.

وكذلك عُـدّ حبُ الوطن والتعلق بالديار والوفاء للأرض من علامـات المروءة وكمـال الإنسـان وشـرف الخلـق ، وسـلامة الطبـع ، يقـول المسـعودي - فـي بـاب الحنين إلـى الأوطـان والإخوان- :« وقد ذكر العلماء فيما خرجنـا إليـه من هذا المعنـى ، أن من علامـة وفـاء المرء وداوم عهده حنينه إلى إخوانـه، وبكـاءه علـى مـا مضـى من زمانـه، وإن من علامـة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة، وإلـى مسقــط رأسها تواقـة ، وللإلـف والعـادة قطـع الرجـل نفسـه لصـلة وطنـه .» (1) وهـذا المعنـى يؤكـده العقـاد فـي عصـرنا الحـديث ، فيجعـل الوطنيـة مجموع قيـــم أخلاقية إنسانيـــة عالية: « وبالشخصيـــــة أو الوطنيـــــة يُنـَاط أشرف أسباب الحياة وهو الأمل في السمو والارتفاع .فما بقي للإنسان هذا الأمل فكل مفقود غيره لا يضيره، وما ضاع منه فكـل موجود غـيره لا يفيـــده.» (2)

ومن كل ما ســبق يتبيـن لنا أن الوطن متعدد المفاهيــم فهو البيت والمحل والأرض، ومكان النشأة والقـرية أو المدينة والبلاد أو الدولة ، كما أن الوطنية هي عاطفة محبـة الأرض أو مكان الميلاد والنشأة أو هي غريــزة الولاء وقيمة الانتماء.وقد تتخذ مفاهيم سياسيــة بعينها كما قد تشــير إلى مفاهـيم اجتماعية بحســب ما توظف له وتستعمل.

1- مـــــروج الذهـــــب ومعـادن الجوهـــر، المسعـــــودي ، دار الأنـدلس ، بيـــروت ، لبنـان ، ط 4 ، 1981 ، ج2 ، ص : .40،39

2- ساعـات بين الكـتب ، عبـاس محمـود العقـاد ، دار الفكر ، القاهرة ، مصر 1978، ص:217.

2- الأمّـة والقومية:

كثيرا ما يستعـمل لفظ (**أمّة**) للـدلالة على مجموع شعـوب تنـتمي إلى أصول واحدة ، أو تجمعها روابط مشتركة ، وإن تمثلت في عدة أوطـان ، ونجده مستعـــملا للإشـــارة إلى الوطـــن الجغرافي (الإقليـم أو الـدولة) ، أو التاريـخي لجماعة بشـرية بعينها .

ومـما جاء في لســان العـرب في مادة (أمـم) ما يلي : « الأمّـة والإمّـة ؛ الديـــن ، قـال أبو إسحـاق في قـوله تعالى :(كان الناس أمـة واحدة فبعـث الله النبيين مبشـرين ومنـذرين) أي كانـوا على ديـن واحـد ، والأمّةُالطريقـةُ والدينُ، يقال : فلان لا أمّـة لـه ولا نحلـة لـــه ، قـال الـشـــاعـر:

وهل يسـتـوي ذو أمـــة وكفـــور؟

وأمّ القـومَ أي تقـدمهم ، وهـي الإمـامة » (1)

كما تحمـل دلالة الحقبة من الزمان ، والجماعة ، والفرد المتفوق؛« والأمة القـرنُ من الناس، والأمـة :الجيـل والجنـس من كل حي، والأمـة :الرجـلُ الذي لا نظيـر لـه(إن إبـراهيم كان أمة)، والأمّةُ الحين قال الـفراء في قوله عـز وجـل (وادكـر بعـد أمـة) قـال : بعد حيـــن من الدهـر، والأمـــة: الجـماعة قال الأخـفش : هـو في اللـــفظ واحـد وفي المعنى جمع » (2)

.

وتـدل أيضا دلالة أصل الشيء ومصـدره« وأم الشيء :أصلُـه، والأم والأمّة :الوالـدةّ ، وانشـد ابن بـري :

تَـقـَبـّلـها من أمّـةٍ ولطـــالمـا -*- تُـنُوزِعَ في الأسـواق منهـا خِمارُهَا» (3)

ولقـد ورد ذكـر لفـظ (أمة) في القـرآن الكريم أربعا وسبعيـن مـرة (74) على معاني

1- لسـان العـرب ، مجلد :12 ، ص: 23 ، 24 . مـادة (أمم)
2- المصـدر نفســه ، ص: 26 ، 27 ، 28 .
3- المصـدر نفسـه ، ص: 28 .

مختلفة - مفردة أو جمعا - رأيت أنه من المهم أن أشير إلى بعضها ، استنادا إلى دراسة مفصلة في هذا المبحث بعنوان (مفاهيم قرآنية) - من ضمن ما جاء فيها - :

1- أمة ؛ بمعنى إمام ؛ قال تعالى - من سورة البقرة - : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (1)

2- الأم « من الإنسان والحيوان تكون بإزاء الأب ، وتُطلق الأم على الجدة وعلى من أرضعت الإنسان ولم تلده..وكلَّ شيء يضم إليه ما سواه ،وكلُ مدينة هي أم ما حولها من القرى، ومن هنا جاءت تسمية مكة بأم القرى» (2) ، قال تعالى :(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب) (3)

3- كل جماعة يجمعهم أمر ما ؛ جاء في سورة البقرة :(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة) (4) وفي سورة الأنعام :(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) (5).

4- بمعنى ؛ الحين أو الزمن ،قال تعالى في سورة يوسف : (وقال الذي نجا منهما و ادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) (6)

5- بمعنى الدين ، في قوله تعالى :(أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (7)

7- بمعنى قدوة ومعلّم خير،جاء في سورة النحل :(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا) (8)

1- سورة البقرة ، الآية : 124.
2- مفاهيم قرآنية ، محمد أحمد خلف الله ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد : 79 ، يوليو 1984 ، ص : 57.
3- سورة آل عمران ،الآية : 07.
4- سورة البقرة ، الآية : 128 .
5- سورة الأنعام ، الآية : 38 .
6- سورة يوسف ، من الآيتين: 45 ،46 .
7- سورة الزخرف ، الآيات : 21 ، 22 ، 23 .
8- سورة النحل ، الآية : 120 .

وجملة القول : إن القرآن الكريم قد أورد لفظ (أمّة) للدلالة على ثلاثة مفاهيم كلية: «الجماعة التي يربط بين أفرادها رابط ما ، والحين أو الزمن ، والدين » (1)

أما تداول اللفظ بصفته الاصطلاحية فله أكثر من مفهوم ؛ تبعا لمجالات المعرفة التي يستعمل فيها ؛« **فالأمّة**(Nation): مجموعة بشرية تكون تآلفها وتجانسها القومي عبر مرا حل تاريخية تحققت خلالها ألفة مشتركة ، وتاريخ وتراث ثقافي ومعنوي وتكوين نفسي مشترك ، والعيش على أرض واحدة ومصالح اقتصادية مشتركة، مما يؤدي إلى إحساس بشخصية قومية وتطلعات ومصالح قومية موحدة ومستقلة.» (2) ويراها جبران:« مجموع أفراد متباييني الأخلاق والمشارب والآراء تضمهم رابطة معنوية أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعم من الآراء.» (3)

وبمنظور علم الاجتماع تعني (الأمة): « جماعة سياسية مستقلة ذات إقليم محدد يشترك أعضاؤها في الولاء لمؤسسة واحدة مما يؤدي إلى إحساسهم بالوحدة ، وبأنهم يكونون مجتمعا.» (4)وفي تعريف ثالث نجد ها تعني : « جماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ومصالح وأماني واحدة تجمعهم ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان.» (5) غير أن الأكاديميين السوفياتيين يذهبون أن الأمة هي : « جماعة من الناس تتشكل تاريخيا ، وتتميز أول كل شيء بالظروف المادية المشتركة للحياة : الأرض والحياة الاقتصادية وجِـمَاعِية اللغة والتكوين النفسي، وسمات معينة أيضا للشخصية القومية ، تظهر في الخصائص النوعية القومية لثقافتها، والأمة للجماعة الإنسانية.» (6) وقد حمل المصطلح - بفعل تطور القوميات الحديثة - مدلولا

1- مفاهيم قرآنية ، ص: 59.
2- موسوعة السياسة ،عبد الوهاب الكيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان، ط 1 ، ج1 ، ص :305 ، 306.
3- جبران خليل جبران(المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية)، تقديم ومراجعة وترتيب: ميخائيل نعيمة،دار صادر بيروت، لبنان ،ط 1 ، 2002 ، ص: 252.
4- قاموس مصطلحات علم الاجتماع ، ص: 19.
5- إشكاليات الخطاب العربي المعاصر ، ص : 163.
6- الموسوعة الفلسفية ، ص : 50.

سياسيـا ؛ الأمـر الذي « جعل من حق كل أمـة أن تكـون لهـا دولتهـا القوميـة المستقلة التـي يكـون على رأس الحكـومة فيها واحـد من بنيـها.» (1)ويمكن أن تتكون الأمـة من أكثر من جنـس فتشـترك فـي روابـط تجمـعها وتوحـدها ؛ «إذا عملـت عوامـل التوحيـد والصهـر والانسجـام في شعب من الشعوب كالاشتراك في اللغة والحياة المشتركة الطويلـة أي التـاريخ والثـقافة والمعتقدات والمبادئ والأفكار والعادات والأخـلاق، تـألف منـه وحـدة اجتماعيـة حيـة نسمـيها أمة ، والحالة الطبيعيـة الغالبـة ، أن يكـون لهـذه الأمـة كيـان سياسـي يحفظهـا أي أن تؤلف دولة» (2) .أما الأمة العربيـة فقد وضعت لها موسوعة السياسة تعريفا خاصا يرى أنها :« تتشكل من المجموعات البشرية التي تتكلم العربية وتعيش فـي الـوطن العربـي الـذي يشمل الأقاليم الخمسة الكبرى ، وهو المشرق العربي ، الخليج العربي ،شبه الجزيـرة العربيـة،وادي النيل والمغرب العربي، تجمعها وحدة الثـقافة والتاريخ والشعور بالانتمـاء القومي ، وبـروابط من الوحدة الشعـبية والروحيـة والشخصية الحضـارية الواضـحة والمصير الواحد. ويسـود الوطن العربي الشعـور بالقومية العربية التي أصبحت منذ القرن الماضي (أي التاسع عشر) قوة تغـيير حافزة على النهـوض والتـقدم والاستقلال ، فأذكت بذلك الروح الوطنـية والحـركة الاسـتـقلالية النضالية ضـد الهيـمنة الأجـنـبية..» (3)

أما لفظـة (**قوم**) فنجدها في لسـان العرب : « قوم : القيام نقيض الجلوس، قام يقوم قـوما وقيامة و قومـة وقامـة.ومعنـى القيـام ؛العزم . ومنـه قولـه تعـالى :" وإنـه لمـا قـام عبـد الله يدعوه" أي لما عـزم. وأقام بالمكان إقاما ولإقامة ومقاما ؛ لـبث » (4)

« ..وقامت الـدابة ؛ وقـفت..والقائم ؛ المتمسـك بدينه » (5)

والقوم مفرد يدل على الجمع : « القوم الجماعة من الرجال والنساء جميعا ، وقيل هو للرجال خاصة دون النساء ودليله من قوله تعالى :" لا يسخر قوم من قـوم عسـى أن يكونوا

1- مفـاهيم قرآنيـة ، ص: 60.
2- الأمة والعوامل المكونة لها، ص:31 ، 32.
3- موسوعة السياسـة ،ج 1 ، ص: 306.
4- لسان العرب ،مجلد 12 ، ص: 497 ، 498 ، 499. مادة (قوم).
5- المـصدر نـفسه ، ص: 500 ، 501.

خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن " وكذلك قول زهير:

وما أدري وسـوف إخال أدري -*- أقـوم آل حصـــن أم نســاء ؟

وقوم كل رجل شيعته وعشيرته. قال ابن الأثير : القوم في الأصل مصدرها قام ، ثم غلب على الرجال دون النساء ،ولذلك قابلهن به وسموا بذلك لأنهم قوامون على النساء بالأمور التي ليس للنساء أن يقمن بها » (1)

ومن المستحسن التوقف عند لفظ (قوم) في القرآن الكريم عطفا على ما مر مع لفظ (أمة) ، ومما يلفت الانتباه هو أن (قوم) وردت في كتاب الله -عز وجل- إحدى وستين مرة وستمائة (661) أضعاف ما ورد لفـظ (أمة) (2).

ومن المهم الإشـارة إلى أهم دلالات (قوم) في القـرآن الكريم ، وهي كالتالي:

- يراد ب(قوم) في كتاب الله جماعة النساء والرجال ، عدا في قوله تعالى من سورة الحجرات "..لا يسخر قوم من قوم " وفي قوله - عز وجل – من سورة النساء "الرجال قوامون على النساء"

- مادة (ق و م) : وما اشتق منها من كلمات وبخاصة كلمة القوم مثل : الإقامة والمقام والمقيم ، وما أشبه مما يدل على الاستقرار في المكان .

- ارتباط الكلمة بالجماعات البشرية دون غيرها ، أما « (أمة)فلا ترتبط بالجماعات البشرية فقط ، وإنما تمتد إلى الجماعات من الدواب والطيور.. » (3)

- قوة الروابط والمقومات الجامـعة للقوم وكثـرتها ، بخلاف ما يجمع الأمة ، فقد يكون رابطا واحدا. وأولها المقام "بضم الميم" أي محل الإقامة ، ومكانه : « وهذا المكان هو الذي يمكن أن نسميه بالوطن .الوطـن الذي يكن له المواطن كل حب وتقدير، ويكون ولاؤه له من القوة بحيث يضحي الإنسان في سبيله بالنفس والمال ، مدافـعا عنه وذائدا عن حياضه »(4)

1- السابق ، ص: .505
2- للتوسع أكثر ينظر : مفاهيم قرآنية ،ص : 55...71.
3- مفاهيم قرآنية ، ص: .64
4- نفسه ، ص: 65.

وعليه فالمقوم الأول لكل أمة هو المكان. والمقوم الثاني هو اللغة ، فهي الوعاء الثقافي والحضاري للقوم ،ولغة التخاطب والتواصل:« والقومية هي هذا المجتمع القوي بجميع عناصره المادية والمعنوية من أرض ولغة ومعتقدات ومفاهيم وأخلاق وثقافة وحضارة في حاضره وماضيه ».(1) أما المقوم الثالث هو المصلحة المشتركة «وهذه المجموعة من الروابط هي التي نسميها نحن العرب في وقتنا الحاضر بالقومية»(2)

وبالنظر في المدلول الاصطلاحي للكلمة - وهي تستعمل بصيغة المصدر الصناعي (**قومية**) - تعني : « تحول شعور لا موضوعي غامض بالقرابة الشعبية إلى شكل من الوعي السياسي الأكثر وضوحا ، أو إلى إيديولوجية تعد حب الوطن هو القيمة الاجتماعية الأساسية وتعمل على زيادة ولاء الفرد للوطن وتنطوي على الشعور بالمصير والأهداف والمسؤوليات المشتركة لجميع المواطنين » (3) أما في المعاجم الفلسفية فتعني : « القومُ جماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها ، والقومية هي الصفة الحقوقية التي تنشأ عن الاشتراك في وطن واحد بمعنى الجنسية ، ويمكن أن تكون صلة اجتماعية عاطفية تتولد لدى أفراد أمة ، قائمة على الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والثقافة و التاريخ والمصالح وآمال المستقبل» (4)

وتحمل اللفظة في الدلالة السياسية المعنى التالي : « القومية (Nationalisme) مصدرها اللغوي من القوم أي جماعة تجمع بينهم رابطة معينة .في الدلالة السياسية للمفهوم يرتبط مفهوم القومية بمفهوم الأمة ، من حيث الانتماء إلى أمة محددة ، وهي الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة الذي تجمع بين أفراده روابط موضوعية وشعورية وروحية متعددة تختلف من شعب لآخر مثل اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ والحضارة. بدأ مفهوم القومية بالانتشار وفي أواخر القرن الثامن عشر بعد ظهور الحركة الرومانطيقية الألمانية كرد فعل من المثقفين والأدباء والشعراء والمفكرين الألمان

1- الأمة والعوامل المكونة لها ، ص:31.
2- مفاهيم قرآنية ص: 66
3- إشكاليات الخطاب العربي المعاصر ، ص: 176.
4- المعجم الفلسفي المدرسي الميسر ، ص: 196.

على هزيمة وطنهم أمام الفرنسيين» (1)

ويشير فتحي يَكن إلى تاريخ فكرة القومية بقوله؛ « إن فكرة القومية قديمة قدم الاجتماع البشري ، ولكنها كانت تسمى قديما "العصبية" فالعصبية التي كانت تجمع أفراد القبيلة الواحدة، هي التي في الواقع القومية.» (2)

ومن المنطقي أن تتسم القومية بخاصية الولاء لها ممن يقومون لها فهي : «مبدأ سياسي اجتماعي يفضل معه صاحبه كل ما يتعلق بأمته على سواه مما يتعلق بغيرها»(3)

وقد نشط المفكرون والفلاسفة وعلماء الاجتماع وحتى السياسة في إنتاج نظريات فكرية تؤسس للفكر القومي ، الذي يتمثل في : « الفكر الذي ينطلق من الإيمان بحقيقة الانتماء القومي لأمة عربية واحدة ، وينشغل بدراسة واقع هذه الأمة ، ويبحث من ثم في التدليل على وجودها كوحدة ، وفي توحيد الوطن العربي ، وفي تحرير الأجزاء المحتلة من هذا الوطن وفي التقدم به، وتحديد مكانه من العالم .» (4)

ومما تجدر الإشارة إليه - في ختام هذا المبحث- أن القومية قالب واسع لعدد مفتوح من المفاهيم المختلفة ؛« فالقومية - إذن - ليست سوى كيان فارغ يحتاج إلى إملاء.. وليست عاطفة جياشة بحاجة إلى دعائم فكرية قوية وفلسفية منطقية معينة .» (5)

ومجمل القول إن القومية مفهوم يقترب كثيرا من مفهوم (الوطنية) ولو أن الأولى أوسع وأشمل ، كما يقترب - أيضا- من مفهوم (الأمة) في كثير من العناصر الجامعة بينهما ، ويتقاطع المفهومان في الاستعمالات الكثيرة في العلوم الإنسانية والاجتماعية حتى إن البعض يستخدمونهما للدلالة على مفهوم واحد ، في أكثر الأحيان.

1- موسوعة السياسة ، ج 4 ، ص: 831

2- حركات ومذاهب في ميزان الإسلام ، فتحي يكن ، شركة الشهاب ، الجزائر ، 1979 ، ص:.89

3- المنجد في اللغة والأعلام ، ص :664. مادة (قوم).

4- القومية العربية في الفكر والممارسة (من مقال: ملاحظات حول نشأة الفكر القومي العربي وتطوره) ، أحمد صدقي الدجاني ، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ، لبنان ، ط 2، أكتوبر، 1980 ،ص: 308.

5- حركات ومذاهب في ميزان الإسلام ، ص: 90.

3- الانتـماء والــولاء:

يرتبـط مفـهوم الانتـماء بالوطن والأمة والقومية ارتباطا وثيق الصـلة ، يجعل من الوقوف عنده ضـــرورة لا مفـر منهـا ؛ ذلك أنـه يمثل شكل العلاقة بين الوطن والمواطن ويُظهر حدودها ودلالتها ومن ثم يحدد وظيفـة هذا الانتـماء ، لاسيمـا إذا تعلق الأمـر بشاعر كأبي ماضي قضى الشطر الأكبر من حياتـه خارج حـدود الوطـن ، الشيء الذي يجعل البحث عن مفهـوم الانتماء مهما للغاية ، لكون الشاعـــر لا يشارك في مواطنتـه بشكل مباشـــر لعامل البعد والغـربة . كما أن مفهوم الـولاء شديـد الارتبـاط بالوطـن بدرجة لا تقـل عن مفهوم الانتمـاء . الأمـر الذي يدفعـني إلى البحـث في المفهومين ومحاولـة مقاربـة معنـاهما ما أمكن ذلك.

تدخل (**انتماء**) لغـويا ضمن مـادة (نمي) وهي في لسان العرب: « نَـمِيَ: النماء ؛ الزيـــادة ، ونـميـتُ الحديثَ إلى غيري نَـمْـيًا إذا أسندتـه ورفعتـه. ونميـته إلى أبيـه نَـمْـيًا ونُـمِيًا وأنـميته : عـزوته ونسبـته ،وانـتمـى هو إلـيه : انـتسـب . وفـلان ينـمي إلى حـسب وينـتمي : يرتـفع . ونـماه إليـه جـدُهُ إذا رفـع إليه نـسبـه ؛ ومنـه قـوله:

نـمـانِـي إلى العـليـاء كلّ سمـيدع » (1)

وتحمـل المـادة أيضا معـاني الكـثرة والزيـادة ؛ « نَمَـى : ينمـي نَـمْـيًا ونَـمِـيًا ونَـماء المـالُ وغـيره ؛ زاد وكـثر. نَـمَى الرجـلَ إلى أبـيه : نسبه إليه..انـتـمى انتمـاء فـلان إلى أبـيـه : انـتسـب واعتـزى» (2)

أمـا اصـطلاحا فـلا تعـتـبر (انتـماء) مصطلـحا متـفـقا عليـه فـي مجـالات العلـوم الإنســـانية ، باستثـــناء المنطـــق الرياضـــي ، الـــذي نجـــده فيـــه بمعنـــى: « **انتمـــاء** (Appartenance) عـلاقة منـطقيـة بيـن الفـرد والصنف الذي يدخـل في ما صَـدَقَـه » (3)

1- لسان العرب ، مجلد :15 ، ص: 341 ، مادة (نـمِـي).
2- المنـجد في اللـغة والأعـلام ، ص: 840،مادة (نَـمَـى)
3- معجم المصطلحات العلمية والفنية ، ص :689.

ولعل أكثر ما يستعمل اللفظ مقاربا لمفاهيم الهوية والمواطنة ، لكنه ليس خاصا بهما دون غيرهما فقد يكون الانتماء لحزب أو جماعة أو فلسفة أو لمذهب فني أو فكري ، ويتحدد الانتماء بدخول العنصر في مجموعة معينة وانخراطه فيها أيا كانت مكوناتها ، وتكون فعاليته بقدر إسهامه : « إن الشعور بالانتماء إلى جماعة ما ، لا يتم بالتواصل فقط ، بل من خلال الاهتمامات المشتركة ، ومعايشة الظروف نفسها»(1) ومن دلالات الانتماء ، في سياق ما يمس موضوع هذا البحث ، ما يشير إلى الارتباط بالأرض والوطن إذ : « التعلق بالأرض يعني الإصرار على الانتماء إلى وطن حر أجمع الشعراء على افتدائه بروحهم »(2).

ورغم محاولات كثيرة تحاول التأسيس لنظرية اللا انتماء ، إلا أن الطبيعة البشرية تفترض وجود انتماء ، مهما كانت فلسفة اللاامنتمي متحررة من كل الضوابط ، لأن هذا الانتماء حاجة إنسانية أقرب إلى الغريزة ، كما يذهب إيريك فروم (*)الذي يرى أن فهم الذات الإنسانية يبنى على ؛ « تحليل حاجات الإنسان النابعة من ظروف وجوده ، وهذه الحاجات خمس وهي : الحاجة إلى الانتماء ، والحاجة إلى التعالي أو التجاوز، والحاجة إلى الارتباط بالجذور ، والحاجة إلى الهوية ، والحاجة إلى إطار توجيهي ، وهذه الحاجات إنسانية و موضوعية فهي لا توجد عند الحيوان ، ولم يخلقها المجتمع، وإنما أصبحت جزءا من طبيعة الإنسان خلال التطور والارتقاء »(3).

أما **الولاء** فمادته (ولي) ومعناها اللغوي :« وَلِيَ وَلْيا فلانًا :دنا منه وقرب ، تبعه من غير فصل..وَالَى ولاءً ومُوَالاة الرجلَ:صادقَه وناصَرَهُ ،والى الشيء: تابعه

---

*- إيريك فروم (1900-1979) ولد بألمانيا وتوفي بسويسرا ؛ مفكر معاصر من مؤلفاته :الهروب من الحرية ، تجاوز أغلال الوهم ، الإنسان من أجل نفسه.

1- الثقافة العربية وعصر المعلومات ، نبيل علي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد؛ 265، يناير 2001 ، ص:.106

2- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، نور سلمان ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 1، يناير 1981 ،ص : .327

3- الإنسان بين الجوهر والمظهر ، إيريك فروم ، ترجمة: سعد زهران ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد؛ 140، أغسطس ، 1989، ص:08.

الـوَلاء : المحـبة والصـداقـة ، القـرب والقـرابة، النـصرة . الولاءة : القـرابة »(1)

أمـا اصـطلاحا ؛ فـالولاء (Allegiance) فهـو: « الـروابط والعـواطف المعنـوية والقـانونيـة التي تـربط الفـرد بجمـاعـة أو مـؤسـسة أو وطـن . وبالنسـبة إلى الـوطن - الدولة ، يشـير المصطـلح إلى واجـبات الفـرد تجـاه سيـاسة الـدولة التي يحـمل جنسيـتها .أما بالنسـبة لغـير الدولـة فالـولاء عـاطفي وطـوعي »(2)

وعلى هـذا فالـولاء يستـدعي ضمـنيا وجـود عنصر أي طرف أول ، وجمـاعة أي طـرف ثان ، ووجـود علاقة هي فـكرة الربـط بينـهما ، و هـذا ما يجعـله مختـلفا عن معنـى الانتـماء ، إذ يعنـي الأول(أي الـولاء) التبعيـة ، بينما يعـني الثـاني (الانـتماء) دلالـة الجـزئية من الكلـية .

وفـكرة الـولاء قديـمة عند الإنـسان ؛ هذا الكـائن الـذي يتحـدد تعريـف جانب مهـم منه بمعنـى الـولاء ، فهـو مخلـوق اجتمـاعي ، وهـذه الاجتـماعية تفـضي إلـى وجـود مضمـون الولاء ، الذي يحـدد شخصيـة الفـرد في إطـار الجمـاعة الـتي ينتمـي إليها ، مهمـا كـان شكل هـذه الجمـاعة ، ومن أقـدم هـذه الأشـكال القبيلة التي هي نظـام ما يحـكم الجمـاعة البشـرية ، ويضبـط لها تميـزها عن غيرها : « تملـك القبيـلة - رغم أنها شكل بدائي نسبيا من أشكال التنظيـم الاجتـماعي - من الفـضائل ما قد تحسـدها علـيه أنـواع متـقدمة كثيـرة كثيـرة أخـرى من المجتمـعات ، إذ يتـناسب هـذا التنـظيم مـع المـثال العـالي المـتمثل بالحـرية واحـترام الـذات ، ويستثير إحـساسا عـميقا بالـولاء والمـحبة من جانـب أفـراد القبـيلة نحـو الجـماعة ورئيـسها »(3)

وفي قامـوس مصطلحـات علـم الاجتـماع نجـد تحديدا مقاربا ؛الولاء (Alliance) يعنـي:« الاستعمال العام لهـذا اللـفظ يعني الروابـط ، وهـو العـواطف الروحيـة والقانـونية

1- المنجد في اللغة والأعـلام ، ص : 918 ، 919.
2- موسـوعة السيـاسة ، ج 7 ، ص: 314.
3- الـبدائـية ، آشـلي مـونتاغيـو ، ترجمـة : محمـد عصـفور، المجـلس الـوطني للثقـافة والفـنون والآداب ، الكويت ، عـدد 53 ، مـايـو ، 1982، ص: 158 ، 159.

التي تربط الفرد بالجماعة »(1)

وخلاصـة مـا سـبق أن مـفهـومي الانتمـاء والـولاء قريبـان جـدا ويكـاد أن يكونـا متلازمين ؛ أو متـداخلين في الاستـعمال فإذا لخصنا الانتماء في التبعيـة والهوية والانتـساب، فـإن الـولاء رابـطة قويـة بـين الفـرد والجـماعة تترتـب عليـها عـدد مـن الالتزامـات تسـمى الواجبـات ، وقـد تأخـذ هذه الرابطـة أشكـالا مختـلفة يمكـن أن تـكون العصبيـة القبليـة، أو الوطنيـة أو القـومية أو غيرها..

1- قامـوس مصطلحـات علم الاجـتماع ، ص : 297.

4- الغـربة والحـنين:

تُسْتعمل كلمة " **غـرْبَة** " للتعبير عن دلالة البعد عن الوطـن أو الأرض أو الأهـل، واستعمالها فـي الشعـر يشيـر- عـادة - إلـى الشعـور بافتقـاد الـوطن، والوحشـة مـن هـذا الافتـقـاد.

وفي المعاجم العربية نجد مادة(غرب)كالتالي:« الـغَـرْب؛الذهاب،والتنحي عن النـاس، والغَـرْبة والغَـرْب : النـوى والبعـد . قال ساعـدة بن جؤية يصف سحـابا :

ثم انتـــهى بصـــري وأصبح جالسا -*- منـــه لـنجـد، طـــــائف متـغرب

الغُـرْبَة والغُـرْبُ : النزوح عن الوطن والاغتـراب ، قال المتلمس :

ألا أبـلـغا أفنـــاء سـعـد بن مـــالك -*- رسالة من قد صار في الغُـرْب جانبه»(1)

وفي المنجد في اللغة والإعلام : « غَرب - غَـرْبا ؛ ذهب ، غَـرُبَ فلان عنا : تنحى. غَـرَب في سفره : تمادى. يقال (اغرب عني) : أي تباعد. غرب غُربـة وغَرَابـةً : نـزح عن وطنـه.. تغـرّب واغترب : نـزح عن وطنـه . "غـراب نـوح " مثل يضـرب لمـن غـاب ولـم يرجـع . غريب، ج ؛ غرباء .غرَب النجم : غـاب . المغرِبُ : مكـان غروب الشمس. غَـرُب الكـلام : غَـمُـض وخـفِي .»(2)

أما في الاصطلاح فهي : « غـربة (Depaysement) عاطـفة تستولي على الـمرء ، وبخاصـة على الفـنانيـن ، فيعيـشـون فـي قلق وكآبـة لشعـورهم بالبعـد عمـا يهـوون ، أو يرغبـون فيـه .»(3)

ومـن الشـــائع استعمـــال صيغـــة " **الاغتـراب** " للـدلالـــة علـى معنـــى الغربـــة: «الاغتـراب" الضـياع أو الأليـنـية " (Aliénation) يطلـق عليـه أيضـا تعبيـر الضـياع أوالأليـنية. وهـو فقـدان الجـوهر أو السـقـوط في التبعيـة. مصدر الكلمـة لاتيـني ،يعنـــي

1- لسـان العرب ، مجلد:1 ، ص : 638 ، 639 . مادة (غرب) .
2- المنجد في اللغة والأعـلام ، ص: 547. مادة (غرب)
3- المعجم الأدبي ، ص: 186 . مادة (غربة)
4- موسـوعة السيـاسة ، ج1 ، ص: 216.

جعلـه آخـر ، بمعنـى فقـدان الذات المتـميزة . والاغتـراب عـند العـرب تـرك العشيـرة والوطـن»(4)

ونـجد معنـى "الاغتراب" يتغـير تبعا لمجـال المعرفـة أو العلـم فهـو فـي تعـريف آخـــر : « يعنـي حـالة انفـصال واستـلاب ، وهـو إحساس الإنسـان بأنـه ليـس فـي بيـته ومـوطنـه أومكـانه .ويعـني في الطب ؛ الاضطـراب العقـلي الذي يجعـل الإنسـان غريبـا عن ذاتـه ومجتمعه. وفي الفلسـفة : غـربة الإنسـان عن جـوهـره تنـزله عن المقام الـذي ينبـغي أن يكـون فيه ، أو عـدم التـوافـق بين الماهية والوجـود المرجع»(1)

وقـد أثِـر عن الإمام علي - كرم الله وجهـه- أنه قال : « إن الغنـى في الغربة وطن، و الفقـر في الوطن غربـة ، والفقر يُخرس الفَطِن عن حُجته ،والمُـقِل غريـب في بلدتـه»(2)

وإذا كانت الغـربة هي الشعـور بالبـعد عن الوطـن أو الضياع ، فإنها تستدعـي شعورا آخر يحـاول إبقـــاء الغريب على صلة بالمكان الذي نـزح عـنه أو الأهـل الذين تركهم هذا الشعـور هو الحنيـن. فالغربـة هي الشعـور بمـرارة الاستـلاب ، والحـنيـن هو الشعـور الذي يمثـل رد الفعـل على ذلك ؛ بمحاولـة استحضـار الغائـــب على مستـوى الشعـــور.أو التطـلع إلى هذا الغائب وتمـنـي رؤيته من جـديد ، وهـو شعـــور أقرب ما يكـون إلى معنى الشـــوق ؛ « لأن الإنسـان عنـدما يغادر بقعتـه الأرضية التي ولـد فيهـا وعـاش ، وينـزح إلـى بقعـة أخـرى فقد يشـعر بالانقباض والوحشـــة من هـذه ، والـشـوق والحنين إلى تلك ، وبما يشـبه الجمـر أو أشـد إيـلاما .وهـذه غـربة تشـتـرك فيـها الكائـنات الـحية ولا يتـفـرد بهـا الإنسـان (3)».

وفي مـادة (حنـن) في المعاجـم العربـية نجـد :« حـن ، حنيـنا :استطـرب وتاقـــت

1- إشكاليات الخطـاب العربي المعـاصر ، ص: 162.
2- الإسلام وحـــقوق الإنسـان ، محمـد عمـارة ، المجلـس الوطني للثقـافة والفـنون والآداب ، الكويت ، عدد : 89، مايو1985، ص: .07
3- اللغـة وبنـاء الذات ، عبد الرحمن بن محمد بودرع وأحمـد شفـيق الخطـيب وعبد الله آيت الأعشيـر، الدوحـة ، قطـر ، عـدد101 ، ط 1 ، 2004 ، ص:37.

نفسه ، وحــن عليه : أشفق . وحن حنة وحنانا : عطف وترحّم .»(1)

ويحمل الحنيــن معاني العطف والرحمــة : « حن – حنينا ؛ صــوَّتَ لاسيما عن طــرب أوحزن . حنينا إليه: اشتاق .استحن الشــوق فلانا : استطربه . حنّ حنّة وحنــانا عليه ؛ عطف وشفق وتــرحم .الحنان :الرحمة . يقال ؛ " حنانيك وحنانك يا رب " أي رحمتــك. رقــة القلب .»(2)

أما اصطلاحا فتعني : « **حنــين** (Nostalgie) ؛ حزن وذبول يغشيان عددا من الناس في حالة ابتعادهم عن الوطن ، ويفجران في نفس الفنــان أو الشاعر إنتاجا وجدانيا رهيفا كما يتجلى ذلك في شعر المهجريين .»(3)

وقريب من هذا المصطلح لفظ (**حنــان**) وهو في المعجم الفـــلسفي : « حنان (Tendresse) هو العطف ورقة القلب ، ولا يطلق إلا على العواطف الإنسانية النبيلة. فهو عاطفة عميقة دائمة وأولية.»(4)

ويورد جبور عبد النور تفسيرا لدلالة (حنــين) على اعتبار المعنى الواسع ، أو على دلالاتها المفتوحة : « حنــين (توسعا)؛ توق إلى أمــر ، أو مثل أعلى غامض الملامح يبرز في النفس الحساسة ، فيبتعث فيها ألما لعجزها عن تحقيق أمنيتها ، وينجم عن هدا الشعور اعتقاد بأن بلوغ الغاية لا يتأتى إلا في مجتمع فاضل ، أو في عالم آخر. وبرز هذا النوع من التوق الماورائي في كثير من آراء الفنانين ، وبخاصة لدى الرومانسيين»(5)

وهكذا فالحنين تعبير عن الوطن البعيد أو المفقود ، أو هو شعور يشد صاحبه إلى حالة سابقة أو صورة تمثل لديه النموذج الذي يتوق إليه.

1- معجم متن اللغة ، مجلد 2 ، ص: 183.مادة (حنن)
2- المنجد في اللغة والأعلام ، ص: 157 مادة (حن)
3- المعجم الأدبي ، ص : .100
4- العجم الفلسفي المدرسي الميسر ، ص : 92 .
5- المعجم الأدبي ، ص: 100 .

5- الإنسانية أو عالمية الوطن:

الإنسانية مصدر صناعي مأخوذ من كلمة (إنسان) ؛« فالإنسانية في مدلول معناها اللغوي ، مصدر صناعي مشتق من لفظة " إنسان" » (1) وفي بعض المعاجم اللغوية الحديثة تعني : « ما اختص به الإنسان . أكثر استعمالها للمحامد من نحو الجودة وكرم الأخلاق » (2) وهذا التعريف نفسه الذي أورده المعلم بطرس البستاني في معجمه " محيط المحيط" .(3) ويحددها تعريف آخر من خلال ما اتفق من طباع لدى الناس: « إنسانية (Humanite) مجموع الطبائع المشتركة بين الناس. طبائع تجعل الإنسان متميزا عن الحيوان ، ويعتبر درس الآداب أو الاشتغال بالفنون مغذيا لهذه الطبائع ومنميا لها » (4) ويميز المعجم الفلسفي بين الإنسان والإنسانية : «إنسان:(Homme)، إنسانية (Humanite):عند الفلاسفة هو الحيوان الناطق ، فالحيوان جنسه ، والناطق فصله (الجرجاني) . أما ابن سينا فيقول:" ليس الإنسان إنسانا بأنه حيوان ، أو مائي ، أو أي شيء آخر، بل إنه مع حيوانيته ناطق " والحق أن الإنسان مؤلف من هذه الجملة الحسية المصورة ، ومن تلك الجملة النفسية المؤلفة من الحالات المتداخلة كالانفعال والإحساس والإدراك والتعقل والإرادة ، فهو جسم وعقل..أما معنى الإنسانية ؛ فهو المعنى الكلي الدال على الخصائص المشتركة بين جميع الناس ؛ كالحياة والحيوانية والنطق وغيرها والتي تميزه عن غيره من الأنواع القريبة منه. أما المذهب الإنساني (Humanisme): فيطلق على حركة مفكري عصر النهضة الأوروبية الذين يرون أن خلاص الإنسان يتحقق بالجهد الإنساني وحده»(5)

1- الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ، محمد مفيد قميحة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1981 ، ص : 22.
2- المنجد في اللغة والأعلام ، ص: 19 مادة (أنس).
3- ينظر ؛ الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ، ص : 22 ، 23.
4- المعجم الأدبي ، ص : 37.
5- العجم الفلسفي المدرسي الميسر ، ص : 34 .

وقد شاع هذا المفهوم الإنساني في القرن التاسع عشر بفعل الفلسفة الرومانطيقية التي سادت أوروبا وانتقلت إلى الثقافة العربية ، لا سيما المذاهب الأدبية التي تأثرت بهذا التيار، يقول المنفلوطي : « الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة ، أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه وتكشف غماءه »(1)

ويقسم ابن باديس الوطنية إلى أربعة أقسام تبدأ من البيت فالوطن الصغير (ما يقابل الدولة) فالكبير (الأمة) فالأكبر (الإنسانية) يقول واصفا التدرج في شعور الإنسان بالانتماء من البيت إلى الوطن إلى الأمة : « ..فإذا غُذِيَ بالعلم الصحيح ،شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية ، وكانت الأرض كلها وطنا ،وهذا هو وطنه الأكبر»(2) ويقرر بعد أن يقسم الناس إزاء حقيقة الأوطان واصفا القسم الرابع: « وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة ، إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها ، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها.»(3)

وللبشير الإبراهيمي نظرة قريبة من هذه إذ يقول : « الإنسانية تلك الأم الرؤوم التي لا تحابي أحدا من أبنائها دون آخر ، ولا تميز بين بار منهم وفاجر، ولا تفرق بين مؤمن منهم وكافر.»(4)

أما **العالمية** (Universality) فهي تعبير عن انتماء الإنسان إلى العالم ، من منطلق أن الإنسان واحد في كل بقاع العالم ، فوطنيته تتجاوز الإقليم الضيق والهوية

1- الأعمال الكاملة ، مصطفى لطفي المنفلوطي ، الدار النموذجية ، صيدا- بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2002 ، ص : 182.
2- ابن باديس ، حياته وآثاره، ص: 367 ، 368 .
3- المرجع نفسه ، ص: 368 .
4- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم؛ أحمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1997 ، ج1 ، ص:62 .

المحلية، إلى اعتبار الأرض وطـنا واسـعا لكل البشـرية ، وقد أشار أرسطـو قديـما إلى مفهوم العالمـية في فن الشـعر، واعتـبر أن : « مفهـوم العـالميـة بوصفـه مـرادفا للعـام إذ يقـابل الخاص ، ورأى تلك العالمية من خصـائص الشـعـر في مقابـل التـاريخ ، بمعنـى أن العالمـي هـو تصويـر الشعـر للإنســان كمـا يمكـن أن يكـون أو كمـا لابـد أن يكـون ، لا كمـا هو كائن بالفعـل ..بمعنـى أن العالميـة تشيـر إلى الثابت أو الجـوهـري الذي لا يتغيـر ، والذي يكون بالتالي عالمـيا.»(1)

ولمفهـوم العالميـة في الثقافـة العربيـة مدلــول آخـر : « تشيـع فـي الأدبيـات العربيـة المعاصــرة رؤيــة تؤكـد أن العالميــة ميـزة إبداعيــة رفيعــة تنبـع مـن المحليــة ، أي مـن ارتبــاط الكاتب بالمكـان والثقافـة التي ينبـع منهـا. والعالميــة بهـذا المفهـوم قيمـة جـوهريــة، يرتفـع الأدب بتحقـقها وينتشــر في العالم أجمع.»(2)

وبهـذا يمكـن أن تكون نظـرة الإنسان إلـى الوطـن علـى أقصـى اتســاعها ، فتتجــاوز المعـاني المرتبـطة بالإقليــم ، أو المتعلـقة بالانتـماء إلـى جنـس معيـن ، أو أمــة بذاتهـا إلـى الإنسـانية بكل أجناسها وأممـها وقاراتـها المتباعدة . وعـادة مـا نجـد هـذا الاستعمــال يشـيع فـي مناحــي العلـوم الإنسـانية المختلفــة والفنــون ، ولهـذا فهـو يتمثـل فـي أثــار الأدبــاء والفلاســفة والمفكريــن وأهل الفن عامــة ، خاصــة بعـد الثـورة الفرنسيــة التـي بلــورت الحــدود الكبرى لما يســمى بحقــوق الإنســان ، وانتشــار الفكر الرومـانتيــكي فـي مختلف الثقافات الإنسانيـة ، وإن كان ذلك قد تعـذر تحقيقـه علـى المستويـين السياسـي والاقتصـادي ، رغــم زيـادة التقـارب بيــن الأمــم والشعــوب وسـقوط الحواجــز الجغرافيــة بفعـل ثــورة الاتصالات ،وتطـور وسائلها وتقـنياتها وتــدفـق المعرفـة وتحــول العالم إلـى قريــة كونيـة متقاربة الأطــراف.

1- دليـل النـاقــد الأدبي ، ميجـان الرويلي وسعـد البـازعي ، المـركز الثقــافي العربـي ، الـدار البيضـاء ، المغـرب- بيـروت ، لبنـان ، ط 2 ، 2000 ، ص: .115
2- المـرجــع نفســه ،ص: 118.

الفصل الأول :
الوطن والشاعر

بحث في المفهوم والموضوع

ثانيا – الشاعر والموضوع:

1- ترجمة الشاعر

2- الهجرة وأسبابها

3- لمحة في تاريخ الشعر الوطني

ثانيا: **الشاعر والموضوع.**

1- ترجمة الشاعر:(حياته – ثقافته – شعره)

هو إيليا أبو ماضي ،وتفصيل اسمه؛إيليا ضاهر طانيوس أبو ماضي(*) ،ولد سنة 1889 على أرجح الراويات وأكثرها تداولا،وترجع بعض الدراسات ميلاد الشاعر إلى تواريخ مختلفة ، يقول عيسى الناعوري : « هناك اختلاف غير قليل في السنة التي رأى فيها أبو ماضي نور الوجود: فجريدة «السائح» في عددها الممتاز لعام 1927تذكر أنه ولد عام 1889؛ وهي حتما لم تأت بهذا التاريخ اعتباطا، لعضو بارز من أعضاء الرابطة القلمية التي كانت«السائح» لسانها الرسمي،وندوتها الفكرية،فلا بد أنها أخذته من الشاعر نفسه.»(1)

وإذا كان الناعوري في كتابه أدب المهجر يورد آراء عديدة في سنة ميلاد الشاعر ، فمعظمها لا يبتعد عن هذا التاريخ إلا بسنة أو سنتين. (2) إلا أن هناك من يورد تواريخ بعيدة عن هذا ، يقول سالم المعوش- بعد أن يستعرض هذا الاختلاف مشيرا إلى عدم اعتناء الشاعر نفسه بسيرة حياته: « من أجل هذا ذهب بعض الدارسين إلى تخمين تاريخ مولده أهو في سنة1883أم في 1889 أم في 1894أم في 1892،وإذا كان تاريخ رحيله إلى مصر يحدد في سنة 1902 وأن عمره كان إحدى عشرة سنة ،فيكون مولده سنة 1891».(3)

ويعتمد الشاعر صلاح عبد الصبور طريقة أخرى للتحقق من سنة ميلاد الشاعر وذلك باستقراء قصائد الشاعر نفسها استقراء فنيا ، يقول : « ولكننا نستطيع الشك في تاريخ ميلاده، وبخاصة حين نجده يثبت في ديوانه الأول قصائد كتبت في أعوام1902،1903 ،1905. فيها قدر كبير من المرانة والمقدرة اللغوية والصياغية

---

*- رأيت أن أصرف " أبو ماضي " ما دامت كنية وليست اسما للشاعر، جريا على طريقة عيسى الناعوري (ينظر صفحة 25 من هذا البحث) ، وميخائيل نعيمة وعبد اللطيف شرارة (ينظر صفحة33).

1- أدب المهجر ،عيسى الناعوري ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، ط 3 ،1977 ، ص: .326

2- ينظر: أدب المهجر،ص:.327

3- إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب ، سالم المعوش، مؤسسة بحسون ، بيروت ، لبنان،ط1997،1،ص:28.

بحيث يستبعد أن تكون نتاج صبي في السنوات الأولى من صباه ، ويغلب على الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ ببضع سنوات ، وأنه حين وفد على مصر عام 1901 كان في السابعة عشرة من عـمره أو حـولها» (1)

ولا يعرف عن والده "ضـاهر أبو ماضـي" سوى ما ذكره الشاعـر نفسه عـنه، عند وفاته وقد أورد ذلك في مجلة السمير، قال: « توفاه الله في مسـقط رأسه المحيدثة- المتن- لبنان؛ بذات الرئة التي أنهكت قـواه وزعزعت بنيته المتينة، وذهبت بالهمة الشماء التي كان يغبطه عليـها الكثيرون » (2)

وله أربعـة إخوة ذكور وأخت واحدة ، وقد كان ميلاده بـقرية "المحيدثة"،قضاء المتن الشمالي، و بها نشأ وأخذ دروسه الأولى ،يقول عيسى الناعورى: «أما مسقط رأس أبي ماضي،والقرية التي تفتحت عيناه - أول ما تفتحتا - على جمالها وروعة مناظرها فهي قرية (المحيدثة)جارة بكفيا التي يُحيـيها صنين مع شروق الشمس ،وتجثو عند أقدامها التلال والأودية وأشجار الصنوبر والسنديان المتعـــالية على السفوح والهضاب»(3)وقد عرفت هذه المنطقة بصفاء مناخها لا سيما في الصيف،كما عرفت بمياهها الوفيرة،ومحاصيلها الكثيرة من الفواكه المتنوعة،وبراعة أزهارها،وكثرة أعيادها .

لكن ضيق يد الشاعر دفع به إلى الهجرة باكرا،وهذا دأب اللبنانيين في تلك الأيام ، فما إن يشب الواحد منهم ويصبح قادرا على السفر حتى يحزم أمتعته،وهكذا؛« نزح شاعرنا إلى الإسكندرية،وهو في الحادية عشرة أو الثانية عشـرة من سنيه،بعد أن تخلص من الأمية في مدرسة المحيدثة،وكان هذا النزوح الباكر نتيجة فاقة نادرة المثال،على وفـرة أمثالـها في

1- نـبض الفكـر (قـراءات فـي الفـن والأدب)،صـلاح عبـد الصـبور،دار المـريخ، الريـاض،وديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1985،ص:60.

2- شرح ديوان إيليا أبو ماضي ، حجر عاصي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان، ط1، 1999 ، ص:17عن(مجلة السمير، العدد19 الصادر في 15 كانون الثاني1931 في نيويورك).

3- إيليا أبـو ماضي (رسول الشـعر العربي)،عيسى الناعـوري ، منشـورات عويدات ، بيروت- باريس، ط2، ديسمبر1977 ، ص:14.

في تلك الأيام » (1).

وفي الإسكندرية قضى الشاعر سنوات وعيه الأولى ، يقيم مع عم له يدعى(نعوم) ويعمل وإياه في بيع السجائر في دكانة صغيرة ،وكان الشاعر يشغل ليله بالمطالعة ، وتثقيف نفسه، منصرفا إلى دواوين الشعراء وما يقع تحت يده من صحف ومجلات؛« ومكث في الإسكندرية بضع سنوات يبيع السجائر في النهار في متجر يملكه عم له، وفي الليل ينكب على المطالعة والتحصيل والدرس، فتثقف في النحو والصرف وأشعار الأقدمين» (2).وهذا ما نمى مواهبه وحدا بها إلى الارتقاء شيئا فشيئا حتى جعل يحاول نظم الشعر في أوقات الفراغ متمثلا بكبار الأسماء في تاريخ الشعر العربي ؛ أبي تمام و المتنبي ،وأكثر الأصوات دويا في مصر آنذاك ؛ البارودي وشوقي.

وقد وجد الشاعر في مصر شيئا من ضالته، فهي - وإن لم تمنحه الحياة الموسرة التي سعى إليها- فقد أمدت مواهبه الأدبية وأنضجت قريحته الشعرية ، وجعلته على مسافة قريبة من الحركة الأدبية الناهضة ، وحركات التجديد المتصارعة مع القديم « كما شهدت الآونة نفسها إبداع عمالقة الشعر العربي؛ شوقي وحافظ إبراهيم وجماعة الديوان(عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني..)بالإضافة إلى ذلك كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد شهد نهضة كبيرة في النثر لا تقل أهميتها عن الشعر» (3) ولم يخف الشاعر حبه لمصر ولأهلها واعتبارها وطنا له يعتز بانتمائه إليه:

وطنان أشـــوق ما أكون إليهما -*- « مصر» التي أحببتها ، وبلادي
ومواطن الأرواح يعــظم شانها -*- في النفـــس فوق مواطن الأجساد
حرصي على حب«الكنانة»دونه -*- حرص السجين على بقايا الزاد(4)

وقد تكللت هذه العلاقة الطيبة بين الشاعر ومصر موطنه الثاني بأن أصدر باكورته

1- إيليا أبو ماضي ، عبد اللطيف شرارة ،دار بيروت،لبنان،1979،ص:.08
2- الشعراء العرب،ج2(الموسوعة الثقافية العامة)، فواز الشعار،دار الجيل، بيروت ، لبنان،ص:.121
3- إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب،ص:.36
4- شرح ديوان إيليا أبو ماضي،ص:133.

الشعرية «تذكار الماضي» فيها ، لكن ظروف العيش يبدو أنها لم تتحسن، وظروف السياسة حينئذ لم تكن تبيح مساحة واسعة من الحركة والحرية، وإذا نداء السفر والضرب في الأرض يدعو نفس الشاعر التواقة إلى المجد ،وكأنه خلق للهجرة والابتعاد عن الأحبة.والوجهة هذه المرة أبعد بقاع الأرض مسافة وعاطفة وانتماء،لكنها قد تكون الغاية المنشودة التي تخرج الشاعر من ضيق الفقر،إنها أرض العالم الجديد ؛ الولايات المتحدة الأمريكية .

لكنه - وهو خارج من مصر- يعود إلى لبنان ليقيم هناك بضعة أشهر قبل أن يشد رحاله إلى أمريكا، ولتعذر الهجرة من لبنان مباشرة بسبب صعوبة الإجراءات ، اضطر الشاعر إلى العودة إلى مصر ليتخذها منطلقا - ولعله بالمرة يودعها- فهذا دأب المهاجرين آنذاك «لا بد لهم من الحصول على الجوازات للمرور بها إلى مصر ، ومصر هي التي كانت مركز انطلاق المهاجرين إلى أمريكا» (1).

ويذكر لنا الشاعر نفسه إقامته في مصر من حديث دار بينه وبين محمد قرة نقله الناعوري : « وفي الإسكندرية تعاطيت بيع السجائر في النهار في متجر عمي ، وفي الليل كنت أدرس النحو والصرف ، تارة على نفسي ، وتارة في بعض الكتاتيب .وقد أقمت في الأراضي المصرية أحد عشر عاما ،نظمت خلالها ديوانا من الشعر ، أما قصائدي الوطنية فلم أودعها ذلك الديوان ، لأن سياسة ذلك الزمن كانت تعاقب بالسجن من شهر إلى ستة أشهر،كل من قال بيتا من الشعر يُشتم فيه رائحة النقد. » (2).

وهكذا هاجر أبو ماضي سنة 1912إلى أمريكا ،وأقام زمنا في مدينة«سنسناتي» بصحبة أخيه مراد مشتغلين بالتجارة ، على أن الشاعر لم يقطع نفسه عن الدرس والمطالعة وبقي كذلك حتى عام 1916 إذ ارتحل إلى «نيويورك» ليغير نشـــاطه ويتـحول إلى عالم

1- إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب،ص:40 نقلا عن(ديوان إيليا أبو ماضي، المقدمة ،ص22،عن كتاب «السوريون في الولايات المتحدة» لـ: فيليب حتى،ص03)،
2- أدب المهجر،ص:364.

الصـحافة ،فتـولى بـدءا تحريـر « المجلـة العربيـة» مـدة مـن الـزمن ثـم تـولى «تحرير(الفتاة)لشكري البخاش وتوثقت علاقته بأدباء العربية المشهورين في المهجر الشمالي أمـثال جبران ونعيمة وكاتسفليس وعريضة ،الفرسان الذين أنشأوا (الرابطة القلمية) من بعـد » (1).

وقد انتقل الشاعر لتحرير مجلة ثالثة هي « مرآة الغرب » ، وقد كان ذلك في سنة 1918، وكان صاحبها (نجيب دياب)الذي سيصبح لاحقا حماه ، فقد تزوج الشاعر من كريمته.وظل أبو ماضي محررا فيها إلى غاية عام1929.و قبل ذلك بتسع سنين كان قد اشترك في الرابطة القلمية وقد« عرفها لنا مستشارها الأديب ميخائيل نعيمة بقوله : ..وهكذا ولدت الرابطة القلمية في العشرين من نيسان سنة 1920، وقد حرصنا منتهى الحرص على أن لا ينضوي تحت لوائها إلا رجال تقاربت أذواقهم، وتآلفت أرواحهم، وانتفى التحاسد من قلوبهم، ولا هم بعد ذلك إذا تفاوتت مواهبهم كل التفاوت، واختلفت أساليبهم كل الاختلاف، فالمهم أن تبقى العصبة متماسكة ، متجانسة ، متساندة.ولأننا لم نجد أكثر من عشرة رجال توافرت فيهم تلك الصفات فقد اكتفينا بهم،وأولئك العشرة، مرتبين حسب السن ،هم: رشيد أيوب،ندرة حداد، جبران خليل جبران ، وليم كاتسفليس، وديع باحوط، إلياس عطاالله، نسيب عريضة، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي ، عبد المسيح حداد » (2).

وقد عُرف عن الرجل نشاط دؤوب في حقل الصحافة التي تخذها عملا يسترزق منه، فقد تولى تحرير عدة صحف انتهت باستقلاله بالعمل لذاته حين أنشأ « السمير»التي كانت في أول عهدها تصدر نصف شهرية ،يقول أبو ماضي: « وفي سنة 1929 أصدرت مجلة "السمير" ،وكنتُ أصدرها مرتين في كل شهر، وفي سنة 1936حولتُهَا إلى جريدة يومية» (2). وظلت تصدر إلى وفاة الشاعر. يقول ميخائيل نعيمة : « ..فقلـمه للتحرير طلبا

1- المعجم الأدبي ، ص:505 (الهامش)
2- الديـوان ، ص :20
3- أدب المهجر ، ص :366.

للكفاف كان غير قلمه للشعر طلبا للتـفريج عن النـفس المتشـوقة إلى أكثر من الكفاف.» (1)

ولم يكن الشاعـر ممن يذيعـون أخبارهم العائلية وشؤونهم الأسرية ، فليس يعرف عن حياته الاجتماعـية الخاصـة الشيء الكثير ، من ذلك أنه رزق ثلاثـة أبنـاء أكبرهم « ريتشـارد» وهو عـالم بالـذرة وحـائز علـى الـدكتوراه فـي العلـوم الطبيعيـة، والثـاني « روبـرت» وقد لحـق بسلاح الطيران الأمريكي، أما الثالث فلم يكن معروفا لأنه كان مريضا و لا يعمل. أمـا قرينتـه فهي السـيدة « دوروتي» ابنة نجيب دياب الذي حـرر لـه الشاعـر مرآة الغرب.(2)

وأصدر الشاعر بالمهجر ديوانه الثاني الذي سماه (ديوان إيليا أبو ماضي) وهو مزيج من قديم وجديد، كمـا أصـدر فـي عـام 1927ديوانـه(الجداول) وفيـه بـرزت عبقريتـه الفنيـة ، وشخصيته الشعرية ، وجاء ديوانه الرابع يحمل اسم (الخمائل) فـي سنة 1940. أمـا مـا كتبـه بعـد هـذا التـاريخ إلـى وفاتـه ، فقـد جمعـت قصـائده وطبعتهـا "دار العلـم للملايـين" عام1960بعنوان (تبر وتراب) (3).

أما عن حادثة وفـاته ؛فإن الشاعـر قد مرض في سـنواته الأخيرة حتى جعل يشكو من علة في قلبه تعاوده بين حين وآخر، ولعلها اضطرته إلى الدخول إلى المستشفى غير مرة،كان آخرها في حزيران(جوان)1957.وينقل إلينا عيسى الناعوري – أحد أكبر الدارسين المهتمين بالأدب المهجري، والمعاصرين للشاعر- مـا جـاء فـي جريدة (البيان) النيـويوركية،لصاحبها "راجي ظاهر" عن وفاة الشـاعر فـي العدد6331 بتـاريخ 30نـوفمبر1957مـا يلـي : « ..وفـي الساعة الرابعة من صباح السبت الماضي، استفاق الفقيد يشكو ضيقا في أنفاســه، فأيقظ قرينته الفاضلة السيدة (دوروتي)،واستنجدها لتسعفه بأقراص من المنعشات كان يستعين بها فـي مثل هذه الحال ، فخفت إليه و أنجدته بها ، ولكنه بعد أن تناولها لم يشعر بتحسن،فطلب إلى السيدة قرينته أن تستـــدعي الطبيـب ففعلت

1- في الغربال الجـديد، ميخائيل نعيـمة ، مؤسـسة نوفل، بيروت، لبنان، ط2، مارس1983، ص:140.
2- ينظر: أدب المهجر، ص:.366
3- ينظر: المعجم الأدبي ، ص:505 ، 506 (الهامش).

ذلك في الحال ، فلما جاء وجده فارق الحياة..وهكذا كانت وفاته ما بين الرابعة والخامسة من صباح السبت في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الحالي» (1)

إيليا أبو ماضي واحد من أعلام الشعر ،الذين تركوا بصماتهم واضحة في مسيرة الشعر العربي الحديث ، وفي تجديده ، لكونه مثل حلقة من حلقات الوصل بين القديم والجديد،وهو في الشعر المهجري - هذه المدرسة الفريدة وهذه التجربة النادرة- العلم الأبرز في دنيا الشعر والنجم الأكثر سطوعا في سمائه، في حين كان جبران خليل جبران الاسم الأكبر ، والصوت الأعلى في عالم الكتابة النثرية.

والفترة التي شهدت ميلاد الشاعر وطفولته كانت مرحلة ثرية بالأحداث التاريخية الكبرى، والتحولات السياسية والاجتماعية والفكرية بما فيها الأدبية ؛ فقد عرفت تلك الفترة نضج مدرسة القديم ، أي مدرسة الإحياء شعرا ونثرا ، على أيدي الرواد المصلحين بدءا من الشدياق وبطرس البستاني إلى الكواكبي والأفغاني واليازجي وحتى البارودي ومحمد عبده وصولا إلى حافظ وشوقي..مما هيأ للشاعر المرجع الإبداعي الأول ،والمنطلق الذي يبدأ منه أبو ماضي مسيرته الشعرية ،وهو مستعد بفطرته لهذا الانطلاق اعتمادا على أهم عوامل النبوغ ،وهي موهبته المتوثبة ، فقد عرفنا أن الشاعر لم ينتظم في مدرسة إلا في سني طفولته الأولى ، ولم يأخذ منها إلا ما ينفي عنه صفة الأمية ،وهو - يومئذ - دون العاشرة،ولعل عصاميته ومطالعاته الدائبة كانت العامل الرئيس وراء تفتق تلك الموهبة وخروجها شيئا فشيئا إلى دنيا الإبداع ، وما من شك في أن شخصيته التي نمت وتشكلت ملامحها الأولى في طبيعة لبنان - وتحديدا في المحيدثة بالمتن الأعلى- لا شك أن هذه الشخصية غذت تلك الموهبة بمناظر الطبيعة الساحرة ، وألوانها الباهرة، وأحوالها العديدة، وأجوائها الصافية ،من قبل أن تتغذى بالحروف والكلمات والمعاني ،وهذا ما بقي في مخيلة الشاعر طيلة عمره ،وتركه « يشتاق في رحلة اغترابه إلى مراتع طفولته ويحن إلى الربى

1- أدب المهجر،ص:371.

التـي أخرجتـــه إلـى الوجـود » (1) وهـذا مـا يفسـر لنـا افتتـان الشـاعر بالطبيعـة حيثمـا ذهـب، واتخاذها ملاذا من هموم الحياة وعوالم البشر،ومادة للتعبير وأداة في آن.

وإنسان بهذا الحس الفياض والشعور الرقيق والوله بالطبيعة والتعلق بمظاهرها ، والتأمل في وجوهها وحالاتها وآيات جمالها، لا شك يكون مالكا للشاعرية ، وإن كانت قدرته كامنة،كان الفضل في اكتشافها للحروف الأولى ، التي أخذها في مدرسة قريته، والتي ما لبثت أن تحولت إلى نوافذ تَطـلـعَ الشاعر ونظر منها إلى عالم القراءة التي أدمنها في مصر كلما سنحت له فرصة ، أو وجد متنفسا من عمله في بيع السجائر؛ فقد أكب الرجل يقرأ كل ما يقع تحت يده، وبخاصة كتب التراث العربي ممثلة في علوم العربية وشعرها ونثرها،دون إغفال الإشارة إلى ثقافته الدينية التي تؤكد اطلاعه الواسع على كتب الدين ، وذلك ما يظهر في« الكثير من الاقتباسات المستمدة من كتب الدين وخصوصا من القرآن الكريم ..من ذلك أنه جعل عبارة (إلى الله راجعون) عنوانا لإحدى قصائده . » (2) كما أنه قرأ الكثير في التراث العربي الإسلامي ، وقد بدا ذلك في شعره واضحا.

أما العامل الآخر من عوامل نبوغ الشاعر وتكوين شخصيته الشعرية ، فهو ميله إلى التفلسف وذلك أثر من آثار قراءاته الفلسفيـــة العميقة؛ « إن الدارس لشعره ، يجد فيه الكثير من التأمل والتفكير والتفلسف ،ولقد كان اطلاع الشاعر على مصادر الفلسفة اطلاعا واسعا ، ابتداء من أفلاطون وانتهاء بالعصر الراهن » (3).وفي شعره آثار بينة لأبي تمام والمتنبي والمعري ، هؤلاء الذين كانوا أكثر شعراء العصر العباسي عقلانية وتفلســفا وجنوحا إلى الحكمة .وهذا ما يؤكده الشاعـــــر صلاح عبد الصبور ملخصا - في مقـالة- فضل الشاعر بقوله: « سيظل فضل أبي ماضي العـظيم ، أنـه أحد الذين ردوا العقل للشعـــر ، وكفى بهذا فضلا» (4).

1- إيلـيا أبو ماضي بين الشـرق والغرب ، ص:43.
2- المـرجع نفسه ،ص:.45
3- المـرجع نفسه ، ص:.48
4- نبض الفكر، ص:68.

ومن الواضح أن الشاعر كان على إلمام واسع بالتاريخ لاسيما ما كان من أحداث عصره وصروفه ،وشعره سجل لأهم الأحداث التي عاصرها الشاعر.كما أن اطلاعه على الآثار العالمية قد شكل جانبا هاما من نزعة الشاعر الفنية والفكرية والإنسانية ، فميله إلى التفاؤل وتوجهه الرومانتيكي، وحبه للطبيعة وإشفاقه على المعذبين في الأرض فيها الكثير من « تأثره بالفيلسوف (برغسون)، فهو في قصيدته "ابتسم" يدعو إلى الابتسامة والفرح ، وأن يتخطى الإنسان كل بادرة من بوادر الغم والحزن. » (1).

أما شعره فقد تمثل في خمسة دواوين شعرية كونت -على مر الأيام- اسم الشاعر فنيا، وأعطته هذه المكانة التي يتربعها في شعرنا الحديث، والتي كانت مثار جدل واسع بين مادح وقادح ، ومعجب وساخط ، بدءا من ديوانه الأول (تذكار الماضي) المطبوع في مصر ، والذي جاء صدى لآثار الشعر القديم في الشاعر ، وفي فنه، كاشفا صورة التقليد وتقفي عماليق الشعر العربي في أزهى عصوره، ولكنه بانتقاله إلى المهجر وتحول حياته، أخذت قريحته تتفتح من جديد على شخصية شعرية تتلمس طريقها لتتفرد بلونها وشكلها ، « ..ويقول جورج صيدح:إن هذه السنوات الأربع التي قضاها بعيدا عن دنيا الأدب(1912...1916) - يقصد الفترة التي قضاها مع أخيه مراد - كان لها تأثير واسع على شاعريته، فقد تطورت بسرعة عجيبة حتى غاب عن قصائده المنظومة في خلالها ذلك الشاعر المقلد..الذي كان شأنه في مصر شأن غيره من الشعراء يستلهم شعر العصر العباسي، ويحاول أن يقلد البارودي وصبري وشوقي وحافظ في أساليبهم ، ولكنه سرعان ما نزح عن المحيط المصري تقمص شعره روحا جديدة ، واستقل بطابع شخصي» (2).وما إن استقر في نيويورك وعاد إلى دنيا الأدب وخاض غمار الصحافة ، حتى طبع «ديوان إيليا أبو ماضي » الذي يعلق ميخائيل نعيمة على قصائده بقوله: « ..وكلها يشهد للشاعر بقريحة خصبة طيعة ، ومراس شديد، ولكنه في أحسن مجـــاليه أكمام تكممت بها شاعريته

1- إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب،ص:50.
2- أدب المهجر ، ص:365.

الخلاقة ، وهذه الشاعرية تطل عليك بوجهها النضر،وعينها النفاذة،وخيالها الوثاب..تحس عند مطالعتها أن أبا ماضي في طور الانتقال من حال إلى حال، ومن عالم إلى عالم، ومن التقليد إلى التجـديد» (1)

وهذا الديوان هو ثاني أعماله الشعرية، وقد ضمنه جملة قصائده الوطنية ، التي قالها بمصر ولم ينشرها في (تذكار الماضي) ؛« وفي هذا الديوان الثاني كان إيليا قد وضع قدمه على أول الطريق من الشاعرية المتفوقة المبدعة، فقد تخلص من قيود التقليد ، وأطلق خياله حرا يرود آفاق الوجود والطبيعة ،دون تهيب ولا حذر. » (2)

على أن عبقرية الشاعر ظلت آخذة في الارتفاع والإبداع والتجديد ، مدى تسع سنوات لتتكلل بإخراجه أروع نفحاته الشعرية ، وآياته البيانية، في ديوانه الموسوم (الجداول) سنة1927،وهي السنة نفسها التي بويع فيها شوقي أميرا لشعراء العربية في العصر الحديث،وفي هذه المجموعة تمكن الشاعر من التحليق عاليا في فضاءات الإبداع الشعري ؛فقد « وجد الأدباء والنقاد والمثقفون العرب ، في تلك المجموعة الشعرية ما ذكرناه منذ لحظات ، أي تعبيرا عما يخامرهم من شكوك وتساؤلات (الطلاسم) وما يتطلعون إليه من تجديد في طرائق التفكير وأساليب التعبير، فأخذ المعجبون يتكاثرون ، ونشأ حول اسم أبي ماضي جو من التقدير ،راح يمتد وينتشر مع الأيام ، وظل يمتد حتى عام 1950،وأبو ماضي مستمر في إنتاجه وعطائه. » (3)

وقد ضم (الجداول) روائع الشاعر ،و التي امتازت بعمق النظر في الحياة واستلهام الطبيعة واستفزازها وقدرة الشاعر على تطويع اللغة والإبداع في التعبير، وفيه تلخصت فلسفة الشاعر وآراؤه في الوجود ، فتداولته الأيدي ، وأكب عليه هواة القريض وانصرف إليه دارسو الشعـر والأدب وجماهير القراء؛« ولاقى منذ صدوره استحسانا كبيرا، وأكب

1- في الغربال الجديد ،ص : 142،143.
2- المرجع السابق ، ص : 369 ، 368 .
3- إيليا أبو ماضي ، شرارة ، ص : 39.

عليه الفتيان في الأقطار العربية ترديدا وحفظا..وأجمع الكل على أنه يحتوي خاطرات رفيعة من الأدب العالمي. » (1)

وقد بلغ الإعجاب من بعض النقاد والدارسين والشعراء أنهم رفعوا صاحب (الجداول) فوق كل شاعر من شعراء العربية ، حتى إن بعضهم فضله على شوقي ؛ وكان الشاعر أحمد الصافي النجفي أول من جاهر بذلك مقرا بتفوق إيليا على شوقي ، فقد أدلى بذلك في حوار صحفي مع « ألفرد أبي سمرا ، صاحب جريدة « القلم الصريح » عام 1932 حين سأله : "من هو أمير الشعراء بنظرك ؟" قال: صرحت في حديث عقدته معي جريدة « الأسبوع المصور » في الشام عن الشعراء ، من حيث قوة النظم وقوة الإنتاج "شوقي" .أما من حيث قوة الشاعرية والشعور الصادق ، فأميرهم إيليا أبو ماضي. » (2)

وهكذا فقد صار أبو ماضي من أبرز أعلام الشعر العربي بعد أن كان صوتا مرددا ونغمة ترجيع لا غير؛« وكان الشاعر قد انطلق انطلاقة السهم المشدود ن فبلغ غايات لم يكد يعرفها الشعر العربي من قبل . » (3)

وفي سنة 1940أصدر الشاعر ديوانه الرابع (الخمائل) الذي جاء مكملا لديوانه السابق وإن لم يكن في مستواه تماما ، غير أنه لم ينل من الحظوة والاهتمام ما ناله (الجداول) الذي ظل حديث النقاد ، ومحط أنظار الدارسين ،ووجهة القراء منذ صدوره إلى ما بعد وفاة الشاعـــــر« و يحتوي ديوان (الخمائل)على سبع وخمسين قصيدة (57)..وهنا في الخمـائل كما في الجداول تتلخص مميزات أبي ماضي الشعرية ، في شعوره الإنساني ، وعمق إحساسه بالطبيـــعة ، وتفاؤله وحبه للحياة ، وشعره الاجتماعي وفي الحيوية الشعـرية. » (4)

1- المعجم الأدبي ، ص:.505
2- إيليا أبو ماضي ،عبد الطيف شرارة ، ص: .39،40
3- نبض الفكر ، ص: .66
4- إيليا أبو ماضي (رسول الشعر العربي) ، عيسى الناعوري ، ص: 33.

ومن سنة 1940 إلى تاريخ وفاته ، كتب الشاعر عددا غير قليل من القصائد طبعت بعد وفاته في ديوان بعنوان (تبر وتراب) .ولم تكن هذه المجموعة في مستوى المجموعتين السابقتين ؛ يقول صلاح عبد الصبور : « جمع الناشرون بعض قصائده التي قالها بعد عام 1940، واختاروا لها عنوان" تبر وتراب" كان التراب فيها أغلب من التبر ، أو كان التبر مختفيا في عروق التراب. » (1)

لقد عاش أبو ماضي الغـربة معظم حياته ، وإن حياته هذه قد مرت في عمـومها بصفة عادية يغلب عليـها الهدوء ، إلا أن حياته الشعورية والنفسية كانت صاخبة بالأحداث والتجارب والمشاهـدات متنوعة في مصادر معرفتها ، واسعة رحبة بنظرتها للحياة والكون، ثـرية بإبـداعها الذي جاء في نتاج الشاعـر مزيجا من قديـم وجديد، وإبـداع وتقليد.

1- نبض الفكر ، ص:68.

2- الهجرة وأسبابها:

لا نستطيع أن نفهم شعر أبـي ماضـي، مـا لـم نسـلط بعـض الضـوء علـى عصـره وخصائصه،وظروف نشأته وتكوينـه وهجرتيه(إلى مصر وأمريكا).فحياة الشاعر وصروفها كانت- ولا شك -وراء تكوينه الفكري والفني،وهي التي صنعت له فلسفته الشعرية وشخصيته الأدبية بما في ذلك تجاربه ومشاهداته وتكوينه العصامي ومطالعاته الكثيرة.

إلا أنني أتصور أن عامل (الهجرة)هو العامل الأهم والمركزي في كشف جوانب شخصية الشاعر، وبالتالي مقاربة فهم إنتاجه الأدبي ورؤيته الفنية.الشيء الذي يجعل الوقوف عند هذا العامل من الضرورة بمكان.فكل ظروف حياته المختلفة تتلخص في هذا العامل (أي الهجرة)؛فالتجارب العديدة والاحتكاك وليد الهجرة، وتعلمه وثقافته ومطالعاته وليدة الهجرة أيضا، والتباين الملحوظ في شعره من تقليد إلى تجديد نتيجة الهجرة إلى مصر مرة ، وإلى أمريكا مرة ثانية. وحتى فلسفة الشاعر ذاتها ونظرته إلى الحياة ما كانت لتكتمل، وتظهر لنا بهذا الشكل لولا عامل الهجرة ؛لأن الشاعر ما عاش في وطنه الأم (لبنان) غير إحدى عشرة سنة الأولى من عمره . بل إن ترديده للوطن (موضوع هذا البحث) بكل وجوهه وتصوراته ومفاهيمه في شعره ، ما كان ليتأتى بهذه الصورة أو الصور لولا هجرته واغترابه الطويل،فقد؛« عاش أبو ماضي يتنقل روحيا في هذه الأوطان الأربعة(*)، ويتجول بفكره وعاطفته في آفاقها دون أن يهدأ أو يطمئن»(1) وهذا ما يفسر جوانب كثيرة من الأسئلة التي تطرح حول شعره ، وتذبذبه بين القديم والجديد شكلا ومضمونا ؛ « وجلية الأمر أنه لم يكن لأبي ماضي يد في هذا التفاوت ، ولا كان للاتجاهات الأدبية- ووعيها خاصة – أثر في تكوينه، وإنما هو تفاوت الأجواء أو " الأوطان " التي مرت بها أيام الشاعر ، وطبع كل شخصيته في كل ما صدر عنها بطابع خاص. » (2)

---

*- يقصد بالأوطان الأربعة : لبنان موطن طفولته ،ومصر موطن شبابه ، وأوهايو موطن تثقفه،ونيويورك موطن عمله.

1- إيليا أبو ماضي ، عبد الطيف شرارة، ص: 19.

2- المرجع السابق ، ص: 20.

ومن المعروف أن الهجرة لم تكن ظاهرة مميزة في حياة أبي ماضي وشعره لوحده،بل كانت كذلك في حياة لفيف كبير من أدباء سورية ولبنان وفي أدبهم ، والأكثر من ذلك أن هذه الهجرة تجاوزت نطاق الحالة (أو الحالات) الفردية- وإن كان وراء كل مهاجر قصة - إلى حالة الظاهرة لا سيما في بدايات القرن العشرين ، يمتد تأثيرها في الاجتماع والفكر و الأدب ، ويؤكد جورج طعمة ذلك بقوله: « إنك لا تجد في تاريخ أي أدب من الآداب العالمية ، مدرسة أدبية بكاملها تنشأ في بلاد تبعد آلاف الأميال عن بلادها ، وفي مجتمع لا تقل غرابته ووحشته عن بعده ، وبين تقاليد تختلف جذريا عن تقاليد أرضه وبلاده، وبين قوم يتكلمون لغة لا تمت بأية صلة إلى لغته ، وفي وسط له مشكلاته الخاصة به ،غير الأدب العربي في المهجر.» (1)

حتى صار من المسلمات لدى كل دارس ، لتاريخ سورية ولبنان (بلاد الشام عامة) في القرن العشرين أن يتوقف طويلا عند ظاهرة الهجرة وأسبابها وعواملها السياسية ودوافعها الاجتماعية والحضارية .

ولا أجد بدا هنا من التعريج على واقع المشرق العربي ، وخاصة لبنان ، إبان الفترة التي شهدت هذه الهجرات التي أنتجت لنا هذا الأدب المتميز المتنوع ، بهدف ضبط الصورة ومقاربة الموضوعية ما أمكن ، والإحاطة بمجموع المعطيات المساعدة ،على فهم النص ومحيطه الذي أنتجه ومن الوصول إلى التفسير الأقرب والحكم الأدق . لكن ، قبل ذلك نتوقف عند معنى " الهجرة".

« الهجرة في عالم السكان (الديمغرافيا) تدل على الانتقال المكاني أو الجغرافي لفرد أو جماعة»(2) وفي منظور علم الاجتماع يتحدد معناها بالهجرة الخارجية (Immigration) ؛ « زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن

1- المطالعة الأدبية الموجهة – س 3ثانوي- ،إشراف: موهوب حروش (وفقا لمناهج وزارة التربية الوطنية)، موفم للنشر، 1993، ص: 129،130. نقلا عن(المغتربون في أمريكا الشمالية) لـ: جورج طعمة.

2- موسوعة السياسة ، ج7، ص:67

آخـر، تجعـل منه مكانا جديدا للإقامة »(1)، ومن المؤكد أن ارتباط معنى الهجـرة لصيق - غالبـا- بحركـة السـعي فـي طلـب الـرزق ، جـاء فـي معجـم المصـطلحات العلميـة والفنيـة:«هجرة(f)emigration:انتقـال الأفراد من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق »(2) ويمكن أن تكون الهجرة نتاج أسباب سياسية كالاستبداد والظلم أو أسباب معـرفية كطلب العلم أو عقائـدية كما في هـجرة المسلمين الأوائل فرارا بديـنهم بعد ما لاقـوه من اضطهاد قـريش لهـم.

أمـا هجـرة اللبنـانيين والسـوريين فـي نهايـات القـرن التاسـع عشـر ، وبـدايات القـرن العشرين فيمكن حصرها في عوامل ثلاثة :

أ- العامل السياسي:

كانت بلاد الشام في هـذه الفترة تحت السيطـرة العثمانية ، وقد كان الحكم العثماني - يومئذ- مستبدا بأهل الشرق منتهى الاستبداد ، يقول محمد عبد المنعم خفاجي واصفا حال الحكم التركي وقتذاك ، مركزا على حال واقع الناس: « تضطهد فيه الحريات ، وتوأد فيه الكرامات ، ويسـاق الناس إلى السجـون والمعتقـلات و المشـانق لوهى الأسبـاب ، وأتفـه الوشـايات، فأخذ الناس يهاجـرون إلى مصر وشمال إفريقيا »(3)

لكن الهجرة إلـى بلد من البـلاد العربيـة (وهـي جزء من الوطـن الأم للمهاجر) لا تعتـبر هجـرة بالمعنى الذي يحـمل كل تلك المـرارة التي وجـدناها في الأدب المهـجري ، وكل ذلك الحنـين إلى الأوطـان ، وكل تلك الآلام المتولـدة عن البعـاد، هذا من جهـة ، ومن جهـة ثانيـة ؛ فقد كانت حال المهاجـرين إذا قصـدوا هذه البـلاد ، لا تختلـف في كثير عن حال بلادهم التي تركوها ، فبالرغم من قدرة المهاجر على التعـايش فيها لعوامل اللغة والتاريخ والأبعـاد الحضاريـة المشتركة؛ « ولكن هـذه البـلاد كان النفـوذ العثمـاني

1- قامـوس مصطلـحات علم الاجتمـاع ، فاروق مـداس، دار مدني ، 2003،ص: 286.
2- معجم المصطلحات العلمـية والفنـية ، ص:.697
3- قصـة الأدب المهجـري ، محمـد عبد المنعـم خفاجي ، دار الكتـاب اللبنـاني ، بيروت ، لبنـان ، ط 2، 1973 ، ص:13.

سائدا فيها ، والاستعمـار يتغلغـل في ربـوعها ، ومن ثم أخذ المهاجـرون يتجهـون صوب العـالم الجديـد ، نشـدانا للحريـة وطلبـا لهـا ،وفـرارا مـن الظـلم والجـور والطغيـان السيـاسي.»(1)

ولقد مر بنا كيف أن إيليا أبا ماضي امتنع عن نشر قصائده الوطنية في مصـر تحفظا من جـانب السياسـة (2)؛ « أما في لبنان وطن الشاعـر أبي مـاضي ، فقد كان الإقطاعيـون طليقـي الأيـدي ، يحكمـون بالحديـد والنـار ، ويفرضـون الضـرائب علـى السـكان " يحكمون الرعية بالجـور والعسـف، ويسـومونهم الذل أنـواعا ، والظلم أشكالا ، وشريعـة الرجل منهم إرادته السخيـفة ،والحاكم يقتل ويشنق ، ويشـوه أخلاق الشعـب.»(3) وهذا مـا عبر عنه أبو ماضي نفسـه في غـير موضـع من شعـره :

وطن أردنـاه علـى حب العلـى -*- فأبى سوى أن يستكيـن إلى الشقا
وطـن يضيـق الحر ذرعا عنـده -*- وتـراه بالأحـرار ذرعا أضيـقا
...
أمسـى ، وأمسى أهله في حـالة -*- لو أنـها تعـرو الجمـاد لأشـفقا
وحـكومة ما إن تزحزح أحمقـا -*- عن رأسـها ، حتى تـولي أحمـقا
راحـت تناصبنا العداء ،كأنـما -*- جئـنا فـريا، أو ركبـنا مـوبقا
بينا الأجانب يعبثـون بها كما -*- عبث الصبا سحـرا بأغصان النقا(4)

ومـن غيـر المعقـول أن يقـوم مجتمـع بغيـر الأمـن والعـدل ، وأن يرتـفع درجـة فـي الحضارة والارتـقاء بغير شعـور حقيقي بالحريـة والحقـوق الآدميـة لأن ؛ « العدل صـفة تبـعث الإنسـان على الاستـقامة في أقـواله وأفعـاله، وأن ينتـصف لنفسـه ولغيـره ، حتى

1- السـابق ، ص: 13.
2- ينظر صفحة : 27 من هذا البحث
3- إيليا أبـو ماضـي بين الشرق والغرب ، ص: 13 ، 14 نقلا عن (مشهـد العيـان بحوادث سـوريا ولبنـان ، مخايل مشـاقة ، مصر ،1908، ص: 22.)
4- الديوان ، ص: 272 ، 273.

جعلـه بعض الحكمـاء فضيلة قاعدة ، لجميـع الفضائـل ، وأنـه أساس الجمعيـة التأنسيـة والعمـران والتمـدن »(1).

بـل إن العدل هو أصـل المكـارم والمحـامد البشريـة و الأخـلاق ؛« وجمـيع ماعدا العدل متفرع عنـه وكالصفـة من صفـاته، وإنما يسمـى باسم خـاص كالشفقـة والمـروءة و التقوى، ومحبة الوطـن وخلوص القلـب وصفاء الباطـن »(2).

وهكذا فقد كان العامـل السيـاسي عاملا دافعا للهجـرة طلبا للحريـة ، وبحثا عن أفـق أرحـب للحيـاة الكريمة ، في الوقت الذي كانت النهـضة العربـية آخـذة في الصعـود، وهـذا ما كان يعيـق حركة الإحياء الناهضة من جـهة ، ويدفـعها إلى الاستمـرار من ناحية ثانيـة ؛ « ولعل إلحاح هؤلاء المفكريـن ، على فكـرة الحرية كان ردا على تيـار الاستبـداد آنـذاك ، وبصورة خاصة ، الاستبداد الحميدي »(3).

والملا حظ أنه كلما زاد ضعـف الـدولة زادت مظـاهر الاستبـداد وانتشـرت مفاسـد الأمـراء ، والـولاة أكثـر فأكثـر ؛« لقـد قـام بعض الباشـاوات بأفعـال قبيـحة ، وسفـكوا الدمـاء ، واغتصـبوا الأمـوال ؛ فهـذا إبـراهيم باشـا المعـروف بدالي أحـد وزراء السلطـان مراد الثالث - وكان أميـر الأمـراء في ديار بـكر بأسرها- ففتـك فيهـا وظلـم أهلـها ، وأظهـر مـن أنـواع الظلـم أشـياء مسـتكرهة جـدا ، منهـا الاعتـداء علـى الأعـراض، ونهـب الأمـوال،وفعل الأفاعيل العظيـمة ، ولما وصل الأمـر إلى السلـطان ، وعقد مجلـس القضـاء ، وهاب الناس أن يشهـد عليه لم يستـطع القاضي أن يدقـق في الدعوة لأن أختـه كانت عند السلطان مراد مقبولة جدا ، وانصـرف خصمـاؤه، وقـرره السلطـان في ديـار بكـر، فذهـب إليها نـاويا على إهلاك كل من اشتـكى عليه ، وأهلك منهـم خلـقا تحـت العـذاب، ووصـل الأمـر إلى أن ثار عليـه أهـل البلـد وقامـوا عليـه قومة رجل واحد

1- العـدالة والحريـة فـي فجـر النهضـة العـربية ،عزت قرنـي، المجلـس الوطـني للثقافـة والفـنون والآداب ،الكويت ، عدد : 30 ، 1980 ،ص: .77

2- المـرجع نفسـه ، ص: 77.

3- الثـورة العـربية الكبـرى ، مصطفـى طلاس ، دار الشـورى ، بيـروت ، لبنـان ، ط 3 ، ص:50.

فتحصن في القلعة ، وصار يقذف القذائف بالمدافع على المدينة حتى قتل منهم خلقا كثيرا.» (1)

ب- العامل الاجتماعي :

كان الوضع الاجتماعي في بلاد المشرق عامة ، وبلاد الشام خاصة - في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - وضعا مترديا غاية التردي ، وما الوضع السياسي الذي سبقت الإشارة إلى ملامحه العامة سوى مظهر قوي من مظاهره ، إذ أنه من المتعذر - وغير المعقول أيضا- فصل الجانب الاجتماعي عن الجانب السياسي تبعا لنهج العلامة ابن خلدون الذي يعد رائد التنظير في علوم الاجتماع والسياسة والتاريخ ؛ « إن الظاهرة السياسية ، عند ابن خلدون ظاهرة جزئية أو جانبية ، بينما الظاهرة الكلية، هي الظاهرة الاجتماعية ، فالظاهرة السياسية بنية من بنيات الظاهرة الاجتماعية.» (2)

وما دام أن الظاهرة الاجتماعية تشمل جميع نواحي الحياة الإنسانية للجماعة البشرية من أنشطة وحرف وأعمال وتجارة ، واشتغال بالعلوم والمعارف ، يستحسن الإشارة إلى الواقع الاقتصادي والواقع الفكري في هذا السياق ، للوصول إلى رؤيا دقيقة للأشياء والانتهاء إلى استخلاص الحكم الصادق ، والتوصيف المضبوط ، لإزاحة كل ضبابية أو غموض يعتري النصوص ؛موضوع هذه الدراسة ..

وبالعودة إلى التاريخ ،وعصر الشاعر ، نجد أن واقع بلاد الشام قد وصل إلى أسوإ حالاته،وإطلاق عبارة " الرجل المريض " على الدولة العثمانية كان توصيفا عاما لجميع نواحيها السياسية والاجتماعية ، بالرغم من بعض محاولات تحسين هذا الوضع ، وإدخال العثمانيين إصلاحات على حكمهم وأنظمتهم الإدارية، لكن ذلك لم يؤت أكله ؛

1- الدولة العثمانية (عوامل النهوض ، وأسباب السقوط) ، محمد علي الصلابي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، مصر، ط 2 ،2004 ، ص:531.

2- الفكر العلمي عند ابن خلدون ، الصغير بن عمار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط 3 ،1981 ، ص : 104 .

فالداء كان قد استشرى في جسم الدولة ؛ « وتأثرت بلاد الشام بالتنظيمات العثمانية أكثر من غيرها ، ونالها من السكك الحديدية وخطوط التلغراف ، والمدارس والجامعات ،ما لم تنله الولايات العربية العثمانية الأخرى مجتمعة ، ومع كل ذلك فقد ضاقت فرص العيش والعمل أمام عدد من أهلها ، فهاجروا بأعداد كبيرة إلى العالم الجديد، ومصر وإفريقيا الغربية » (1)

ولم تكن الهجرة أو الهجرات المتلاحقة لأفواج السوريين أو اللبنانيين نتاج وضع آني ، أو ظروف عابرة ، ولا كانت نتاج وضع محلي لبعض مناطق بلاد الشام دون أخرى ، لقد كان هذا الوضع هو الحال في كل بلاد الشام فقد ؛ « انتشر الفقر والجهل والمرض ، وعمت الفتن والانقسام الطائفي والمذهبي ، وكثر الإقطاع ، وتجار المراكز والألقاب ، وتحكم هؤلاء بلقمة الناس وأرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم ، وأصبح سواد الناس من طبقة الفلاحين مسخرين لخدمة قلة من الأعيان » (2)

ولم تكن هذه الحال لتشجع على علم أو تبعث على معرفة ، بل لم تكن لتسمح - أصلا- للعلم أن ينتشر ، ولا للمعرفة أن تسود ، فاللهاث وراء لقمة العيش ، والكفاح المستميت في سبيلها يستنفذ كل جهد ، ويذهب بكل طاقة ، قد توجه إلى معرفة أوتصرف في فكر أو علم ، ثم إن انتشار المظالم والاستبداد يسهل بتكريس الجهل ، يقول عبد الرحمن الكواكبي - أحد الذين عاشوا الاضطهاد والسجن والنفي بسبب جور العثمانيين في تلك الفترة- : والخلاصة « أن الاستبداد والعلم ضدان متغالبان ، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم ، وحصر الرعية في حالك الجهل . والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحيانا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس ، والغالب أن رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم ، وينكلون بهم ؛ فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره ، وهذا سبب أن كل الأنبياء العظام – عليهم

1- تاريخ العرب الحديث ، عبد الكريم محمود غرايبة ،الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ص: 237.
2- الديوان ، ص: 13.

الصـلاة والسـلام- و أكثـر العلمـاء الأعـلام ، والأدبـاء النـبلاء تقلبـوا فـي البـلاد وماتـوا غرباء»(1) هـذا عن المستبديـن جملة ، فما ذا عن استـبداد الشـرقيـين ؟ يـقول الكواكبي:« أمـا المستـبدون الشرقيـون فأفئدتهم هـواء ، ترتجف من صـولة العلم ، كـان العـلم نـار ، وأجسـامهم من بـارود » (2)

وفي قتامة هذا الوضـع كان اللبنانيـون والسوريـون ، يسمعـون عن أحوال مـصر الثقافيـة والفكرية ، والمعيشية (الاقتصـادية)، وحتـى السياسية ، وهـي أفضـل حـالا من حـال بلادهم ، وهذا مـا جعلها مقصدا لكثير منهم ، وأبو ماضـي واحد من هـؤلاء ،وفـي القطـر المصـري كانت يقظـة الوعي القومي ، وإحياء التراث العربي يأخذان طريقهما نحو الارتفاع شيـئا فشيـئا ،وفـي ذات الوقت كانـت حـركة الانفتـاح على الغرب بفعل حملـة نابليـون على مصر سنة 1798 ،تظهـر لها بعض الآثـار تجلت فـي انتشـار الصـحف والمطـابع والأحـزاب السياسية والبعثات العلميـة ..

إلا أنه لا ينبغي أن يفهـم أن لبنان كان خلـوا من كل هـذا ، بل إن لبنـان قد شهـد فتح عشـرات من المدارس والمعاهـد وإنشاء كثيـر من الصحـف ، غـير أن ذلك ظل محصـورا في فـئات خاصـة ، ولم تكن آثاره لتصـل إلـى عمـوم اللبنـانيين ، الـذين سـد عليهم الفقـر كل طريـق ، أو مجـال للمعرفة ، فلم يجد هـؤلاء مندوحة عن الهجـرة ، والضرب في الأرض إما للتوسـع في الرزق ،أو لطلب العلم والانفتـاح على حياة جديـدة.

ج- عوامل تاريخية وأخـرى مشجعـة:

ولا يمكن بحـال من الأحوال إغفـال العامـل الطبيـعي ، والمقصـود "بالطبيعـي" هو الميـل المتـوارث لدى اللبنانييـن والسوريين إلى الهجـرة ، حتى إنه لا يكاد يصبح فيهم طبـاعا ثابتـا ،ومـرجع ذلك إلـى أنهـم إلـى أنهـم ينحـدرون من سلالـة دأبت على الهجـرة من آلاف السنـين هـي سـلالة الفينيقيين يقـول خفـاجي:«..فإن السوري واللبـــناني مولعـان من قديـم

1- طبائع الاستبداد ومصـارع الاستعبـاد ، عبد الرحمـن الكواكبـي ، المؤسسـة الوطنيـة للفنون المطـبعية ، الرغاية ، الجزائر، 1991، ص: 48.
3- المـرجع نفسـه ، ص: 49.

بالهجرة ، وحب السعي في الأرض والاغتراب ، وركوب البحار وحياة العمل والتجارة، وهما من سلالة الفينيقيين القدماء الذين ركبوا البحار ، وجابوا البلاد واشتغلوا بالتجارة ، وأنشأوا لهم المستعمرات على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، في شمال إفريقيا . وقرطاجنة في تونس حديثها مشهور ، وتاريخها وتاريخ نشاطها التجاري معروف، ولا يضير السوري أو اللبناني أن يهاجر إلى أي مكان ، يستطيع أن يجد فيه اليسر والرخاء والاطمئنان الحيوي ، والأمن على النفس والمال ، لأن حب الهجرة والاغتراب ، وحب السعي في الأرض ، وحب التجارة والعمل من أجل الحياة ، كلها كالغرائز المتأصلة في نفسه العميقة في مسارب دمه» (1)

وإذا كان أبو ماضي نفسه يشير في شعره إلى أسباب هجرة الأبناء عن وطنهم ، ويعللها بالقهر، وبطلب الحرية ، إلا أنه يرجعها أحيانا إلى طلب المعالي ، يقول :

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم -*- ركبوا إلى العلياء كل سفين
لم يهجروك ملالة ، لكنهم -*- خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا -*- أم الثقافة مصدر التمدين
لما ولدتهم نسورا حلقوا، -*- لا يقنعون من العلا بالدون
والنسر لا يرضى السجون وإن تكن -*- ذهبا، فكيف محابس من طين؟(2)

كما لا تفوت الإشارة إلى عامل آخر، يتعلق بالمهجر ذاته، وهو إمكانية الهجرة إلى البلاد الأمريكية شمالا وجنوبا ، فالأنباء القادمة من هذه البلاد ، تنقل إلى الراغبين في الهجرة الذين يعيشون في الفقر والإذلال من أهل الشام ، بشائر الحياة الرغيدة ، وخيالات المدنية المنشودة ، والحضارة المغرية ، هذا بالرغم من مصاعب الهجرة منذ الانطلاق، محطات السفر الكثيرة والمرهقة إلى لحظة الوصول ..

لكن كل ذلك لم يكن ليعيق الطامحين إلى حياة أفضل ، والرافضين لكل أنواع

1- قصة الأدب المهجري ، ص : 15 ، 16.
2- الديوان ، ص: 391.

الذل وأشكـال القهر والتخلف ، وعلى كثرة المصاعب والمخاطر:« فلم يـكن هناك قيـود علـى الهجـرة والمهـاجريـن ، وليـس في قوانينها ما يقيـد حريـة المهـاجر فـي اختيـار العمل الذي يريـده. »

كما كان لزيـــارة إمبـراطـور البرازيـل كبيـر الأثـر في تحبـيب اللبنانيـين الهجـرة إلى بـلاده ، خاصـــة بعدمـــا رآه مـن حفـاوة استقبـــال وحسـن ترحيـب ، ولـــما لمســـه مـن نشـــاط وحـرارة وحيويـة متدفقـة فيهـم (2) وهذا مـا شجـع كثيـرا مـن اللبنانييـــن علـى الهجـرة فعـلا، فوجـدوا مـا وعـدهم الإمبـراطور بـــه ، فكـاتبوا أهليهم وأصدقاءهـم بذلك ، وتوالـت حمـلات الهجـرة .

على أن الهجـرة الجمـاعيـة لم تبـدأ إلا بعـد الثـورة العرابـية عـام 1882 فـي مصـــر، بعد أن ساءت أحـوال المهاجريـن مـن أهـل سوريـا ولبنـان هنـاك ، بتأثيـر ظـروف الحمايـة البريطانيـة على مصـر مما اضطرهم إلى تركـــها بحثـا عـن مهاجـر أخـرى .

والجـدير بالذكـر أن أهـل فلسطيـــن كـانوا السباقيـن إلـى الهجـرة إلـى القـارة الأمريكيـــة ، حاملين معـهم مقتـنيـات تذكارية ، من الأرض المقدسـة لبيعهـا إلى المؤمنيـن المسيحيـين مثل المسابح ، والتعاويـذ المصنـوعة بفلسطيـن ، وسرعان ما لحـق بهم اللبنانيـون والسوريـون..

والمـلاحـظ أن المهاجـرين من بـلاد الشـام ، كانـوا بأعـداد وفيـرة ، وكانـت هجراتهم في رحـلات متلاحقـة طويلة مضنـية كثيـرة الأخطـار والمصـاعب ، ولهـم في ذلك أقاصيص ، وحكايا تداولتهـا الصحف التي أنشأوها في تلك البـلاد ، وضمنـوها كتبهم ورسائلهم ، والمهم في ذلك كلـه ؛ « أنهـم نقلـوا اللغـة العربيـة والأدب العربـي ، إلـى تلك المهـــاجر البعيـدة ، فأنـــشأ أولئـــك المهاجـــرون في تـــلـــك الديار النائيـة ، أدبـا يعبـرون

1- قصة الأدب المهجري ، ص : 16.
2- ينظـر؛ المرجع السـابق ، ص: 19.

بـه عـن مشـاعرهم ،وعواطفـهم ،ويتحدثـون فيـه عـن غـربتهم وحنينهـم إلـى أوطانهـم ، ويصفـون فيه البـلاد التي أقاموا فيهـا ، ومظـاهر الحياة السائـدة في حيـاة الناس هنـاك ، كمـا يصفـون فيه حياتـهم ،وما تعرضـوا له من عنـاء وشقـاء ، وتجـارب مريـرة مثيرة»(1)

وقد أصبحت الهـجرة ملمحا بارزا في شخصية أهل الشام عامة ، السوريين واللبنانيين خاصة ،وصفـة مميزة من صفاتهم ، فهـي – مع كل مرارتها ومآسيها – عنصر من عناصر إثراء الـوطن ومصدر من مصـادر الدخل ، ووسيلة انفتـاح علـى العـالم ، وأسلوب تصـدير للثقافـة المحليـة والعربيـــة إلـى أقاصـي الدنيا ، ولشـاعر النيـل حـافظ إبـراهيم ، قصيـدة يشيـد فيهـا بهـؤلاء المهاجرين ويفـتخر ، يقول مـنها :

بأرض (كولمب) أبطــال غطارفـة -*- أسد جياع إذا ما وُوثِـبـوا وَثـبوا
أسطولهم أمـل في البحـر مرتحـل -*- وجيشـهم عـمل في البـر مغترب
ما عابهـم أنهم في الأرض قد نثروا -*- فالشهـب منثورة مذ كانت الشهب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجـدوا -*- إلى المجـرة ركـبا صاعـدا ركبوا
أو قيل للشـمس للراجين منتجـع ، -*- مـدوا لها سـببا في الجـو وانتدبوا(1)

وخلاصة القول: إنـه مهما كانت الأسبـاب قاهـرة ،وقـوية و دافعـة إلى الهجـرة،وإلى تـرك الأوطـــان علـى مضـض ، فـإن أدبـــاء المهجـــر- عامـــة- حافظـــوا علـــى انتمـــائهم لأوطانهـم،وولائـهم لأمتـهم الكبيرة ،وكفى بهـذه حسنـة وميـزة ، يقول زكي نجيب محمـود: « فـللعـربي أن يهاجـر إلى أي أرض أراد، لكنـه سيـظل عربيا بثقافتـه ، بتاريخـه ،كمـا هـو عربي بانتـمائـه إلى أبـويه»(3).

1- قصة الأدب المهجري ، ص : 08.
2- ديـوان حافظ إبـراهيم ، حافـظ إبـراهيم ، ضبـط وتصحـيح وشـرح وتـرتـيـب : أحمـد أمـين وأحمـد الـزيـن وإبراهـيم الأبـياري ، الهيئة المصـرية العامـة للكـتاب ، ط 3 ، 1978 ، ص : 270 ، 271.
3- هـــذا العـصر وثـقافـته ، زكـي نجـيب محـمـود ، دار الشـــروق ، بـيـروت – القاهـــرة ، ط 2 ،ص : 48.

وقد تحـقق هذا الانتماء ، وتبـدى في الواقع الأدبـي والفني من خلال إبداعاتهم التي - رغم كل مرارة الهجرة وحرقة الغربة وقهر البعد وألم الوحدة - كانت بالحرف العربي ، وبلسان الضاد وباللغة الوطنية (أي اللغة الأم)؛ « ألم تعد اللغة الوطنية - أو غيرها - هـي مسكـن الكـائن كمـا قال هايدغر ؟ ألا تشكل اللغة وطـن الكاتب ؟ وهل الشعـر ممكن بـدون تجـذر ثقافـي ،وبـدون خزان لغوي يمتلك صوره ومجازاته وإيـقاعاته الموسيقية المميـزة له ؟ هل يمكن الارتماء في الكوني بدون أية سـمة محلية أو وطنـية؟ »(3)

وما دام أنهم اختـاروا التعبير باللغـة الوطنيـة ، فقد تحـددت هويتهم وأوطـانهم ،وظهر تمسـكهم بمحليـتهم فـي اعتصـامهم باللغـة العربيـة ،وهـذا لا ينفـي أو يتعـارض مـع نظـرتهم الإنسـانـية الشامـلة.

3- المتخـيل والتـواصل (مفارقـات العـرب والغـرب)،محمـد نـور الـدين أفايـة ، دار المنتخـب العربـي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1993 ، ص:160.

3- لمحة في تاريخ الشعر الوطني:

من أجل أن تتضــح لنا صورة الوطن في شعر إيليا أبو ماضي ، ونضــع الأيدي على المعاني التي يتصورها الشاعر أو تنبع من خياله بفعل تكوينه المعرفي وخصوصية شخصيته شاعرا وإنسانا ، رأيت أنه لا فكاك من القيام بعملية مسح تاريخي سريعة أتوقف خلالها عند محطات الشعــر الوطني أو ما ينوب عنه، بحسب خصوصية كل حقبة تاريخية وملابساتها وأحداثها، مع مراعاة التطور الطبيعي للمفهوم تبعا لثقافة وأحوال ومؤثـــرات كل عصر.

فذكر الأوطان في الشعر القديم – وإن لم يكن لفظ(الوطن)يعني قديما ما يعنيه في عصرنا هذا على وجه الدقة- إذ أن ارتباط الإنسان بالأرض والجماعة البشرية قديم قدم الإنسانية ، كما أن عاطفة الولاء والشعور بالانتماء لم يكن وليد هذا العصر ، ولا كان وليد عصر قريب، إنه ضارب في التاريخ.

والشعر وجه من وجوه النشـــاط الفكري والفني لدى الإنسان، فمن البديهـــي أن يعنى بالحديث عن هذه الأرض، وهذه الجماعة وهذا الانتماء وهــذا الولاء، وهذه العاطــفة التي تشد الإنســان وتؤثــر فيه ، وفي توجهاته في الحيــاة لدرجة تصل به أنه قد يفــقد حياته في سبيـــل هـذا الوطـن ، أيا كان تحديده - في نظـر هذا الإنسان- وأيا كان تعـريفه له أو تصـوره له ،أو تـسميته.

وعلى هـــذا فإن؛ « الشعر الوطني هو الشعر الذي يدور حول قضايا الوطن ومشكلاته السياسية والاجتماعية ، والذي يصــور حب الإنسان لوطـــنه وأبنائه، إنه تعبير عن مواقف وآراء قامت في ضمير أبناء الوطـــن ، فوعاها الشعـــراء وأدركوا أبعادها ، وتأثــروا بها،فغدت لديهــم تجربة شعــورية حادة.» (1)

على أنه من الأهمية بمكان التنبيه إلى مفهوم (وطنية) الشــعر؛ فقد يفهـم منه المعنى السيـــاسي البحت، فـ(الوطنية)- بكل تنـــوع دوال الوطـــن ومدلولاته - وجميــع تجليــاتها

1- أروع ما قيل في الوطنيات ، ص:09.

وأبعادها ، ليســـت محصورة في المعنى السياسي ، فهـــو في حقيقته شعر اجتماعي إنساني أوسع من الدائـرة السياسيـة التـي لا تعدو أن تكون سوى وجـه من وجـوهه المتنوعة؛ وذلك لا يمنع أن ينظر الشاعر إلى (الوطن) من منظور سياسي فقط ؛« فمن الخطإ أن ينـتهي بنا الحكم بأن (الوطنية) معنى مرادف للكفاح السياسي، وهذا مخالف للمعنى الحقيقي للوطنية، معنى حب الوطن العربي وحسب .» (1) ولهذا أرى أنه من التعسف - ولعلـه يكون من ضيق الرؤية - حصر الشعـر الوطني في التوجه السياسي دون غيره. فالبداهة تفترض ألا يكون الشاعر متسيسا أو سياسيا حتى يكون وطنيا، وبهذه الرؤيـا لا يصح أن نقصـر الشـعر الوطـني في حـدود الشـعر الـذي يـعد انعكـاسا للتصـورات السياسية البحتـة ،لأن « الشعـر الوطني صورة لوجدان المواطنين وتعبير عن أمانيهـم وأحلامهم، تجسـدها نفسيـة الشاعر، وتزداد هذه الصورة وضوحا أمام الأحـداث التي تعصف بالوطن.والشعر الوطني يتضمن أبوابا عديدة ، وألوانا متنوعة؛ ففيه الحنين إلى الوطن حين يكون الشاعر بعيدا عنه ، وفيـه الفخر بالانتماء إلى الوطـن وبتاريـخ أبنائه، وفيه العطف على شعبه حين تزدحـم على أبنائه الخطـوب ، وفيه الدفـاع عن كرامته حين يدعو داعي الجهاد .» (2)

وقد أظهـر العربي تعلقه بوطنه وارتباطه القوي به، فجعـل يذكـره في شعـره كلما سنحـت سانحة، بمناسبة أو بدونها ، بل إنـه كثيـرا مـا جعلـه مـرادفا لـوجـوده ، فـراح يتغنى بـه في شـتى الأغراض المـعروفة منذ القديم ، ولهذا «لم يخـل الأدب العربي من الجاهلية إلى اليـوم من آثار ظاهرة حب الوطـن، فالعـربي الذي عاش متـنقلا،أحـب دياره ومنـازله فخلدها في أشعاره ، بعـدما ذاب في ذكراها شـوقا وحنـينا ؛ قال بعضهم :

1- قضـايا الشـعر المعاصـر ، نـازك الملائكـة ، دار العلـم للمـلايين، بيـروت ، لبنـان، ط 6 ، مـارس1981، ص:.300

2- الأدب العـربي (المـوسوعـة الثقافـية العـامة) ، فـواز الشعـار، دار الجـيل ، بيـروت ، لبـنان، ص:135.

وطن اللهو الذي جـــــر الصبا -*- فيه أذيـــال الهـوى مستوطنا.» (1)

فإذا ما جئنا إلى عصور الأدب العربي و وتصفحناها بدءا من الجاهلية ، فإننا نجد حضور الشعر الوطني حضورا ملفتا للانتـباه ، قويا متجليا في عدة أشكال وصور ،ففي الجاهلية تظهر لنا هذه الصور في غير مظهر؛ ذلك أن مفهوم الوطن ليس هو نفسه الذي نتداوله- اليوم- للاختلاف البين في نمط التفكير، وطبيعة العلائـق الاجتماعية والمعاش، والظروف التاريخية والأبعـــاد الفكرية والعقائدية..وأول ما يستوقفنا في هذا العصر ظاهـرة الطلل ، باعتبارها ركيـزة أساسية من ركائز النص الشعري الجاهلي ، وبقدر ما هي ركيزة فنية ونمط ثابت وعادة شعرية تستجيب لذوق العربي في الجاهلية، فهي - كذلك- ركيزة فكـرية وبعد فلســفي واجتماعي تستجلي ذهنية الشاعر الجاهلي ،وبالتالي ذهنية العربي في الجاهلية، ولذا فمن غير المعقول حصر الطلل في عنصر الأداة الفنية:«كان البكـاء على الطلل تعبيرا عن إحساس بالفاجعة ، والضياع عبر رحلة العمر في متاه الصحراء، ومجهول الأيام ، وصياغة مأساوية لإرادة البقاء والاستمرار والخلود في المكان، وذلك من خلال الارتداد إلى الماضي ، المليء بالحيوية والسعادة. كان موقفا "أنطولوجيا" عميقا إزاء الزمن الذي يذهب بلا رجعة، أو الذي قد يأتي وقد لا يأتي .زمن يقيم في أعماق الذات العربية المتوترة الباحثة عن مكان للألفة والاستقرار ، للأم والحبيبة للأسرة والقبيلة» (2)

وعلى هذا الأساس فالأماكن التي ورد ذكرها في مقدمات الشعر الجاهلي الطللية، ما هي إلا أوطان للشعراء أو صور بسيطة للأوطان ، باعتبار أن عنصر(الحنين) كان متوفرا دائما عند ذكر هذه الأماكن ، ولهذا سمي (بكاء) ، لأن البكاء يوحي بالافتقاد والنزوح والابتعاد الطوعي أو القسري« فالاستهلال ذكريات تختمر في النفس يستعيدها

1- أروع ما قيل في الوطنيات ، ص:.19
2- المدينة في الشعر العربي الجزائري(1925-1962)، إبراهيم رماني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2002 ، ص: 228.

الشاعر نظــما، واستحضار لأيـام تبـدو له في أثـناء تجــواله مواضـع كانـــت في الماضـي وطنا.» (1)، فمنذ قـولة امرئ القـيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل -*- بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

وظاهرة الوقـوف على الأطـلال تقليد شعري ، يعكس البحث عن الوطن في الديــار أو الأحياء أو منـازل العرب الذين كـانوا لا يفـتأون يترحلون من مكـان إلـى مكـان بحثـا عن الكلإ والماء. وبهذا المنظور يمكن تفسير شيوع الفخر الذي نجده بكثرة في الجاهليـة خاصـة المرتبط منه بالانتماء إلى القبيلة ؛ وقد نقل إلينا ابن رشيق القيرواني مبلغ حفاوة القبيلة بظهور شـاعر فيهـا: « كانـت القبيلـة مـن العـرب إذا نبـغ فيهـا شـاعر أتـت القبائـل فهنأتهـا وصـنعت الأطعمـة، واجتمعـت النسـاء يلعبن بالمظـاهر، كمـا يصـنعون فـي الأعـراس ويباشـر الرجـال والولـدان أنـه حمايـة لأعراضـهم ، وذب عـن أحسـابهم ، وتخليـد لمـآثرهم ، وإشـادة بـذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج.» (2) وما ذلك إلا لكـي يكـرس الشاعر الفخر بالقبيلة متغنيا بالولاء معتزا بالانتمـاء ، مجسدا عصبيــته لقبيــلته - حتـى وإن كانت على ضلالة- يقــول دريــد بن الصمــة :

وما أنا إلا مــن غــزية إن غـوت -*- غويــت وإن ترشــد غزية أرشد

أو كما في معلقة عمر بن كلـثوم التي صارت غناء قبيلته ونشيدها المفضل ، وهذا مـا عـرف في النقد القديم بشعر الحماسة وهو: « إذا تعدى الشـاعر ذاتـه الفرديـة ،وبلـغ الذات الجماعيـة التـي تمثلهـا القبيلـة أو العشيرة أو الحـزب أو الطائفـة أو الـدين، فإنـه ينــتقل مـن الفخـر بعنـاه الضيق إلى الحـماسة بمعناها الشامــل.» (3)

وإذا افتقــد الشاعر عنصر الانتماء لسبب من الأسباب خرج عن الجماعـة ، كمـا عند الصعاليك ،وتكون النتيجــة افتقاد الوطــن والبحث عن بديــل يسد حاجـة الشاعـر إلى غريـزة

1- العرب في العصر الجاهلي،حسين شعيب، دار الفكر العربي، بيروت،لبنان، ط 1،2004 ،ص:.95
2- الإسلام والشــعر ، سامي مكي العاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،عدد : 66، أغسطس 1996، ص:07. نقلا عن (العمدة في صناعة الشعر ونقده ، أبن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة، ط 2، 1955 ،ج1 ،ص: 65)
3- الأدب العـربي (الموسـوعة الثقـافـية العـامة) ، ص: 126.

الانتماء« لأن الشاعر كان فردا من أفراد القبيلة يحيا بحياتها ،ويشارك فيما يصيبها من خير أو شر، فإن خالف عن هذا التضامن فهو الخليع الذي يجب أن يعيش عيشة الصعاليك، وهو بهذا يخرج عن التضامن مع القبيلة إلى تضامن آخر ليس أقل منه مشاركة في الحياة الواقعة ،وهو التضامن مع أمثاله من الصعاليك.» (1)، فالصعاليك عاشوا التهميش الاجتماعي والنكران ،ولذلك فإن:«الإحساس المرير بعدم تقدير المجتمع لهم ، دفعهم إلى حمل السيف والاستعانة به ليؤمنوا الحياة الاجتماعية التي حرموا منها.» (1) وهذا ما جعل الشنفرى يتنصل من قومه ليوجد لنفسه قوما آخرين ؛أي انتماء آخر،يرى أنه يحفظ له كرامته وإنسانيته:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم -*- فإني إلى قوم سواكم لأميل

وبذلك فقد اختار عالمه ، وهويته ووطنه ؛ « ويقتحم الشنفرى غمار الصحراء ، مجهولة المعالم، كثيرة المخاطر ، تمنعه الطعام والشراب ، وتضن عليه بالأمن والقرار، لكنه يتحدى ذلك كله، ويصمد محافظا على أنفة الإنسان العربي ، معتزا بكرامته وصبره على المكاره:

أديم مطال الجوع حتى أميته -*- وأضرب عنه الذكر صفحا ، فأذهل

و أستف ترب الأرض كيلا يرى له -*- علي من الطول ،امرؤ متطول.»(2)

وهو يتحمل هذه الشدائد والمحن والويلات، في سبيل حفظ الكرامة، وصون الإنسانية، حتى وإن اختار له وطنا جديدا:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى -*- وفيها لمن خاف القلى متعزل

لعمرك ما في الأرض ضيق على الفتى -*- سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل(3)

وهكذا تحدد وطن الشنفرى،بأنه الضرب في الأرض، حيث لا يهدر ماء وجهه.

1- المجموعة الكاملة ، طه حسين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان، مج ؛ 6 ،1981 ، ص:578.
2- الصعاليك في العصر الجاهلي ،محمد رضا مروة ،دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط 1، 1990،ص:32 .
3- لامية العرب (للشنفرى)، جمع ودراسة : صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت، لبنان،ط 1، 2006 ، ص:.45
4- السابق،ص:35.

وبمجيء الإسلام تحولت المفاهيم في حياة العربي وتشكلت له نظرة جديدة للأشياء والعلاقات والوجود الإنساني ورسالة الحياة، وصار لهذا الدين وطن ينطلق منه لنشر هذه الدعوة ، وبعد أن تعذر الاستمرار في وطن البعثة (مكة) ، تحول المسلمون إلى وطن آخر يوفر لهم أول ما يوفر الأمان ويهيئ لدعوتهم الديمومة والنجاح وهو المدينة المنورة ، « وإذا كانت يثرب المدينة قد مثلت وطن الدولة التي حكمها هذا الدستور، فلقد قرر هذا الدستور أن هذا الحرم آمن لرعية هذه الدولة .» (1)

وإذا كان مفهوم الوطن محصورا عرقيا في (القبيلة) ،التي كانت تحقق للعربي المجال الوحيد تقريبا لشعور الانتماء ، فقد جاء الإسلام وأزال هذا التعصب الأعمى واعتباره أساسا للتفريق أو التفاضل ، وإن لم ينكر على الناس انتماءاتهم إلى قبائلهم.وبهذا؛« أصبحت القبيلة ليست فقط "العرب بالعرق والجنس" وإنما " العرب باللغة والهوية الحضارية القومية"..وتوالت أحاديث الرسول-ρ- تدعو وتأمر وتشرع لهذا التنظيم القومي –الاجتماعي الجديد: " مولى القوم منهم" ، "الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب" .» (2)

وبهذا أصبح الولاء للدين بدل القبيلة ، وتحول الصراع بين القبائل إلى صراع جديد بين الإيمان والكفر، وكان لا بد للشعر من أن يخوض هذا الصراع ، فالتف حول الرسول -ρ- شعراء يذودون عن الإسلام (الذي صار انتماء لكل داخل فيه) وكان النبي -ρ-« يوجه شعراء الهجاء إلى أسلوب يجنبهم تعميم الهجاء على قوم المهجو وقبيلته، ويجعلهم يلتزمون الدقة فيما يقولون حيث يقول لهم :" إن أعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجى رجلا، فهجا القبيلة بأسرها.» (3)

ولما استعمل المشركون شعراءهم في حربهم مع المسلمين، لم يكن من بد من رد المسلمين

1- الإسلام وحقوق الإنسان ، ص:.134
2- العرب والتحدي ، محمد عمارة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،عدد 29، مايو1980،ص:.33
3- الإسلام والشعر ، ص:07.

عليهم ،وبالوسيلة نفسها للدفاع عن ولائهم وانتمائهم وعقيدتهم التي تمثـــل الوطن والوجود؛ « وهب شعراء صدر الإسلام يذودون عن حياض الإسلام وتعاليمه مناقشين أفكار المشركين، مسفهين آراءهم، مظهرين فساد النظام القبلي السائد في المجتمع الجاهلي ، وبذلك بذرت بذرة الشعر السياسي ، وكان حسان بن ثابت أول الشعراء المسلمين الذين ابتكروا الشعر السياسي في ظل الإسلام ، حيث كانت قصيدته في وفد بني تميم من أول أشعاره السياسية ، يقول فيها :

إن الذوائـــب من فهـــر وإخـــوتهم -*- قد بينـــوا سـنـنـــا للناس تتبـــع

يرضى بها كل من كانت سريـــرته -* تقوى الإله،وبالأمر الذي شرعوا» (1)

أما في العصر الأموي فإن شكل الصراع قد تحول ، وتحولت معه فكرة ونظرية الحكم، -وعليه- سيتحول مفهوم الوطن والولاء تبعا لذلك ؛ فقد صار الحكم وراثيا في معاوية وأبنائه ، وقد نازعهم الشيعة والخوارج وغيرهم أحقية السلطة ، ولتعصب الأمويين للعنصر العربي ،عادت بعض مظاهر الفخر القبلي ، وعاد الاعتزاز بالقبيلة إلى سابق عهده، حتى بين شعراء الحزب الواحد (كما في نقائض الفرزدق وجري).وقد شاع هذا الشعر السياسي وتجلى في مدائح كل شاعـر لحزبه ، وهجـائه للأطراف الأخرى،كما في مـدح جرير لبني أمية.

وإذا كـان هذا الشعر السياسي مظهرا يعكس جانبا من الانتماء والتعصب لـه، فإن الحنين إلى الأوطان والمنازل مظهر آخر يعكس عاطفة إنسانية وطبيعة بشرية ، تحن على أرضها وتشتاق إلى مواطنها ؛ « فمن شعراء قريش عمرو بن الوليد ، ولقـبه أبو قطيفة وقد نفاه الزبير مع بني أمية عن المدينة ، فقال شعرا تشـوق فيه إلى المدينة ؛ فكان يحن إلى البلاط والمصلى وقصـور العقيق ، وكان يهمه في شعره أن يعلم ؛هل تغير - بعد – قباء، وهل ما زال العقيـق ؟ وهل برحت بطحاء المدينـــة أراهـط من قريـش قد محضـــــهم منتهى حبه ، وبصفو وداده ، وبمحـــض هواه ، فكان يقطـــع الليل بعدهم بالزفير والاكتئاب حتى إنه ما كان ينام . وإذا برقت- وهو في منـــفاه في الشام- سحـــابة نحو الحجاز هاج برقـها الشـوق في قلبه فقال:

1- ديوان حسان بن ثابت ، شرح وتهـميش ؛ عبـدا مـهنا ، دار الكـتب العلـمية ، بيـروت ، لبـنان، ط 3 ، 2002 ، ص :152 .

ألا ليت شعــري هل تغير بعدنا -*- قباء ، وهل زال العقيق وحاضره
وهل تغيــرت بطحاء قبر محمد -*- أراهـط غـــــر من قـريش تباركه
لهم منتهى حبي وصفــو مودتي -*- ومحض الهوى مني وللناس سائره.»(1)

ولم يكن هذا حال الشعراء الرجال فحسب ، بل إن النساء الشواعر قد تغنين بأشواقهـن إلـى منـازلهن وديـارهن - كشـأن الشـعراء الرجـال- : « فهـذه ميسـون بنـت بحـدل ، شـاعرة بدويـة تزوجها معاوية بن أبي سفيان ، ونقلها إلى حاضرة الشام ، فثقلت عليها الغربة ، وأكثرت من الحنين والوجد على حالتها الأولى ، وضاقت نفسها أكثر لما تسرى عليها معاوية ، فقالت:

لبيت تخفـــق الأرواح فيـــه -*- أحب إلي من قصـــر منيــف
بكر يتبـــع الإظعـــان سقبا -*- أحب إلي مــن بغـل زفـــوف
وكلب ينبــح الطـــراق عني -*- أحب إلي من قـــــط ألــوف
ولبس عبـــــاءة وتقــر عيني -*- أحب إلي من لبس الشفـــوف
واكل كسيـــــرة وتقـر عيني -*- أحب إلي من أكـل الـــرغيف
وأصـــــوات الرياح بكل فج -*- أحب إلي من نقــر الدفـــوف
وخـــرق من بني عمي نحيف -*- أحب إلي من علـــــج عليف
خشونة عيشتي في البدو أشهى -*- إلى نفســي من العيش الطريف
فمال أبغي سوى وطـني بديلا -*- فحسبي ذاك من وطن شريف»(2)

وظهر نـوع آخـر من الشعـر يتغـنى بالأوطان، بفعل عامل تاريخي ديني،ألا وهو شعر الفتوحات؛« وكان مدار هذا الشعر حول الحماسة والفخر وهجاء العدو، ورثاء القتلى،ولوعة الاغتراب والحنين إلـى الأوطان،ولقد اشتهر فـي هذا البـاب ؛ القطـامي(83/702هـ)وأعشـى همذان(110/728هـ).»(3) فابتعاد المجاهدين عن أرضهم وانتقالهم إلى أمصار بعيـدة جـديدة

1- أحلى ما قيل في الوطن، ص:.06
2- المدينـة فـي الشـعر العربـي المعاصـر، مختـار علـي أبـو غـالي ، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب ، الكويت ،عدد 196، أبريل 1995، ص:06 ، 07
3- الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، حنا الفاخـوري ، دار الجيل ، بيروت ، لبنـان ، ط 2 ، 1991، مج: 1 ،ص: 432.

عنهم لشهور طويلة ، أو لسنوات حرك في شعرائهم القرائح، فراحوا يصورون أوطانهم ضمن ما قالوه من شعر، صاحَبَ الفتوحات ؛ وما نُظِم في « تلك الفتوحات لونٌ جديد من الأشعار يتشوق فيها الشعراء إلى مواطن صباهم، وملاعب طفولتهم التي بعدوا عنها سائحين في بلاد الله النائية ، فحركت لواعج البعاد فيهم أحاسيس الشوق، ومشاعر الحنين إلى تلك المواطن الغالية ، فأرسلوا زفراتهم أشعارا مشحونة بالعواطف الرقيقة والمشاعر الصادقة ، وهذا أحد الشعراء المجاهدين يحس بالحنين إلى موطنه (نجد):

أكرر طرفي في نحو نجد وإنني -*- برغمي وإن لم يدرك الطرف، أنظر
حنينا إلى أرض كأن ترابها -*- إذا أمطرت ، عود ومسك وعنبر

ومنها :

أحن إلى أرض الحجاز،وحاجتي -*- خيام بنجد ،دونها الطرف يقصر.» (1)

ومنها أيضا :

متى يستريح القلب إما مجاور -*- بحرب ، وإما نازح يتذكر.

ويكثر مثل هذا الشعر في أدب الرحلات؛« يحكى أنه عندما كان ابن جبير في دمشق ، قطع أحد الأغصان الصغيرة من شجرة كبيرة، وأنشد قائلا :

لا تغترب عن وطن ، -*- واحذر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا -*- ما فارق الأصل ذوى.» (2)

وللرحالة التونسي؛محمد السنوسي،منظومة يصور فيها رفضه الإقامة في بلاد نائية عن بلاده- وقد دُعي لذلك فقال- (3) :

ورب فتى عن حب تونس لائمي -*- يراودني عن ترك أرضي في الحال
فقلت له :إنا بنوها، ولم نجد -*- بديلا بها في كل حال ، وترحال
وأي فتى يرضى بديلا بأمه -*- على أنها ذات السوار وخلخال

1- الإسلام والشعر ، ص: .82
2،3-أدب الرحلات ،حسين محمد فهيم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد 138، يونيو1989، ص:91.

وقد نظم الرحالة الفارس الشاعر " أسامة بن منقذ" صاحب كتاب (الاعتبار)أبياتا كتبها على حائط دار سكنها بالموصل معربا عن شدة حنينه لوطنه الشامي:

دارٌ سكنت بها كرها ، وما سكنتْ -*- روحي إلى شجـــنٍ، فيها ولا إلى سكنِ

والقبر أستر لي منها، وأجمل لي -*- أن صدني الدهر عن عَوْدي إلى وطني(1)

وحين فتح المسلمون الأندلس شعروا - لأول عهدهم - بالغربة فيها لاختلافها البين عن جزيرة العرب ، أرضا ونباتا ومناخا وإنسانا وتضاريس ، فعاودهم الحنين إلى سابق أيامهم ، وجعلوا يتذكرون بلدانهم وأهليهم : « فالعربي حيثما حل ذكر أوطانه وحن إليها.» (2).

و الذي حدث لابن جبير حدث مثله لعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) حين أتى الأندلس ؛ فقد رأى نخلة وحيدة منفردة فقال :

تبــدت لنا وسط الرصافـــة نخلـــة -*- تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهـــي في التغرب والنوى -*- وطول التنائي عن بني ، وعن أهلي

نشـــأت بأرض أنت فيـــها غريبة -*- فمثــلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي -*- يسح ويستمري السماكيــن بالوجل(3).

وفي ديوان ابن زيدون قصائد كثيرة يذكر فيها أوطانه ، وحنينه إلى الأماكن التي قضى فيها صباه ؛منها قوله في مدينة "الزهراء":

ألا هل إلى الزهـــراء نوبة نازح -*- تقضى تنائيــها مدامعـــــه نزحا (4)

وله في سجنه يذكر قرطبة :

أقرطبة الغراء هل فيـــــك مطمع ؟

وهل كبــد حـــرى لبينــك تنقـــع ؟

وهل للياليـــك الحميـــــدة مرجع ؟

1- المرجع الســابق ،ص: 92..
2- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، ج3 ، ص99.
3- المرجع نفســه ، ص:100.
4- ديوان ابن زيدون ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون، دار صادر، بيروت ،لبنان ، ص: 14.

إذ الحسن مرأى فيك،واللهو مسمع ؟(1)

ولا نغادر الأندلـس دون الإشارة إلى أن الشعر الوطني اتخذ لـه مظهرا آخر هنـاك، ربما تفـوق فيه الأندلسيـون على أهل المشـرق ؛ وهو رثاء المدن والممالك ، كما في شعر ابن خفاجة وأبي البقاء الرندي؛ « وكذلك كانـت المراثـي الأندلسـية "للفردوس المفقود" ، لرحلـة العربي عبر الجزيرة الخضراء(الأندلس) سعيا وراء مملكة ممكنة " الوطن في المنفى" بديلا لأمة منهــارة في بغـداد ودمـشق.» (2)

ونكتفي – في هذا المقام – بذكر أبيات من قصيدة أبي البقاء الرنـدي المشـهورة، فـي رثـاء كل الأندلــس ، يقول :

لكل شيء إذا ما تــم نقصـــان -*- فلا يغـــر بطيب العيـش إنسان
هي الأمـور كما شاهـدتهـا دول -*- من سـره زمـــن ، ساءته أزمان

ومنها :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له -*- هوى له أحـد،وانهـــد ثهـــلان
فاسأل(بلنسيـة) ما شأن(مرسية) -*- وأين (شاطبـة أم أيـن (جيــان)؟
وأين (قرطبة) دار العلوم ، فكم -*- من عــالم قد سمـــا فيها له شــان
وأين(حمـص)وما تحويه من نزه -*- ونهـرها العـذب فياض وملآن(3).

أما في موضوع رثاء المدن فـي المشرق ، فقد رثـى ابن الرومـي " البصـرة " بعد مـا أغار عليـها الزنـج وعاثـوا فيها فســادا ، وجعـلوها خـرابا، يقول ؛

أي نـــوم بعدما حـــل بالبصـــــــــــرة ، ما حـل من هنات عظــام
لهف نفسي عليك يا فرضة البلـــــــــــدان لهفا يبقـــى على الأعـوام
لهف نفسي لجمعـــك المتفاني، -*- لهف نفسي لعزك المستضـــــام

1- المـرجع الســابق ،ص: 38.
2- المدينة في الشعر العربي الجزائري، ص: .228
3- جــواهـــر الأدب ، السيـــد أحمـــد الهاشـــمي،منشورات مؤســـسة المعـــارف ، بيـــروت ، لبنان ،ج 2،ص:352 ،353.

بينما أهلـــها بأحســـــن حال -*- إذ رمـــاهم عبيـــدهم باصطلام(1)

وقد اعتنى بعض المصنفين بأدب الغربة ، الذي يصور آلام البعاد وحرقة الحنين لكثرة هذا النوع من الأدب؛« لم يصبح " أدب الغرباء" ظاهرة حملت أبا الفرج الإصفهاني (897-967م) على جمعها في مؤلف، إلا لانتـشارها وارتباطها بشعر الحنين إلى المكان (الطلل في شعر ما قبل الإسـلام)لا سيما الشـوق إلى الحـواضر التي كانـت تـرادف الأوطان.» (2)

ولا نغادر ابن الرومي دون أن نورد له مقطـوعة اشتهرت في ذكر الوطن والتغني بمحبتـه ، حتى سارت على الألسـنة وشاع تـداولها مشـاع الأمثال، يقـول:

ولي وطــن آليـــــت ألا أبيـــعه -*- وألا أرى غيري له- الدهر- مالكا
عهدت به شرخ الشباب، ونعمة -*- كنعـــمة قوم أصبحوا في ظلالكا
فقد ألفته النفـــس حتى كـــأنه -*- لها جســـد ، إن بان غـودر هالكا
وحبب أوطـــانَ الرجـال إليهم -*- مآربُ قضـــاها الشبـــاب هنالكا
إذا ذكروا أوطـــــانهم ذكرتهم -*- عهود الصبا فيـــــها فحنوا لذلكا(3)

ونجد عند المتـنبي بحثا حثيثا عن الوطن ،حين تشتـد أزمتـه من كثرة حسـاده ، الـذين أشاعوا موته، وقد عاش يطلب المجد ،وظل غريبا متنقلا لا يعرف الاستـقرار، يقول مفـتقدا "الوطن" الـذي يوفــر له العزاء على محـنته :

بم التعلل لا أهـــل ، ولا وطــن -*- ولا نـــديم ولا كأس ولا ســكن؟(4)

وقد يكون الوطن المفتقد أرضا ، أو استقرارا أو مطمحا أو صورة يتطلع إليها الشاعر،لأن المتنبي عاش الغـربة والاغتراب معظم حياتـه ؛« إن المتنـبي يحمل وطنه فوق ظهره.»(5)بل إنه لا يجد طعـما للعيد ، ولا معـنى له، حيـن يكون بعـيدا عن أحـبتـه ودون بلوغهم بيداء

1- المـوجز فـي الأدب العربـي وتاريخـه ، حنـا الفـاخوري ،دار الجيـــل ، بيـروت ، لبنـان،ط 2، 1991،مج 2، ص:404 ، 405.
2- المدينة في الشعر العربي الجزائري ، ص:21.
3- جواهر الأدب ،ص:457.
4- ديوان المتنبي، أبو الطيب المتنبي، دار صادر،بيروت، لبنان،ط15، 1994،ص:.471
5- أحلى ما قيل في الوطن، ص:06.

شاسعة،لدرجة أنه يتمنى لو يكون بينه وبين العيد بيداء وبيداء.. كتلك التي يقطعها مغتربا، فلا معنى للعيد بعيدا عن الأحبة والأهل والوطن ، بل لعل مسرة العيد تصبح ألما ممضا للغريب:

عيد بأيــة حال عدت يا عيد ؟ -*- بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

أما الأحبة فالبيـــــداء دونهم -*- فليت دونـــك بيدا ، دونها بيد (1)

وتظهر قومية المتنبي وغيرته على العروبة ، حين يمر بمنطقة من أجمل مناطق الدنيا "وهي شعب بوان"، ببلاد فارس فيراها في الأمكنة توازي الربيع جمالا في الأزمنة:

مغــاني الشعــب طيبا في المغاني -*- بمنـــزلـة الربيــع من الزمـــان

ويستدرك أن هذا الجمال الطبيعي ليس من ملك العرب ، بل إن العربي لا يعرف فيه أحدا ، ولا يملك شيئا ، ولا يفهم لغـته ؛فهو غريــب من ثلاثــة أوجه:

ولكـــــن الفتى العـــــربي فيها، -*- غريب الوجـــــه واليد واللسان(2)

ومهما تكن أسباب الابتــعاد عن الوطن ، حتى ولو كان لطلب العلم، فإن هــذا الابتعاد شديد المرارة ، قوي الإيـــلام ؛« وهكذا كان الأمر مع شاعــرنا ابن الوردي الذي غادر وطنه "معـرة النعمان"، وها هــو ذا يقول :

قف وقفـــة المتـــألم المتأمـــل -*- بمعرة النعمان ،وانظر بي ولي

تلك المعاهد والمعالـــم والربى -*- ومـلاعب الغزلان ،والمتغـزل

وطن يخيـــــل لي تخيله الصبا -* - في ذكره ذكر الزمـــــان الأول

زمـــن قطعنــاه ،وكنا صبيـــة -*- (لا يسألون عن السواد المقبل)»(3)

أما في العصر الحديث ؛ فقد اتسع أكثر فأكثر مجال القول في الأوطان على عدة وجوه، ومن أوائل شعراء هذا العصر ترديدا لمصطلح "الوطنية" نجد الشاعر صالح مجدي الذي ورد في آخر ديوانه « خمس عشرة مزدوجة سماها "الوطنيات" امتدح فيها سعيـد باشا ، والي مصر،

1- ديوان المتنبي ، ص: 506.
2- المرجع نفســـــه، ص: 541.
3- الأدب وروح العصر، عبده بدوي ومحمد حسن عبد الله وأحمد فوزي الهيب، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1985، ص:105.

وعرضـت عليـه فـأمر بتلحينهـا، والتغنـي بهـا بمصـاحبة الموسـيقى العسـكرية فـي المحافـل والمواسم ، وهو في هذه الوطنيات يشيد بالوطن محاولا أن يغرس حبه في القلوب ، ويتغنى بأمجاد الأجداد.» (1) يقول في وطنيته التاسعة مفاخرا بجيش البلاد:

في الوغـــى أنتم أسـود -*- يا بني الأوطـــان ســودوا
ولـها بالـروح جـــودوا -*- وادخلـــوا الأحيا وصيدوا
صيـــدها يوم الـــــزعازع (2)

وهــذا الأمير عبد القادر بعــد أن قضـى سبعة عشـر عاما في مقاومـة الفرنسـيين ، يخرج إلى منــفاه في بلاد الشام ، وهو لا ينفك يذكر وطنـه في شعــره،ويستعيد أيام جهاده، حتى وهو ينتقل إلى المدينة - جوار رسـول الله -ρ- فقد حدث أن« دعي الأمـير أكثر من مرة إلى بستان "القائم "في المدينة المنورة ، وكان يشـده سحر رياضـه الخلابـة للحنين إلـى وطنـه ،فقام مرة يرتجل البيـتين التاليـين :

تبخر بعود الطيب ،لا زلت طيبا -*- ورش بمـاء الزهر، يا خل، والورد
وما بغيتـــي هذا ،ولكـن تفـــاؤلا -*- بعُـود إلى عَـــوْدٍ، وَوَرْدٍ إلى وِرْدِ» (3)

وشبيه شأن البارودي ، بشـأن الأمير عبد القادر؛ فكلاهمـا جمع بين الإمـارة (السلطة برغم اختلاف الرتب والأسماء)،والحرب والشعر وعلو المكانـة ،والابتعـاد عن الـوطن ،وقد عـاش البارودي مرارة النفي عن بلاده - مثل الأمير-؛« وهو في الطبقة العليا من المجتمع ،وكان في الصـدارة مـن الثـورة العرابية،وقـد رأى كـل شـيء يتـداعى حولـه، ثـم رأى نفسـه مبعـدا إلـى "سيلان"»(4)،وها هـو إذا أحس بنسيم من "حلوان"- وهي مدينة في مصر- أحـس به شـــعلة

1- الاتجاهات الوطنيـــة في الأدب المعاصـــر، محمد محمـــد حسين ، مؤسسـة الرسـالة ، بيـروت ، لبنان ، ط 1986،8،ج 1، ص:.78
2- المرجع نفســـه، ص: .79
3- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري ، تحقيق وشرح وتعليق ؛ زكريـا صـيام ، ديوان المطبوعـات الجامعية- المؤسسة الجزائرية للطباعة ، 1988، ص: 143 ، .144
4- الأدب وروح العصر ، ص: 220.

حارقة لأنه في الغـربة، يقول:

أبيت حزنا في " سرنديب " ساهرا -*- طوال الليالــي ، والخليـون هُجّـد
أحـــاول ما لا استطيـــــع طلابه، -*- كذا النفس تهوى غير ما تملك اليد
إذا خطرت من نحو حلوان نسمة ، -*- نـــزت بين قلبـــي شعـلة تتــوقد
وهيهـــات ما بعد الشبيبـة موسم -*- يطيب ، ولا بعد الجزيـرة معهـــد(1)

وإذا ما رجع إلى الوطن ،وروى شوق حنينه برؤية أرضه ،يقول :

أبابل رأي العين، أم هذه مصر ؟ -*- فإني أرى فيـــها عيـونا هي السحر
ليهن الهوى إني خضعت لحكمـه -*- وإن كان لي في غيره النهي والأمر(2)

وقد عاش شوقي تجربة مماثلة ، فقد قضى سنوات خمس في منفاه - حتى وإن كان هذا المنفى إسبانـيا - حيث كانت حضارة العرب في الأندلـس- يقول :

اختلاف النهـار والليل ينســـي -*- اذكـــرا لي الصـبا ، وأيام أنـسـي

ومـنـها :

مستطـــابا إذا البـــواخـــر رنـت -*- أول الليل أو عـــوت بعـــد جرس
راهب في الضلـوع للسفـــن فطن -*- كلمـــــا ثـــرن شاعهـــن بنقـــــس
يا ابنة اليـــم ما أبـــــوك بخيلا -*- ما لـــــــه مولعـــا بمنـــع وحبـــس؟

ومنها بيته المشهور :

وطني لو شغلت بالخلـــد عنه -*- نازعتني إليـــــه في الخلد نفسي(3)

ويقول في قصيدته " بعد المنفى" وقد تحققت العودة :

ويا وطنـــــي لقيتـــك بعد يأس -*- كأنـــي قـد لقيـــت بك الشبـــابا(4)

1- أحلى ما قيل في الـوطن، ص : .174.
2- المتقـــــن فـــي تاريـــــخ الأدب العربـــي، إيمـــان البقـــاعي ، دار الـــــراتب الجامعيـــة ، بيروت،لبنان،ص:.379
3- الشـوقيات ، أحمد شوقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، مج 1،ج 1، ص: .45
4- المـرجع نفسـه ، ص: 61.

وهكذا نجد معظم شعراء العصر الحديث (إن لم نقل جميعهم) يتكلمون عن أوطانهم مديحا لها ، أو حنينا إليها، أو تعبيرا عن محبتها وفدائها ، أو رثاء لها أو عطفا عليها أو افتخارا واعتزازا..يقول فوزي المعلوف في قصيدته "أماني المهاجر"(1):

لولا الطموح إلى العلياء غربني -*- ما كنت عن ربعهم- والله- أغترب

أنا الغريب ، فلا أهل ولا وطن -*- إذا انتسبت أمام الناس، وانتسبوا

أما الشابي الذي عاش كل حياته "القصيرة" في بلاد مستعمرة ، ولم يمتد به العمر حتى يتحقق حلمه برؤيتها حرة مستقلة، فإنه يعلن فرط حبه لها وفرط أساه عليها :

أنا يا تونس الجميلة ، في لج -*- الهوى قد سبحت ، أي سباحه

شرعتي حبك العميق ، وإني -*- قد تذوقت مره و قـــراحه

لا أبالي وإن أريقت دمائي -*- فدماء العشاق- دوما- مباحه(2)

ويزخر ديوان مفدي زكريا بالكثير من القصائد التي تشدو بالوطن ، وهو ديوان شعر الثورة الجزائرية ، وفيه يتغنى بالوطن وثورة هذا الشعب في سبيل الحرية (3)، ونجد فيه وقفات وطنية متنوعة ، كما في قوله مشيدا بمدينة قسنطينة :

وانزل بدارات "سرتا" مطرقا أدبا -*- فبين أضلعها آباؤنا الصيد

ومنـــــها:

تياهة تزدهي عجبا ، بشاهقة -*- من الجبال ، لها لله توحيد

وادي الهوا،بالهوى نشوان خاصرها -*- وخاصرته ،كأن الأمر مقصود(4)

ولم يكن الهم الوطني،ليشغل الشاعر عن هموم أمته العربية الكبرى،وأكبر هذه الهموم قضية

1- ينظر ؛ أحلى ما قيل في الوطن ،ص: 192 ، 193.

2- أغاني الحياة (ديوان أبي القاسم الشابي) ، إعداد وتقديم : أبو القاسم محمد كرو ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 1999، ص: 17 ، 18.

3- للتوسع يمكن الرجوع إلى كتاب: شعر الثورة عند مفدي زكريا ،لـ: يحيى الشيخ صالح ، دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة، الجزائر ، ط 1 ، 1987 ،

4- اللهب المقدس (ديوان مفدي زكريا) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط 2 ، 1991 ، ص: 263 ، 264.

فلسطين ، يقول من قصيدة " فلسطين على الصليب " :

أناديك ، في الصرصر العاتيه -*- وبين قــواصـــفها الــذاريه
وأدعـــوك بين أزيــز الوغى -*- وبين جمــاجمها الجـــــاثية
وأذكــر جرحـــك في حربنا -*- وفي ثـــورة المغــرب القانيه
فلسطيــن يا مهبـــط الأنبياء -*- ويا قبـــــلة العرب الثـــانيه(1)

وقد كان للثورات العربية والأحداث الكبرى في القرن العشرين انعكاس قوي في تأجيج مشاعر الوطنية والقومية، فاصطف الشعراء إلى جانب المجاهدين ، يصورون بطولات الشعوب العربية ويفضـــحون جرائم المستعمرين ، ويدفعون الهمم للجهاد .

والملاحظ أن الشعر الوطني في العصر الحديث قد اتخذ عدة مظاهر تبعا لتطورات الأحداث التاريخية والتقلبات السياسية ، وما مر على البلاد العربية من صروف ومحن وثورات، لا بأس من الإشارة إليها لـماما ، ويمكن إيجازها في :

أ- النزعة العثمانية : وتأرجح فيها الشعـــراء بين مؤيـد للدولة العثمانيـــة ومناهض ، - وتحـديدا- في بدايات القرن العشرين .

ب- النزعة الشرقية : وهي التي تناصر شعوب الشرق عامة ضد أطماع الغرب وتدخلاته، ومن أبرز ممثليها أمين ناصر الديــن وشوقي وحافظ.

ج- النزعة العربية: وظهرت بعد الثــورة العربية 1916 وتميزت بالحس القومي ، ومن ممثليها خليل مطران وشفيق المعلوف والشاعر القروي ونعمة الحاج.

د- النزعات الإقليمية : وظهرت هذه النزعات إثر تقسيم الوطن العربي ، وظهور حركات التحرر في كل قطر.

هـ - شعر الحنين إلى الوطن : وظهر أكثر عند عامة شعراء المهجر.

و- المسألة الفلسطينية: وظهرت هذه النزعة بعد تقسيم فلسطين ،وتشريد أهلها عن ديارهم،واختلاق دولة إسرائيل1948، وحروبها مع العرب وما تبع ذلك من مجازر ومحن.

1- المرجع السابق ، ص: 336 ، 337.

ولا يكاد يوجد شاعر عربي لم يتناول هذه القضية. (1)

فكانت النتيجة تراثا شعريا ضخما من الشعر التحرري والوطني ، لا يكاد يخلو منه ديوان شعر، من قصيدة أو قصائد في الوطن محليا أو إقليميا ، تتغنى بأوطان العروبة والإسلام وديارهِ، وهنا لا يوفتنا أن نورد أبياتا من قصيدة (أندلس أخرى) للعلامة الشيخ ؛ يوسف القرضاوي قالها في" مأساة المسلمين في البوسنة والهرسك" وحيث كان الإسلام وأهله كان الوطن، وأينما لحق الأذى بالمسلمين لحق الأذى بالوطن ، يقول :

أفلسطينا أم أندلسا -*- في البوسنة نشهدها بأسى ؟!
سريفو تبكي محنتها -*- كالقدس ، وما أغلى القدسا !
أندلس أخرى اليوم ،وقد -*- كنا أنسينا الأندلسا! (2)

وهكذا كان الشعر الوطني لونا ثابتا في مسيرة الشعر العربي على مر عصوره ، وإن كان يختلف في تشكيله وإخراجه من زمن لآخر، ومن طريقة إلى طريقة، كما يختلف في دوافعه وأسبابه .

ولهذا فقد غصت دواوين شعراء العربية بالحديث عن أوطانها لا سيما في العصر الحديث؛ فما انفكت تذكر أمجادها التليدة أو تصور ربوعها الجميلة و مناطقها الساحرة وطبيعتها الخلابة، أو تصف عواطف الحب لها ، أو لواعج الشوق إليها ، أو حرارة الحزن عليها والإشفاق ، أو تعرض لبطولاتها وكفاحها ، أو تفخر بانتصاراتها أو تبكي أحزانها وانكساراتها ، كما نجد عند أغلب شعراء العربية من أمثال حافظ إبراهيم وسليمان العيسى، ومحمد العيد آل خليفة ومعروف الرصافي ، ومحمد الجواهري ، وشعراء المهجر عامة ، وصولا إلى رواد الشعر الحديث؛ بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة وفدوى طوقان ، وعبد المعطي حجازي ، وصلاح عبد الصبور ومحمود درويش ونزار قباني وغيرهم كثير.

1- للتوسع والتفصيل ، ينظر:الأدب العربي (الموسوعة الثقافية العامة) ص: 136....144
2- روائع أشعار العلامة القرضاوي (الأعمال الشعرية الكاملة) ، يوسف القرضاوي ،دار اليُمن للنشر والتوزيع والإعلام ، قسنطينة ، الجزائر ،2005 ، ص: 59 من ديوان" المسلمون قادمون".

الفصل الثاني : الوطن في شعر " إيليا أبو ماضي"

دراسة تحليلية سيميائية

1- الوطن الأم (الصغير)
2- الوطن الأمة (الكبير)
3- الوطن المهجر
4- الوطن العالم (أو الإنسانية)
5- معادلات موضوعية للوطن

1- الوطـن الأم (الصغيـر):

لم يغـب وطن الشاعر عن ذهـنه ووجـدانه طيلة العمر الذي قضاه في المهجر، فقد حفل ديوانه بالقصائد التي تتغنى بوطنه لبنان مصورة تفاعل الشاعر مع مسقط رأسه وأرض الآباء والأجداد ، كاشـفة عن اهتمام بالـغ بالأحداث التـي تقع هـناك ، ناقلـة حرارة عـواطفه إزاء أرضه، معبرة عن وجـدان وطـني حي.

أ- لبنـان:

تمـثل قصـيدة (لبنـان) شكـلا واضـحا من أشكـال التعـبير عن الوطـن ، والغنــاء لـه وعليه، إذ يبــدو فيها الشاعر مرهـف الحس رقـيق الشعـور في أعلى حالات وجـده ، وأجمـل لحـظات اندمـاجه ، وإن لم تخـل مــن وجــع شـفـيف ، وألم غــائر زاداه رقة وشاعــرية؛« وفي هذه القصيدة (لبنان) تتجلى حرارة الحنين ومرارة الألم ، والحنين والألم صــنوان أو توأمان.» (1)ويتلخـص معـناها في:

- التغنــي بالـوطـن ومظاهر جمال طبيعـته في اعـتـزاز وفخـر.
- حـرقة البعـد ومــرارة الغـربة وحــرارة الأشــواق.

غـير أن عـرض هاتيـن الدلالتـين جاء متـداخلا فوضـويا ، فمـرة نجـد الشـاعر يتغنـى، ومــره نلمحـه يفـتخـر ، وثالثـة يتألــم بفعل الغربـة ، وأخـرى يعــود للفخـر بـالوطن أو الإشـفاق عليـه، كـل ذلـك فـي فسيفــساء فنيـة ألــوانها مـن الطبيعـة ، ودلالاتهـا مـن إيحائهـا وسحـرها. ما يدفعنا للبحث عن النسـق الخفي وراء هـذه الفوضـى ، وعـن السـر المستتـر. يقول الشــاعر:

إثنـان أعــيا الدهــرَ أن يبليهـما -*- لبنـــانُ والأمـــلُ الـذي لـذويهِ
نشــتاقه والصيــف فوق هضابه -*- ونحــبّهُ والثلـــجُ فـي واديهِ
وإذا تـمُــد له ذكـــاء حبالـــها -*- بقلائـــدِ العقـــيان تستـغـويهِ
وإذا تـنقـــطهُ السّـمــاءُ عشــيـة -*- بالأنجـــم الزهـراء تسترضيهِ

1- إيليا أبو ماضي (رسول الشعر العربي الحديث)، عيسى الناعوري ، ص: 68.

وإذا الصبايا في الحقول كزهرها -*- يضحكـن ضِحْكا لا تكلفَ فيهِ
هن اللواتي خلقـــن لي الهــوى -*- وسقينـني السحـرَ الـذي أسـقيهِ
هـذا الذي صان الشباب على البلى -*- وأبـى على الأيـــام أن تـطـويهِ
ولـــربما جَبَـــل أشبهــهُ بِــهِ ، -*- مستـرسِلا مع روعـة التشـبيهِ
فأقـــولُ يَحكيـــهِ ،وأعلـمُ أنــهُ -*- مهمَا سمـا هيهـاتَ أن يحكـيهِ(1)

ولـقراءة النص،واستكنـاه عوالمــه ، رأيت أن أتتبع أبـرز علاماتـه الفنـية، وإشـاراته اللغـوية ، ومـن أكثـرها حضـورا في تكوين بـنـية القصيـدة ودلالاتـــها البعيـدة، بنية الفعل المضارع.

- بنيـة الفـعل المضـارع و تجاذبـية الأمـل والألـم:

يغـص الـنص بالفعـل المضـارع حتـى إنـه ليصبـح إحـدى خصوصـياته اللغـوية والتركيبـية البـارزة ، والفعـل المضـارع فعـل : « متصـل دائمـا بالدلالـة علـى عـدم تمـام الحدث ســواء اتصل فيـه الحـال بالمستـقبـل . أم كـان خالـصا فـي المستقـبل . وهـذا هو الأصل.» (2) وإلحـاح الفعـل المضـارع يؤدي لفظـيا ودلاليـا المعنى العام للنص ، ويعلن عـن بنيـته العميقـة ويســبر أغـوار دلالاته الكامنـة والباعثـة على حـركية النص ، الكاشـفـة عن تفـــاعل وجـــدان الشاعـــر ومـــا يغـــمره مـــن نشـــوة وطـــرب وفـــخر؛ فالأفـــعال المضارعـة:(يبلـيهما)،(نشـتاقه)،(نحـبّهُ)، (تـمُـد) ،(تستـغـويهِ)، (تـنقـــطهُ)،(تستـرضيهِ)، (يضحكـن)،(أسـقيهِ)،(تـطـويهِ)،(أشبهـــهُ)،(أقـــولُ)، (يَحكيـــهِ)،(يحكـيهِ) وردت أربعـة عشـر فعلا (14) في تسـعة أبيات، وأما الفعـل الماضي فلم يتـعد خمسة أفعـال:

الفعـــل	العـــدد	النســـبة %
المضارع	14	**73.68**
الماضي	05	26.31

1- الديـوان ، ص: .426.
2- المنهـج الصـوتي للبنيـــة العربيـــة ، عبد الصبـور شاهيـــن ، مؤسســـة الرســـالة ، بيروت ، لبـنان ،1980 ، ص : 62.

وسر ذلك أن الفعل المضارع يستجيب لحالة اعتزاز الشاعر بوطنه (أن يبليهما) وهي حالة دائمة ما دام أن الفاعلية معطلة بمعنى الماضي (أعيا) أي أعجزا الدهر وانتهى الأمر، والقوة تزداد حين يسبق الفعل بـ" أن " الدالة على الاستقبال(*) ، وتكون النتيجة كالتالي :

- إن الدهر لم يُبلِ لبنان ولا أمل أهله: (أعيا = في الماضي)

+

- إن الدهر لا يبلي لبنان ولا أمل أهله :(عدل عن الحاضر بدخول "أنْ")

+

- إن الدهر لن يبلي لبنان ولا أمل أهله :(قصرت "أن" المعنى على المستقبل ، لكنه تعطل ب(أعيا)= أعجزا)

=

تعطيل معنى (البلى) تعطيلا كاملا في الأزمنة الثلاثة.

والنتيجة أن الشاعر يحقق مطلقية معنى خلود لبنان وخلود أمل أهله، مما يبرر له مطلق الاعتزاز والفخر.

وتتحقق الدلالة نفسها في (نشتاقه + نحبه) الدالتان على شعور التعلق الشديد المستمر، وفي:(تمُد ، تستغويهِ ، تنقطهُ ، تسترضيهِ) التي تشير إلى ؛ ذكاء(أي الشمس) والسماء ، وهما مظهران طبيعيان كونيان يشيران إلى العلو والخلود ، مما يؤكد دلالات الجمال المطلق الخالد. والعلاقة ذاتها تتحقق مع الأفعال المضارعة الأخرى.

وعند النظر فيما تبقى من النص :

يا لـــذة مكـــذوبة يلـهـو بـــها -*- قلـبي ويعـــرف أنها تـــؤذيهِ
إني أذكـــره بذيـــاك الحـــمـى -*- وجمـــاله ، وإخالـــني أنســـيهِ
وإذا الحقائق أحرجت صدر الفتى -*- ألـــقى مقـــالده إلى التمـويهِ

---

*- (وسميت حرف استقبال ، لأنها تجعل المضارع خالصا للاستقبال.) جامع الدروس العربية ،ج 2 ، ص: 289.

وطني ستبقى الأرض عندي كلها -*- حـــتى أعــود إليه أرض التيهِ
سألوا الجمـــال فقال : هذا هيكلي -*- والشــعر قال: بنيــت عرشي فيهِ
الأرض تستجدي الخـــضم مياهه -*- وكنـــــوزه ، والبـــحر يستجديهِ
يمسي ويصبح وهو منطرح على -*- أقـــــدامه طــمعا بـــما يحويهِ
أعطــاه بعض وقـــاره حتى إذا -*- استــجداه ثانـــية ســخا ببنـيهِ
لبنان صن كنز العزائم واقتصد -*- أخــشى مع الإســراف أن تفنــيهِ(1)

نجد أن الفعل المضارع ما زال يسيطر على بنية التركيب الشعري ، ويشكل بنية دلالته العميقة ، وما يؤكد هذا هو أن بعض الأفعال الماضية في الجدول السالف تنوب عن المضارع ، وتسنده في الدلالة على الاستقبال لأنها واقعة في أساليب الشرط؛«لأن أدوات الشرط قد تدخل على الفعل الماضي فتنقله إلى الاستقبال.» (2)كما في قول الشاعر؛(وإذا الحقائق أحرجت...ألقى).

الزمن	الأفعال	العدد	النسبة %
المضارع	يلهو، يعرف ، تؤذيهِ ، أذكره ، إخالني ، أنسيهِ ، أعود ، تستجدي ، يستجديهِ ، يمسي ، يصبح ، يحويهِ ، أخشى ، تفنيهِ	15	**57.69**
الماضي	أحرجت،ألقى ،سألوا، فقال، قال، بنيت،استجداه،أعطاه، سخا	09	34.61
الأمر	صن ، اقتصد	02	07.69

لكن عددا من الأفعال المضارعة في هذا المقطع ، وإن أعربت عن معنى الديمومة والاستمرار، إلا أنهما ديمومة واستمرار ألم ومعاناة ؛(يلهو بها...قلبي ويعرف أنها تؤذيهِ) فاللهو(علامة سعادة في الأصل ونشوة) لكنه يعقبه الوعي بقدوم الأذى. مما يعدم إيجابيته. وفي (أذكره ... وإخالني أنسيهِ) يظهر التعارض والصراع بين (إرادة التذكر ومخافة(وهم) النسيان) مما يفضح مكابدة الشاعر في الغربة في مقاومة النسيان والذوبان.

1- الديوان ، ص: 426 ، 427.
2- التعبير الزمني عند النحاة العرب ، عبد الله بوخلخال ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1987 ، ج 1 ، ص : 59.

ويعـود الشـاعر من جـديد إلـى إضـفاء معـــاني الجمـال والجـلال علـى وطنــه ، وقد تجــاوز ألمـه مؤقـتا ؛(تستجــدي، يستجديهِ ، يمسي ، يصبح ، يحويهِ) لكنـه يعــود ليذكر الهاجـــس الذي يشغـــله ويؤلمـه؛(أخـشـى ، تفـنيه) والفـعلان مرتبـطان برفض الشـاعر هجـــــرة المزيد من شـــباب لبنـان؛ فهم كنـزه) ممـا ينبـئ عن نـدم خفـي ، وألـم ممـض ، وشعــور بالغربـة يغلـي فـي دخيلـــة الشـاعر مـا يفسـر اندفاعـه الانفعـــالي ممثـــلا فـي فعلـي الطلب ؛(صُــن ، اقتـصد) وهمـا محاولة للمقاومـة أو سلـوى تخفـف كل تـــلك الآلام.

ـ البنية الصوتية : إيقــاع الشمــوخ والأنين المكــبوت :

تمتلك القصيدة (لبنــان) ثــراء إيقاعيا وصـوتيا هــائلين ، يضيــفان إلـى دلالتهـا قـوة فنيـــة مـن خـــلال اتحـــاد جميـــع علامـات الـنص لـتأديـــة رســـالة واحـــدة . فالقصـــيدة موسيـقيا على بحــر الكامل وهو:« واحـد من البحـور الموحدة التفعيـلة أو الأبحـر الصافيـة ،وهي البحــور ذوات التفعيــلة الواحـدة المكررة وهو من الدائرة الثانية(دائرة المؤتلف).»(1)

والشكل النظري لإيـقاع الكامل كالتالي:

متفـاعـلن متفـاعـلن متفـاعـلن 0// 0/// 0//0/// 0// 0///	*	متفـاعـلن متفـاعـلن متفـاعـلن 0// 0/// 0//0/// 0// 0///

ويتـوفر هـذا البـــحر علـى غنائيـــة ثريـــة تجعلـــه متساوقا مـع المـــواقف التـــي تصـــور المشاعر على الجملـة إذ يمتـاز بكونه مـن: « أصلـح البحـــور لإبـراز العواطـف البسيـطة غير المعــقدة كالغضـــب والفـــرح والفخـــر، وأنـــه غنـائي صـــرف.»(2)وهـــذه المشـــاعر لمســناها في تحليل بنيـة الفعل المضـــارع.

وقـد استعملـــه الشاعر علـى شاكلـة عروضـه الأولـى ،وهـي عـــروض:« صحيـــحة (مُـتَـفَـاعِـلُـنْ) ولهـا ثلاثـة أضـرب؛الأول صحيح(مُـتَـفَـاعِـلُـنْ)، والثـــاني مقـــــطوع

1- علم العروض وتطبيقاته ، محمد مصطفى أبو شوارب ، دار الوفاء لدنيا الطبع والتوزيع ، الإسكندرية ، مصر ، ط 1 ، 2004 ، ص : 111 .

2- المعجـــم الأدبـي ، ص :219 عـن (المعلقـات الســبع، بكـري شيخ أمـين ، دار الإنســان الجديـد ، بيروت ، 1975 ، ص : 117.)

(متفاعل) والثالث مضمر (فعلن) عوض (متفا).»(1) وعنـد دراسـة البنـية العميـقة لإيقاع النـص، واستقراء موسـيقاه نجـد أن الشـاعر وظـفه علـى شـاكلة عـروضه الأولـى بضربـــها الثـاني ، فـ « للكامـل ثلاثـة أعـاريض وتسـعة أضـرب.»(2) مـن جملـة أشكالـه العديـدة

والتحلـيل الإيقاعي للمـقـطع الأول من النـص يـقدم لـنا الشـكل الموســيقي الــتالي :

0//0/0/	0/ /0/0/	0//0/0/	*	0//0/0/	0//0/0/	0//0///
0//0/0/	0//0/0/	0//0///	*	0//0///	0//0/0/	0//0///
0//0///	0//0///	0//0///	*	0//0///	0//0/0/	0/0///
0//0///	0//0///	0//0/0/	*	0//0///	0//0/0/	0/0///
0//0///	0//0/0/	0//0/0/	*	0//0///	0//0/0/	0/0///
0//0/0/	0//0/0/	0//0///	*	0//0///	0//0/0/	0/0/0/
0//0/0/	0//0/0/	0//0///	*	0//0///	0//0/0/	0/0/0/
0//0///	0//0///	0//0/0/	*	0//0///	0//0///	0/0/0/
0//0///	0//0/0/	0//0/0/	*	0//0///	0//0/0/	0/0/0/

فمن مجموع 54 تفعيلة بوزن (مُـتَـفَـاعِـلُنْ = ///0 //0) نجـد :

- أن : « الإضمــار: وهو تسكــين الثاني المتحرك من التفعــيلة فـتـتحول من (مُـتَـفَـاعِـلُـنْ = ///0 //0) لتصبــح(مُـتْـفَـاعِـلُنْ = /0/0 //0).»(3) قد جاء في ثلاثين(30)تفعيلـة منها أي بنســبة : 55.55 % .بمعنى أن ثلاثين (30) متحركا تحولت إلى سكنات ؛ ما يؤكد غــنائية النص وميـله إلى الوجدانـية التي تعلـنهـا الحروف الساكـنة لاسيما حروف المـد منـها.

- أن سـبع (7) حالات إضمــار وقعت في تفعيـلة الضــرب(الأخيرة في العجـز) أي بـالقرب من القــافية من مجمــوع تسـعة (9) أبيــات ما يعدل نــسبــة : 77.77 % ؛ الشـــــيء

1- ميزان الذهب في صناعـة شعر العـرب ، السيـد أحمـد الهاشمي ، دار الفكـر ، بيـروت ، لبنـــان ، ط 1 ، 2005 ، ص: 50.

2- مفتـاح العــروض والقــافيــة ، ناصــر لوحيشي ،دارالهـداية ، قسنطـينة ، الجـزائر،2002، ص : 76.

4- علم العروض وتطبيقاته ، ص: 111.

الذي يؤكـد أن تسكــين المتحـركات كاد يصبـح نمـطا في إيقاع النــص خاصـة في القافــية التي تعـتبر محـور الإيـقاع الشـعـري ، وأســاس الـوزن .

أما القافــيـة والتي ؛« كما قـال الخليل : هـي من آخـر ساكن في البيت ، إلـى أقــرب ساكن يلـيه مع المتحــرك الذي قـبله»(1) فــهي في النــص على الصورة التالية :

(/0/0 = ويهـي) في البيت الأول .

(/0/0 = ديــهي) في البيت الثانـي.

ورويــها هـو الهـاء المكســورة الواقعــة بـين حــرفيْ مـدّ ، هــما يـاءان فـيمكن ملاحظـة الخصائص التالية:

- طبيـعة صوت حــرف الروي (الهاء) يتــفاعل إيجابــيا مع طبـيعة موضوع النـص وحالـة الشاعر الوجدانية على اعتبار أن :« الهــاء صوت حنجري احتكاكي (رخـو) مهموس مرقـق »(2) مـما يوفر مساحة إيقاعية وصوتية لمعــاني الرقة وللشاعـر أن يهمـس بحالته المتداخــلة الانفعــالات ، خاصــة وأنهـا تعتمــد علـى صـائت هـو الكسـرة التـي فيـــها : « يرتفـع مقدم اللســان تجـاه الحنـك الأعلـى إلـى أقصـى حـد ممــكن مع انفـراج الشفـتين»(3) ممــا يحــدث بعض الصعــوبة في نطــق هـذا الصـوت لوقــوعه بين صائتــين طويليــن من جنس واحـد هو(الياء)، لتتكشــف- صوتيا وإيقاعيا - حالة الحــزن والألم الذي يغـلف النص ،رغم معاني الاعتــزاز والفخــر التـي تقاومهمـا . لاسيما وأن الكسـرة هـي أقـوى الحركـات , ممـا يقـوي الاعتماد في نطقها عند الإنشاد وهذا يحدث شيئا من التعارض المعبر عن تعارض ضمني في موقف الشاعر الوجداني .

- وقـوع حرف الروي (الهـاء) بين صائـتين ، وعــروضيا هما الردف (وهو حـرف مـد قبل

1- ميزان الذهب في صناعـة شعـر العـرب ، ص: 98 .
2- الأصـوات اللغـوية ،عبد القـادر عبـد الجليل ، دار صفـاء للنشر والتوزيـع ، عمــان ، الأردن ، ط1 ، 1998 ، ص: 183.
3- المـرجـع نفســه ، ص : 210.

الروي) والوصل (وهو حرف ساكن ناتج عن إشباع حركة الروي)(1)، وهذا يعطي فرصة ملائمة للإطالة في إنشاد نغمة القافية ، ومساحة واسعة من التعبير التنغيمي الذي يُمَكِّن الشاعر من تحميل تلك الإطالة شحناته العاطفية المختلفة .الأمر الذي يؤهل النص إلى حالة من تطابق الدلالتين ؛ الصوتية والمعجمية التركيبية في مضمون النص.

أما إذا عدنا إلى تأمل البنية الصوتية العامة والمسيطرة على النص(الموسيقى الداخلية)والمُشكِّلة للنغمة الكلية للنص بتآلفها إيقاعيا مع موسيقاه الخارجية (الوزن والقافية) التي لاحظنا ملامحها ، منذ حين ، فإننا نتوقف عند أبرز معالمها وهي خاصية كثرة حروف المد؛ « وسميت حروف مد لأنها تخرج بامتداد ولين من غير كلفة لاتساع مخرجها ، ومخرجها جوف الحلق والفم وهو الفراغ الداخلي فيه »(2)، والتي يفصلها التصنيف التالي :

البيت	حروف المد		حرف المد الغالب
	الألف	الياء	
1	4	2+1	الألف
2	3	2+0	الألف
3	6	2+0	الألف
4	3	2+0	الألف
5	4	2+0	الألف
6	2	2+0	الألف = الياء
7	8	2+0	الألف
8	1	2+0	الألف
9	3	2+1	الألف
طغيان حرف المد "الألف" يعبر عن مطلق الاعتزاز والشموخ مع العلم أن مد " الياء" المرموز له (+2) هو في القافية مما يستدعي ثباته نظريا			

البيت	حروف المد		حرف المد الغالب
	الألف	الياء	
10	2	2+1	الياء
11	4	2+3	الياء
12	5	2+0	الياء
13	1	2+2	الألف
14	5	2+2	الألف
15	1	2+1	الياء
16	3	2+2	الياء
17	7	2+1	الألف
18	4	2+0	الألف
كلما كثر حرف المد " الياء" عبر عن معنى الانكسار والألم ، وعودة غلبة الألف هي مقاومة للألم ومحاولة تعالي عن لحظات الانكسار			

1- لتفصيلٍ أكثر حول القافية ، ينظر:علم العروض وتطبيقاته، ص : 134 ، 135 ، 136.
2- كيف تجود القرآن العظيم (أوضح البيان في أحكام تلاوة القرآن) ، محمد محمود عبد الله ، مكتبة القدسي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1996 ، ص : 30.

إن هذه الجدولة لحرفي المد(الألف،الياء) والتي تدخل ضمن ما يسمى" الحركات الطويلة" (long vowels)(*) تعطي دلالة دقيقة تقترب من العلمية عن تفاعل البنية الصوتية مع دلالة المعنى العام. ويمكن قراءة النتائج التالية من التصنيف السابق:

- في المقطع الأول(الأبيات التسعة (9) الأولى) يسيطر حرف المد الألف على النص سيطرة كلية ؛تنبئ عن رفعة واعتزاز وفخر، وذلك هو مدلول الأبيات.ويصل هذا الاعتزاز ذروته في البيت السابع(7) مع الإشارة إلى أن الياءات الواردة في المقطع هي من حروف القافية ؛الأمر الذي يستدعي بقاءها إلى نهاية النص (وقد رمزت لها : +2) .

- في المقطع الثاني(من البيت 10 إلى البيت 18) نلاحظ تراوح الغلبة بين الحرفين المذكورين، وتبدأ غلبة "الياء" من البيت العاشر الدال تركيبيا عن الألم والمؤكد صوتيا في الياءات الطويلة الحاملة إيقاعيا لإيحاءات الانكسار: ويتأكد هذا لو توقفنا لنتأمل سريعا (ونحقق) مدى تباينية الوحدات في هذا البيت مما يحدث التجاذبية التي تنتهي بالألم:

يا لـذة	مكـذوبة	يلهـو بها
+	—	+
منعوت	نعت 1	فعـل مضارع (نعت 2)

- منتهى التباينية في التعارض بين النعت والمنعوت من جهة ، ومنتهى التباينية-أيضا- بين النعت 1 والنعت 2 .مما يكون شكلا دائريا يفصح عن استمرار التجاذب .

قلبي	ويعرف	أنها تؤذيه
مركز: + ، —	إدراك مسبق للألم	—
فاعل (و مفعول به في معنى الضمير العائد عليه في الفعل " تؤذيه")	فعل مضارع (معطوف على نعت 2)	مركب اسمي+ فعلي (مفعول به) تغلف دلالته كل الدلالات السابقة.

- قمة التباينية والتعارض والتجاذبية في لفظ (قلبي) في حد ذاته (وهو مركز شعور ومتعة وألم وإنسانية الشاعر)؛ فمرة هو فاعل (+) للهو ، ومرة هو مفعول به (—)

*- علم العروض وتطبيقاته ، ص: 21.

- مع التأكيد أن (يلهو ، تؤذيه) فعلان مضارعان مستمران متسايـران = ممـا يجعل الصـراع شديـدا متجـددا دائما.

ب- وطن النجـوم:

تعتبر قصيـــــدة " وطن النجـوم" من أشهــر قصائـد الشاعر ، وقد قــالها حين زار بــلاده المــرة الوحيـدة سنة 1948 لحضـور مؤتـــمر اليونســكو الـدولي(1) ، وقــد دُعِـي الشاعر ممثِـلا للصِّحـــافة العــربية في المهــجر.ويدور الحــديث فــيها حول محــورين أساسيـيــن هما:

- فرحـة الشاعـر بالعـودة إلى الـوطن وملامــسة تـرابه، ورحلة استــذكار لطفـولته فيه.
- تأكـيد الانتماء للوطن ، واعتــزاز بجماله وجلاله.

يقول- في مقطعها الأول - :

وطن النجــوم ... أنا هـنا -*- حــدق ... أتذكـــــر من أنا؟
ألمحت في الماضي البعيـــــــــــد فـتى غـــريرا أرعـــنا ؟
جذلان يمرح في حقـولك -*- كالـنـسيـــــــم مدنـــــدنا
المقتنـــى الممـــلوك ملـــــــــــعبــه وغيـــــــر المقتنى
يتسـلق الأشجـــــار لا -*- ضجـــرا يحس ،ولا ونـــى
ويعود بالأغصان يبـــريـــــــــها ســـيـــــوفا أو قــنا
ويخوض في وحل الشتا -*- متـــهللا متيـــــــــمنا
لا يتـقـي شـــر العيـــو -*- ن، ولا يخـاف الألـســـــنا
ولكم تشيطـــن كي يقول -*- النـــاس عنـه " تشـيـطنا"(2)

تظهر حميمية العلاقة بالوطن من الوهلة الأولى ، أي من العنوان ، أول مفاتيح النص

1- ينظر ؛إيليا أبو ماضي ، عبد اللطيف شرارة ، ص: 17.
2- الديـوان ، ص: 396.

وعلاماته ، وهذا العنـوان يحمل من الدلالة ما يختــزل النص الشعري بأكمله ، ويجعل هذا العنوان تكثــيفا دلاليا قابــلا للانفجار والتأويل لا سيـما عند ربطــه بالقصيدة:

ـ سيميائية العنوان، ومطلقية الجمال والكمال والاطمئنان:

تُــقرأ عبارة العنوان على محملين يجب الوقوف عندهما معا ؛ محمل التركيب الطلبي (النداء) ، ومحمل التركيب الإسمي، فإذا أخذناها على محمل التركيب الطلبـي (النداء) على أساس ما جاء في بيت القصيد :

وطنَ النجــوم ... أنا هـنا -*- حـــدق ... أتذكـــــر من أنا؟

نلاحظ أنها جاءت في صيغة منادي لأداة محــذوفة (يا) (المؤدية لوظيفة فعل الطلب: أدعو ، أنـادي) (*) تحقيقا لحذف حـاجز البعد ، فلا داعـي لواسطة النداء مـا دام الشـاعر ملتصـقا بموضوعه (الوطن) ؛ فهو فيه بجسده (أنـا هــنا ، حدق ... أتذكـر من أنـا؟)وإضـافة المنـادى إلى "النجوم" (وهـي اللفظـة الجامدة) إلحـاق "للوطن" بثــوابت لا تتغيـر منهـا : أن النجـوم رمز الخلود ،وهـو خلود الوطن ، وتدل "النجـوم" دلالـة الوضوح مما يضبــط الرؤية ويحــدد الهدف ، وتوحي ـ كذلك- بدلالة الصفـاء الطبيعي والجمـال :

عاش الجمـــــال مشــردا -*- في الأرض ينشــد مسكنا

حتى انكـشـــفـت له فـألـــــــــــقى رحلـــه وتـوطـــــنا(1)

وهما مظهـران لصفاء المعـنى والضمير والمبدأ ، هذا فضلا أن صفاء النجوم نقيض الضبابية التي عاشها في الغرب طبيعة وشعورا، وهي ضبابية الغربة التي تملأه بالحيرة والشك.. ومما تشيـر إليـه " النجـوم" دلالـة البعد إشـارة للمطلـق والكمـال، كمـا أنهـا بمخــزونها الإنسـاني والعقائدي تمثل المعلمية فهي سبيل الهـداية والرشـاد ؛ إذ عرف الإنسان بهـا الاتجاهات منذ القـديم ،وأدرك بمعـرفتها المواقع والمــواقيت،وهذا ما تؤكـده الآيـة الكريمة ،

---

*- ينظر ؛ جامــع الدروس العربيـــة ، مصطـفـى الغلاييـني ، المطبـعة العصـرية ، صيدا – بيروت ، ط 1 ، 2004 ،ج3 ، ص :508 ، 509

1- الديـوان ص : 397.

قال تعالى : (وعلامات وبالنجم يهتدون)(1).وهكذا فالشاعر (وقد عاد إلى الوطن) قد اهتدى إلى غاياته المطلقة:

فأعـــار أرزك مجـده -*- وجـلالـه كي نؤمـــنا

وبهذا يكون الشاعر قد أضاف وطنه ونسبه لكل المعاني المطلقة من ثبات وخلود وصفاء وجمال وهداية واطمئنان ، خاصة أنه لا فاصل بينه وبين المنادى (أي الوطن). مع التذكير أن المضاف والمضاف إليه لفظان بمثابة لفظ واحد في المعنى . وأن نسبة المضاف إلى المضاف إليه فيها تعريف وتحديد له، وتكون العلاقة الطلبية – عندئذ- بقصد المشاركة ؛أي أن الشاعر باستعماله النداء(معنى :أدعو) يلفت الوطن إليه (أنا هنا)، أو يحدث معنى التقارب أو يرتمي فيه معتزا سعيدا مطلق السعادة ، بأوصاف هذا الوطن ، والجدول التالي يلخص ما سبق :

اللفظ	تركيبه	نوعه	صيغته (العدد)	دلالته (1)
وطن	منادى مضاف	جامد	مفرد	مكان الشاعر
النجوم	مضاف إليه	جامد	جمع	صفات مكان الشاعر
النتيجة	تعريف الأول بالثاني	الثبات	الاشتراك والتعدد	**كمال المكان**

والنتيجة :

(1) الدلالة	الخلود	الصفا ء	الجمال	الهداية	صفات الكمال
بعدها(قيمتها)	القوة والثبات	الوضوح	المتعة الروحية	الاطمئنان	تحقيق المطلق

أما القراءة الثانية لعبارة العنوان ، وهي قراءته على تخريج التركيب الإسمي فإنها لا تعارض القراءة السابقة ، بل تضيف إليها دلالة الإشارية :

هـذا(أو : أنـت) وطنُ النجـوم

مما يفصح عن معاني اليقينية ، فباسم الإشارة - المحذوف – يتأكد قرب الوطن ، ويتحقق بتحقق دلالة الثبات في التركيب الاسمي الدال على الديمومة بتجريده من الزمن.

1- سورة النحل ، الآية :16.

ـ بنية الفعل المضارع: حضـور الماضي في دينامية الحاضر لاستعادة الطفولة:

من أكثر ما يسترعي الانتباه في المقطع الأول-السابق- من (وطن النجوم) ظاهرة حضـور الفعل المضارع ، وما ذلك إلا إحياء للطفولة ؛ فالشاعر ما عرف وطنه ووعاه إلا طفلا (*). فهو لم يعش فيه شابا ولا كهلا ، وعليه فالحضور في الوطن يستحضر الطفولة، والعودةُ للمكان عودةٌ الزمان ، وقد أضفى الفعل المضارع (الدال أصلا على الحال أو الاستقبال) حركية حثيثة على الماضي الجامد ،فإذا بصيغة المضارع :« تدل على الزمان الماضي وذلك بقرينة لفظية أو معنوية » (1)والقرينة هنا معنوية :

وطن النجـوم ... أنا هـنا -*- حـــدق ... أتذكـــر من أنا؟

ألمحت في الماضي البعيـــــــــد فتى غـــريرا أرعـــنا ؟

فالشاعر انطلق من لحظة الحاضر (أنا هنا ..أتذكـر..؟) ثم أحدث منعطفا ذكيا بتحوله بواسطة (أتذكر) الدال على المضـارع إلى الماضي البعيد ، لأن التذكر لا يكون إلا للماضي ،ومن هذا المنعطف جعل يوالي الأفعال المضارعة ـ الدالة أصلا على الماضي – (يمرح ، يتسلق ، يعود ، يبريها ، يخوض ، لا يتقي ، لا يخاف) وما يؤكد هذا هو عامل الفاعلية الذي يؤديه الشاعر نفسه، فهو الذي يتوق إلى طفولته ، وبما أن استرجاع الماضي مستحيل في الواقع ، فها هو يحققه فنيا .

ـ البُنى الإسمية وثبات الانتماء:

إذا كان الفعل المضارع يسيطر على المقطع الأول ، فإن فواتح المقطع الثاني تتشكل في أبنية اسمية متماثلة حد الانطباق :

أنا ذلك الولـــــد الـذي -*- دنيـاه كانـت هـهـــنا

أنا من ميـاهـك قطـرة -*- فاضـت جـدول من سنـا

---

*- قد مر في هذا البحث أن الشاعر غادر وطنه في الحادية عشرة من عمره ، ينظر صفحة 25 من ترجمة الشاعر.أو إيليا أبو ماضي ، عبد اللطيف شرارة ص: .08

1- التعبيـــر الزمني عند النحـــاة العرب ، ج 1 ، ص : 131.

أنا مـــن تـــرابك ذرة -*- ماجـت مواكب من منـــى

أنا من طيـــورك بلـبل -*- غـنـــى بمجـــدك فاغتنـــى(1)

فصدر كل بيت من هذه الأبيــات الأربعة هو تركيــب اسمي ، وإذا اعتبرنـا البيت الأول مباشرا، فإن الثلاثـة الأخرى هي التي تمنــحه التكملـة الفنيــة لتشكيل انزياح فنــي دلالة ً وتركيبًا معا، فعنصر المشابهة ظاهـر معلـن ؛(أنا = قطرة..ذرة.. بلبل) وعنصر التركيــب ثابت في بـناء يلتــزم صيغـة تبدو رتيبـة متـكررة إلا أن دلالتهـا العميقة تكشف عمـق وجدان الشاعـر في ارتباطه العميق بـالوطن، محققا ذلك فـي نعت ذاتـه بمعنـى الجزئية من الكلية ؛ وذلك يتأكد من دلالـة حرف الجر الذي يحمـل مع معنـى الإضـافة معنـى الجزئية، فالحرف "مِن" يـدل معنى: « التبعيض أي معنى" بعض" » (2).والنهج المنظِم للمعنى كالتالي :

فإصــرار | مبتدأ + جار ومجرور،ومضاف إليه (هو الوطن) + خبر مؤخر | الشـــاعر

على التقديم والتأخير ، توكيـد يكشف أهمية المقدم وهـي كليات المعنـى الـذي ينتــمي إليـه ؛« لزيادة تثبـيته في نفـس السامـع ، وإثارة الانتبــاه إليه » (3):

أنا	من مـــياهك	قـطـرةٌ	ماء = الحياةُ سببا واستمرارا
	+	+	+
أنا	من تـــرابك	ذرةٌ	تراب=أصل الإنسان،ومصدر النبات
	=	=	=
أنا	من طـيـورك	بـلـبلٌ	إنسـان + غـناء = شاعـر
0//	// 0 / / 0/	0// 0 /	ثبات النغـمة بوحداتها = الاستقرار
الشاعر ضميرا (مبـتدأ)	جار ومجرور ومضاف إليه (مقدمة على الخـبر)	خبر مؤخر	ثبات التركيب الإسمي= ثبات معنى الانتماء وثبات التمسك به.
ذات الشاعر	انتمـــاء للكل	الـجزء	انتماء الجزء للكل = حيـاة الشاعر

وتفسيــر ما سبق أن الشاعـر قد عاد إلى الحاضـــر: ليعبر عن المعـنى مفرغا من

1- الديـوان ، ص : .396.
2- جامع الدروس العربية ، ج 3 ، ص: 525
3- الوجيـز في فـقـه اللغـة ، محمـد الأنطـاكي ، مكـتبة دار الشـرق ، بيـروت ، لبنـان ، ط 3 ، ص: 338.

الزمن؛ فبعد أن ذكّـر الوطـنَ بطفولـته وانتســابه إليه،أراد أن يثبـت انتماءه فـي لحظتـه تلك (لحظة إنشاد القصيدة) إلى هذا الوطن، هذه المـرة بـدون تحديد زمني بل بالتركيب الإسمي الدال على عناصر الطبيعة (قطرة– ذرة – بلبل) منسوبةً إلي الوطـن المحقق في الضميــر "الكاف" (من مياهك – من ترابك – من طيورك). كما أن ثبات الإيقاع في كل وحــدة هو إشـارة فنـية لثبــات دلالة الانتمـاء وتقريـر لذلك وتمــسك به.

- إيقاع الطفولة على لحــن الأنا :

تتمتع قصيـدة (وطـن النجـوم) بإيقاع متمـيز، يطـرب القارئ ويستفـز الباحث ،لا سيمـا إذا وضعنا في الاعتبار أن الشاعر أنشــدها في لبنـان ، وعمـره قرابـة الستيـن عامـا ، والشـيء الذي يثير الانتباه هو اختياره للبحـر وهـو مجـزوء الكامـل وإيـقاعه نظريا:

متفــاعـلن متفــاعـلن	-*-	متفــاعـلن متفــاعـلن
0 / / 0 / / / 0 / / 0 / / /		0 / / 0 / / / 0 / / 0 / / /

والكامل(*) - مجزوءا – أقرب إلى إيقـاع الأناشـيد وأكثر اتـساقا مع معـاني الغنائيـة ، وأكثر تجاوبـا مـع الطفوليـة ، فالشطــر لا يتــسع لأكثـر مـن أربعـة عشـر متحركـا وسـاكنا (14)، ومجمـوع سكناته على صورته النظــرية أربعـة ســواكن (4) أي بنسبة ؛ 28.57 %. لكننـا إذا قمــنا بالتحليل الإيقاعي للمـقطع الأول من النـص نلاحـظ :

نسبة السكون %					
32.14	0//0///	0//0/0/	*	0 //0///	0//0///
35.71	0//0/0/	0//0///	*	0//0/0/	0//0///
32.14	0//0///	0//0///	*	0// 0///	0//0/0/
39.28	0//0/0/	0//0///	*	0//0/0/	0//0/0/
32.14	0//0///	0//0///	*	0//0/0/	0//0///
39.28	0//0/0/	0//0/0/	*	0//0/0/	0//0///
32.14	0//0///	0//0///	*	0//0/0/	0//0///
39.28	0//0/0/	0 // 0///	*	0//0/0/	0//0/0/
32.14	0// 0///	0// 0/0/	*	0// 0///	0//0///

*- سبق الحديث عن خصائص بحر الكامل ، ينظـر تحليل قصيـدة(لبنان) ص:

- نلاحـظ زيادة عـدد السواكن في بناء النص الإيقاعي ، بحيث دخل الإضمار في ستة عشر وحــدة (16) أي تفعــيلة ، فقد تغيرت وحــداته بنسبة 44.44 % ، وهــذه النسبــة من السواكن الإضافيــة تعطي مجالا أوســـع لغنائية القصيـدة وتحقيـق عمليـة الإنشــاد.

أما قافيــة (وطن النجـوم) فتقابل التشكـيل الصـوتي التالي :

البيت الأول	من أنــا = /0//0
البيت الثاني	أرعــنا = /0//0

فضـرب القصيــدة (متفـاعلن = ///0//0) جـاء صحيــحا ، وتقــوم فيـه نغمــة القافيـة، والتـي هي:« مجموعـة أصـوات تكـون مقطعـا موسيقيا واحـدا ، يرتكز عليــه الشـاعر فـي البيت الأول ، فيكـرره فـي نهايـات أبيـات القصيدة كلهـا مهمـا كـان عـددها» (2).علـى النمـط التـالي: (0//0/) وهي تركيـبيا مجمـوع ؛سـبب خفيف (/0) ، ووتـد مجمــوع (//0) يقابل – هـذا الوتــد – كلمــة : أنــا ، وهـي الكلمــة المحــور فـي البيت كلـه ، وباعتبـاره بيت القصيــد وباعتبــار المعنى والنتائج المتحصل عليها سابقا ، تكـون كلمـة (أنـا) محـور المقطــع الأول كلــه ، والشاعر يرتكز عليها بوصفها أساس الدلالـة من جهـة وأساس الإيقاع وخلاصته نظرا لحساسية موقعا من الوزن :

وطن النجــوم ... أنا هـنا -*- حـــدق ... أتذكـــــر من أنا؟

وإذا تبين أن كلمـة (أنـا) - وهـي المقابـل اللفظـي الرامــز للشـاعر- جـاءت فـي صـدر البيت ، مبـتدأ تُخبـر عنــه (هنـا)المشــيرة إلـى (لبنـان) وتكتـمل علاقـة الإسنـاد بـينهما ؛ ممـا يجعل الشاعر طرفا يكتمل بـالطرف الثـاني وهو الـوطن ، ويتحـقق التـوحد والاندمــاج والانتمــاء، والكلمـة نفسـها (أنـا) تعـود لتظهر في أبرز موقع من العجز(القافيـة) فـي صـيغة مستفهم عنه:من أنا ؟ اتضح لنا من اللفظ والتركيـب والإيقاع- وحتى السياق التاريخي للنص

1- مـوسيقى الشعــر العــربي قديمـه وحديـثه ، عبـد الرضــا علي ، دار الشــروق ، عمـان ، الأردن ، ط1 ، 1997 ، ص : 168.

وملابساته – أن الشــاعر يسعــى، كل جهـده ، أن يثبت للـوطن أنه هـوهو ! في الوقـت الذي يخشى- نفسيــا- أن ينكــره هـذا الوطــن (لأنــه خـرج منـه طفلا ، وتغيرت ملامحــه مـا من شـك) وعاد إليه في الستين من عمــره!

وهـذا ما يبـرر رحلة استـذكار الماضي والطفولة بملامحها وأفعالها ، فقـد كان هم الشـاعر أن يثـبت أنه الطفل الذي كان هنا ، فجعل - إيقاعيا – يقول : أنا ، أنا ، مؤجـلا الحديث عن شوقه للـوطن ، إنهــا معركـة شعـورية لإثبـات الانتمـاء بكل الوسـائل ، ومـن أهمهـا – فـي الشعــر- الإيقاع (ومركزه القافية) التي يســاوي جـزء منهـا :إيقـاع لفـظ (أنـا = //0) المكرر مـا يماثلـة في كل دورة موسيـقـية- في نهاية كل بيت- ؛(هـنا/..عني /..تـنى / ونـى/ قنـا..).

ومــا يــؤكـد هـذا التفسيــر هـو اختيـار حـرف الـروي(*) (النــون) بمــا يملــكه هــذا الحـرف (الصـوت) مـن خصـائص تلائـم دلالـــة الـنص العامــة وحالـة الشاعـــر النفسيــة وموقفـه الوجـداني: والمتمثـلة في :

- طبيعـة صـوت حـرف النـون وهـو:« صــوت لثـوي أنفـي متوســط بين الشــدة والرخـاوة ، مجهــور مرقــق » (1) ، مما يمنحه قـدرة تنغيــمية هائلــة .

- يحمل صفة الغنــة وهي : « صوت لذيــذ يخرج من الخيـشوم مقداره حركتين » (2) وهـذا مـا يجعلــه أصلح للغنــاء والإنشــاد.

- حركتــه (أي المجرى): فتــحـة تطابـق حركة كلـمة (أنَا) مما يشعــر بــتكرار إيقاع : أنـا.. أنا.. أنـا ، وبالتــالي يحيل علـى معــناها ودلالــتها ، ولـو من قـبيل المــماثلة الصوتية. ومن خصـائص الفتحــة أنهـا : « حــركة متســعة وصـائت وسطــي قصيــر ، يكون اللسان معها مستــويا في قاع الفــم مع ارتفــاع خــفيــف في وسطــه ، حيث يبـقى الفم مفتـوحا

---

*- الروي ؛ هو الحرف الذي تبنى عليه القصـيدة ، فتـنسب إليـه ، كـقولنا (لامية العرب) وتسمى حركـة الروي المطلق؛ مجرى ، ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، ص: 99 ، 102.

1- الأصــوات اللغــوية ، ص : 173.

2- الميسر فـي أحكـام الترتيل (بروايـة ورش عن نـافع من طريـق الأزرق) ، رحيــمة عيســاوي ، دار الهـدى ، عين مليلة ، الجـزائر، 2000 ، ص : 44 (الهامـش).

بشكل متــسع وحجرات الرنيــن فــيه كبــيرة» (1) .

- اختياره لأخف الحركات للروي وهي الفتحة : « فالفتح الخالص الذي لا تشوبه الإمــالة ، هو أخف الأصوات في النطق ، فهو الحركة المستحبــة عند العرب، كما أنها أخف من الضمة والكسرة ، وأكثر اقتصادا منها في الجهد العضلي.» (2)

والذي يسند هــذا المذهب هو غلبة صوتي النون(*) والميم في معــظم النص لا سيما المقطع الأول(من تسعة أبيات) ، و النتيجة :

البيت	صوت النون	صوت الميم
1	1+3	0
2	1+2	2
3	1+2	3
4	1+1	5
5	1+1	0
6	1+2	0
7	1+1	3
8	1+1	0
9	1+4	1

إن تضــافر الخصائص المعجميــة ، والتركيبيــة ، والفنــية ، والصوتية والإيقاعيــة (مع الاستئناس بإضاءات تاريخية) يوصل إلى سبــر أغوار النص وملامســة دلالتــه العميــقة

*- وضعت نون التنوين في حساب صوت حرف النون ، باعتبار أن علم الأصوات يركز على الصــوت منطــوقا (ومسموعا) لا على الحرف مكتوبا ، وباعتبار ما نسمــع عند إنشاد النص أوقراءتــه ، توافقا مع قواعد علم العروض. كــما أني أحصيت النــون المشــددة بصــوتين ، لا بصــوت واحــد. التزاما بالقواعد الســابقة.

1- الأصــوات اللــغوية ، ص: .209

2- التوجــيه اللــغــوي في قــراءة " عبد الله بن مسعود" ،رســالة ماجستير في عــلوم اللســان ، إعــداد :صالح لحلوحي، إشــراف :د/ بلــقاسم دفــة ، جامــعــة بسكرة 2003- 2004 ، ص : 114 .

التي تؤكـد قـوة حضـور هاجس الوطـن في ذات الشـاعر ، وانعكاس العميـقة التـي تؤكـد قـوة حضـور هاجس الوطـن في ذات الشـاعر ، وانعكاس هـذا الحضـور في تعبيره تاركـا بصماتـــه واضـحة راسخـة ، تمنـــح هـذا النـص صفـــة الخلـــود – فنيا- مـا يعطيـــه مقاومـــة الاستهـــلاك ، ويبقيـــه أثـــرا فنيـا إبـداعيا يتجـــاوز التجـربة الخاصـــة ،(مـع أنـــه ينطلـق منهـا) بقابليتـــه أن يكـــون تجـــربة عامـــة تعبـر عـن الضمـير الجمـــعي للأمـــة ، الشـــيء الذي يجعـل من الشاعر لســانا لأمتـــه قاطبـــة.

1- الوطن الأمـة (الكبير):

لم ينس أبو ماضي – يوما- أنه ينتمي إلى أمة عربية عظيمة من أعظم أمم العالم وجودا وأثرا وتراثا وإسهاما حضاريا، وهي أمة تمتد جغرافيا على رقعة شاسعة تعدل رقعة قارة كاملة تشمل غرب آسيا(جزيرة العرب والخليج العربي والعراق وبلاد الشام والشمال الأفريقي بأكمله)، كما تمتد تاريخيا لآلاف السنين ، فضلا عن كونها تمتد في وعي كل عربي بما شادته من حضارة مجيدة وخلفته من تراث معرفي أغنى الفكر الإنساني وأسهم باقتدار وجدية وريادة في فسيفساء الحضارة الإنسانية جمعاء.

ولهذا يجد القارئ في ديوان الشاعر قصائد كثيرة تتغنى بهذه الأمة ، التي لا ينفك يؤكد ارتباطه بها وانتماءه إليها بفخر واعتزار، كما أنه يبدي مشاركته هذه الأمة أحزانها وأفراحها في تفاعل حار وإيمان قوي ،لا يقل عن تفاعل أبنائها المقيمين فيها وإيمانهم ، بل لعله يتجاوز ذلك أحيانا.

أ- يا رفــاقي :

قيلت القصيدة في حفلة تكريم بعض الشخصيات السياسية السورية في الولايات المتحدة ، في خريف سنة 1952. (1) يقول الشاعر في مقطعها الأول :

جعت والخبز وفير في وطابي -*- والسنا حولي ، وروحي في ضباب
وشربت المـاء عذبا سائغا -*- وكأني لم أذق غير سراب
حيرة ليس لها مثل سوى -*- حيرة الزورق في طاغي العباب
ليس بي داء ، ولكني امرؤ -*- لست في أرضي ولا بين صحابي
مرت الأعوام تتلو بعضها -*- للورى ضحكي،ولي وحدي اكتئابي
كلما استولدت نفسي أملا -*- مدت الدنيا له كف اغتصاب
أفلتت مني حلاوات الرؤى -*- عندما أفلت من كف شبابي
بت لا الإلهام باب مشرع -*- لي ، ولا الأحلام تسري في ركابي

1- الديوان ، ص : 74.

أشتهي الخمــر وكأسي في يدي -*- وأحــس الروح تعــرى في ثيابي
يا رفــاقي حطـموا أقـــــداحكم -*- ليـــــس في دني خمر لانسكاب
جـف ضـرع الشعر عندي وذوى-*- ولكم عاش لمـري واحتــلاب(1)

- ثنائية البنى التركيبية وصراع الذات مع الغربة:

تتجلى في المقطع الأول من النص ظاهرة الثنائيات التقابلية في التركيب على تنوعها اسميا وفعليا ، بحيث يقوم أحد التركيبين – دائما- بنفي أو تعطيل الثاني ، ويتضح ذلك أكثر من خلال هذا التصنيف :

البنـية (1)	قيمتها الدلالية	البنـية (2)	قمتها الدلالية	العـلاقة بينهما	النتيجة
جُعــت	–	والخبز وفير في وطابي	+	تزامن؛ فالثانية جملة حالية متعلقة بالأولى	استمرار الجوع
والسنا حولي	+	وروحي في ضبـــاب	–	تزامنية /حالية محققة بالرابط (و)	استمرار الضبابية
وشربت الماء عذبا	+	لم أذق غـــير سراب	–	تـزامنية- تعطل فعل الشرب بـ (غير)	استمرار العطش
ليـس بي داء	+	لكنني .. لست في أرضي	–	الاستدراك يعطل البنية(1)	مرض الغربة
للورى ضحكي	+	ولي وحـــدي اكتئابي	–	المـفارقــة	الحزن المخفي
استولـدت نفسي أمـلا	+	مـدت الدنيا له كف اغتصـاب	–	الثانية تعطل الأولى	خيبة وألم
أشتهي الخمر	+	وكأسي في يدي	–	تزامنية / حالية محققة بالرابط (و)	فقد القدرة على التمتع
أحس الروح تعرى	–	في ثيـــابي	+	تزامنيــة تداخليــة	عري و برد بفعل الغربة

وخلاصة المعاناة أن الشاعـر يـقر بموتـه الشـعري ، (وهو أبشــع أشكال الموت) مـا دام فـي اغتــرابه عـن الـوطن . والمـوت الشـعـري يتكشـف فـي لفـظ (حطموا) الطلبي ، و(جف) التـقريري الـدال على النضوب الفني، لكـون الإلهام مـرتبطا بالــشعــور بالوطــن.

1- الســابق ، ص : 74 .

(بت لا الإلهام باب مشــرع) والشــاعر بعيــد عنه (لســت في أرضي ولا بين صحابي.)

ومن العلامات الفنيــة التي تؤكد النتيجة السابقة نلاحظ علامــة : غلبــة الفعل الماضــي على المقطع السابق – ورغم أن الفاعلية للشاعر – إلا أنها فاعلية قهرية وليست إرادية فمعظم الأفعال الماضية التي نجد فيها الشاعر فاعلا، نلاحظ أنه يتصف بالفعل، "بمعنى أنه مسند إليه"(*)أي أن الفاعلية من باب الاصطلاح لا غير، ولا يقوم بها إراديا مما يؤكد سلب الإرادة ، أو أن تكون الفاعلية لغير الشاعر،فلا حيلة له فيها ، كالأفعال:(جعتُ ، لستُ، أفلتتْ ، بتُّ ،مرتْ، مدتْ ، جفَّ ، ذوى) ما يؤكد مطلق الاستلاب والقهر وانعدام الحرية.

- التركيب الإســمي وثبات الهوية :

وإذا تحولنا إلى المقطع الثاني من النص لا نلبث أن نلاحظ غلبــة التركيب الإسمي ، يقول الشاعر :

أيــها الســـــائـل عنــي مــن أنــا -*- أنا كالشمــس إلى الشرق انتســابي
لغـــة الفـــولاذ هاضـــت لغـــتي -*- لا يعيش الشــدو في دنيا اصطــخاب
لست أشــكو إن شكا غيري النــوى -*- غربــة الأجــسام ليســـت باغتــراب
أنا كالكـــرمة لــو لم تغتـــــرب -*- ما حــواها الناس خمــرا في الخوابي
أنا كالســـوســن لو لــم ينتــقل -*- لم يتـــوج زهـــره رأس كـــعاب
أنــا فــي نيــويــورك بــالجــسـم -*- وبالروح في الشرق على تلك الهضاب
في ابتسام الفجر،في صمت الدجى -*- في أســـى تشــرين ، في لــوعة آب
أنا في الغـــوطة زهـــر ونـــدى -*- أنا فــي لبـــنان نجـــوى وتصــابي
رب هبـــني لبـــلادي عـــودة -*- وليــكن للغــير في الأخرى ثــوابي(1)

---

*- يقول ابن هشام الأنصاري في باب الفاعل :« وإنما مثلت الفاعل بـ" قام زيــد" و" مات عمــرو" ليعــلم أنه ليس معنى كون الاسم فاعــلا أن مسمــاه أحدث شيئــا ، بل كونه مسنــدا إليه على الــوجه المذكور. ألا ترى أن عمرا لم يحدث المــوت ومع ذلك يسمى فاعلا ؟».عن : شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشــام الأنصاري المصري (المعــروف بحاشيــة : السجاعي) ، تحقيق : عرفان مطــرجي ،مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، د.ت ، ص: .229

1- الديــوان ، ص : 74 ، 75.

يتشكل معمـار البنـاء في هـذا المقطـع على وحـدة متماثلـة هي التركيب الاسمي، الذي يستجيـب للدلالـة العـامة ويلبـي حاجـة الشـاعر فـي تأكيـد عناصـر هويتـه الثابتـة ومعالـم شخصيتــه التي تقاوم الـذوبان في الغربــة وتحفظ معنـى الانتـماء:

ففـي مستهـل المقطـع (أيهـا السـائل عنـي مـن أنـا ؟) نجـد صيغـة الطلـب الممثلـة فـي "النـداء" المشيـر إلى نوع مـن الفخـر عنـد الإجابـة ، واسم (السـائل) اسـم فاعل مشتق من الفعل (سأل) واسـم الفاعل : « هـو الوصـف الـدال علـى الفاعـل، الجـاري علـى حركـات المضـارع وسكـناته »(1)ممـا يبيـن تجـدد السؤال – أو احتمـال تجـدده- ويعقبـه تركيب اسمـي ميزته الثبات (من أنـا) لخـروجه عن معنـى الـزمن . فتـأتي الإجابـة من الشـاعر:(أنـا كالشمس إلى الشرق(*) انتسابي) تركيـبا اسميا يحدد هـوية الشاعـر ويعرف انتماءه بصـفة الخلود والتجـدد والشهـرة والعظـمة (وهي الدلالات الضمنية في" الشمس"). فالشـاعر بهـذا يكون قد قرر هويـتـه :« إنـه عربي المنشـأ والمنـبت وغايتـه أن يرى بـلاد العـرب كلها تمرح مزهـوة بدنـيا الانعتاق من غيـر الأجنبي المغتصـب..ويزهو مفتخرا بانتسـابه هذا: أيهـا السـائل عني .. »(2)

وتتلاحق التراكيب الإسمية تباعا لتفصّـل الإجابـة ؛ وتفصـح عن هـوية الشاعر بدقـة؛(غربـة الأجسام ليست بـاغتراب) ،(أنـا كالكـرمة) ، (أنـا كالسـوسـن)،(أنـا فـي نيويورك بالجـسم وبالروح على تلك الهـضاب)،(في ابتسـام الفجر، في صمـت الدجى ، فـي أسـى تشـرين ، في لـوعة آب) ، (أنا في الغـوطة زهر) ، (أنا فـي لبـنان نجـوى وتصـابي).

والنتيجة أن الشاعر يقرر ثبات انتمـائه وثبات هـويـته الشـرقية العـربية ، وإن كـان يقيم في الغربة(نيويورك) وهو يعايش بوجـدانه وروحه أحـوال هذا الوطـن، فليـس ينقصـه

---

*- نسبـة الشاعر لنفسـه إلـى الشـرق ، جعلني أصنـف القصيـدة ضمن قصـائد "الـوطـن الأم " ، والذي يقـوي ذلك هـو انتسـابه للغة العربيـة أيضا(..هاضت لغتي) ، وذكـره لغوطة دمشـق كـذلك، (ينظر النص في الصفحـة السابقة)هـذا فضـلا عن مناسـبة القصيـدة التي سبقت الإشـارة إليها.

1- شرح قطر الندى وبل الصدى ، ص : 346.

2- إيلـيا أبو ماضـي (باعث الأمل ومفجـر ينـابيع التفاؤل) ، عبد المجيـد الحر ، دار الفكر العربـي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1995 ، ص : 84 .

سـوى العـودة بالجسم يلخصـهـا الطـلب الممـلوء أسى وحـزنا في صيغـة دعاء ينـبئ عن عـجز وضعـف ذريعـين :(رب هبـني لبـلادي عـودة).

أمـا المقطـع الثالث من النـص ، فخطابه يتغـير تماما ليقـدم لنا دلالـة مغايرة ، تنـبئ عنـها علامـة تعبيريـة مختلفة . يقـول فيـه الشـاعر :

أيـها الآتـون مـن ذاك الحـمى -*- يا دعاة الخيـر، يا رمـز الشـباب
كم هشـشـنا وهشـشـتم للمنـى -*- وبكـيـتم وبكـيـنا في مـصاب
و اشتـركنا في جـهاد أو عذاب -*- والتقيـنا في حـديث أو كتـاب
وعرفـتم وعـرفـنا مثـلكم -*- أنمـا الحـق لذي ظـفر وناب
كل أرض نـام عنها أهـلها -*- فهي أرض لاغتـصاب وانتـهاب
إننـي ألمـح في أوجـهـكم -*- دفـقـة النـور على تلك الروابي
وأرى أشبـاح أعوام مـضت -*- في كـفاح ونضـال ووثـاب
وأرى أطـياف عصـر زاهـر -*- طالع كالشـمس من خلف الحجاب
ليـته يسـرع كـي أبـصره -*- قبـل أن أغـدو ترابا في تـراب(1)

<u>- التقابلية الزمنية لـتجاوز الحاضـر المؤلم :</u>

ينقـل المقطع إلينا حالتين متباينـتين وجـدانيا وتعبيريا ؛ وهمـا العـودة للمـاضي بما فيـه من ذكريـات حميـمة، أو بمـا يتضمـنه من عناصـر المشاركـة والتفاعل مع أبنـاء الوطن باعتبـار ذلك دالا على الانتمـاء وممارسـة المواطنـة المفقـودة في الحاضـر ،أو التطلـع إلـى المستـقبـل بمـا يحـوى من آمـال عريـضة وأمنيـات عزيزة يتوق الشـاعر إلـى تحقـيقها. وقد استجابت اللغـة للشـاعر لتأديـة هـذين المدلولين بـأدوات طـبيعـة ، وعلامـات فنـية تـؤكـد حـوار الشـكل مع المضمـون ليتكاملا ، كما يتكامل الصوت مع الصـدى تمـاما.

ويتجلـى لـنا من خلال هـذا المقطـع توظيـف الأفعال لـدلالتي المـاضي من جـهة ، والمستقبل من جـهة مقابلـة. ويمـكن ملاحظـة ذلك تحليـليا في هذا الجدول :

1- الديـوان ، ص : 75 .

الفعل الدال على الماضي	الماضي المشترك	الفعل الدال على المستقبل	التطلع إلى مستقبل زاهر
هشـنا وهشـتم	مشاركة في الفرح	ألـمـح	فعل مضارع يعلم عن الحاضر ومفتوح على المستقبل
بكيتم وبكينا	مشاركة في الحزن	أرى: الذي تكمله صفة (طالع)	استمرار فعل الرؤية ، يجعل الدلالة الأكبر فيه على المستقبل
اشتركنا	تصريح بمطلق المشاركة	يسرع؛ المسبوقة بـ(ليت)	وقوع الفعل (يسرع)في خبر التمني يجعله للمستقبل خالصا
التقينا	اللقاء قرين المشاركة والتفاعل		
وعرفنا وعرفتم	اشتراك في الإدراك = منتهى التفاعلية	أن أغدو	دخول(أن) قصر الفعل على دلالة المستقبل(*) ،فضلا عن تقدم الظرف (قبل) عليه.

وما يمكن استخلاصه من التصنيف السابق هو أن الشاعر تجاوز لحظة الحاضر الأليمة بفعل البعد والاغتراب ولاذ بالماضي لما فيه من عناصر المشاركة لأبناء الأمة إثباتا لانتمائه إليها ، وما يسند ذلك هو إصرار الشاعر على التوكيد بالتكرار(1)؛ فقد كان يكفي لو أنه قال(هشـنا) بدل(هشـنا وهشـتم)ومثلها في(بكيتم وبكينا) و(وعرفنا وعرفتم).

وتحقيقا لرغبة التجاوز هذه ، يقفز الشاعر إلى المستقبل باثا تطلعاته وأمانيه ، متعاليا عن حاضره المؤلم منشغلا بالقادم من الأيام عساها تمنحه ما تعذر حصوله عليه في حاضره البائس في اغترابه وافتقاده للوطن.

إن الشاعر يمارس - لغويا – حيلة التجاوز في آخر مقاطع النص ليخرج منه وقد استعاد تفاؤليته المعهودة ، بعد أن كاد اليأس والموت الشعوري والفني يقضيان عليه تماما ، كما لاحظنا ذلك في المقطع الأول.

---

*- أن حرف مصدر ونصب واستقبال ، وخصت بمعنى الاستقبال : « لأنها تجعل المضارع خالصا للاستقبال ، وكذلك جميع نواصب المضارع تمحضه الاستقبال بعد أن كان يحتمل الحال والاستقبال.» جامع الدروس العربية ، ج 2 ، ص : 289 .

1- ينظر : الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ، باب "مقولة التوكيد في العربية" ص: 334 .

ب- عيد النهـى :

عـرف الشاعر بمشاركتـه القـوية لأبنـاء أمـته العربيـة أفراحـهم وأحـزانهم , وإن كـان ذكـره للبنان كثيرا في شعره , فهو لا يغـفل عن ذكر الشام (أو سورية) وحتى فلسـطـين و بغـــداد(*) أما مصر فـقد أفرد لها قصائد كاملة و ذكرها في غير موضع لـدرجة أنها نافـست لبنان في ديـوان الشاعر , و السبـب في ذلك بين لا يحتاج إلى تفكير عـميق أو بحث حثيث ؛ فقد كانـت مصـر رائـدة النهضـة فـي عصـره و قـبلة العلـم و الأدب , و السباقة إلـى أسباب الحضارة و المدنية الحديثة , كما كانت الأرض التي آوته بعدما جاء إليها , و فيهـا انفتح عقلـه على المعرفة و يده على الرزق , و قريحته على الشعر , وقد عاش فيها أحد عشـر عاما مقدار ما عاش في لبنانَ وطـنِهِ الأم بالضبط .

والملاحظ في شعر أبي ماضي عامة أنه يربطه دائما بوطنه أو أوطان العروبة , حـتى في الأغراض و المواضيع التي تبدو بعيدة عن الشعـر الوطني .. ومن ذلك قصـيدة "عيد النهى" الـتي قالـها في الاحـتفاء بجـريدة (المقتطف) لصاحبها يعـقوب صروف (**)

وَطـْنَان أشــوقُ ما أكـون إليهـما -*- مصــرُ الــتي أحببتُـها و بـلادِي
وَمواطـن الأرواح يعـظــم شـأنها -*- في النفس فوق مـواطنِ الأجـسادِ
حِرصي على حب "الكنـانة" دونه -*- حرصُ السجـينِ على بقـايا الزادِ
بلــد الجـــمال خـــفية و جلـيــة -*- والفن مــن مُسـتــطرف و تـــلادِ
عرضتْ مواكبَها الشعوبُ فلم أجد -*- إلا بـــــمـصرَ نـضــارة الآبـــــادِ

---

*- ورد في ديـوان الشاعر ،زيادة على لبنان ومـدنه وقراه ، ذكـر كثير من الدول والمـدن العربيـة ؛ مثل دمشـق في قصـيـدة " أبو غازي" (الديوان ،ص:331..333) ، وذكـر دار الـسلام أي : بغداد في قصيـدة "عصـر الرشيـد" (ص: 443..446) ،وذكر سـوريا فـي قصيـدة "يـا بـلادي " (ص: 135..138) وفـي قصيــدة " تأمــلات" (ص: 310 ..312) ولــه قصيــدة بعنــوان " تحيــة الشــام" (ص: 80..82) ، وفــي قصيــدة " يـا جـارتي" (ص: 368 ، 369) ذكـر الـشــام . ولــه قصـيدة بعنــوان "فلسـطين"(ص: 398 ، 399). وذكر "الشهباء" ولعلها :حلب ، في "كمنجـة الشوا "(ص: 356 ،357)، وذكر مصر كثيرا ، كما في قصيدة " صاحب القلم" (ص: 343 ، 345) و"بنت القفر"(ص : 206).

**- يعقـوب نقـولا صـروف (1852-1927)؛ أديب وعالم لبنـاني ، ولـد فـي لبنـان ، وتـوفي فـي مـصر، أصـدر مجلة " المقتطـف" ،وانتقل بها إلى مصر . ينظر الديوان ،ص: 134 (هامش1).

كم من دفينٍ في ثراها لم يزل -*- كالحي ذا مِقة وذا أحقادِ
ومشيَّدٍ , للناس يغشونه -*- من كل أرض خشية العبادِ
عاش الجدود و أثلوا ما أثلوا -*- واليوم ينبعثون في الأحفادِ
المسبغين على النوابغ فضلهم -*- كالفجر منبسطا على الأطواد
أبناءَ (*)مصر الناهضين تحية -*- كودادكم إن لم أقل كودادِي
من شاعر كلف بكم و بأرضكم -*- أبدا يوالي فيكم و يعادِي(1)

- معجم النص ، وحضور الوطن في الأشقاء :

يستهل الشاعر قصيدته استهلالا وجدانيا يعبر عن حرارة الأشواق ، مخاطبا "الحمائم" يبثها عواطفه على عادة القدامى ، ويخصصها بنسبتها إلى ضفاف " الوادي" أي ضفاف النيل :

قل للحمائم في ضفاف الوادي -*- يا ليتكن على شغاف فؤادي
لترين كيف تبعثرت أحلامه -*- وجرت به الآلام خيل طراد(2)

ويطيل في هذه المقدمة ما شاء ، ويسترسل فيها ذاكرا ذهاب الصبا والشباب مستذكرا أيامهما في مصر ، وما كان له فيها من ذكريات مع الرفاق في أحضان طبيعتها:

لهفي إذا ورد الرفاق عشية -*- وذكرت أني لست في الرواد
وإذا النخيل تطاولت أظلاله -*- أن لا يكون مظلتي ووسادي
وإذا الكواكب رصعت آفاقه -*- ألا يكون لرعيهن ودادي
ذقت الهوى وعرفته في شطه -*- إن الهوى للمرء كالميلاد

---

*- وردت (أبناء) في الديوان مضمومة . ولعل ذلك خطأ مطبعي ؛ فهي في موقع منادى مضاف ، مما يجعلها واجبة النصب " أبناءَ مصرَ " ، والدليل : أنها منعوتة بمنصوب(الناهضين) . وحتى لو أخِذَتْ على محمل التبعية لما قبلها (وهذا مستبعد) ، فهي بذلك تكون مجرورة لوقوعها بدلا لكلمة " الأحفاد " المجرورة بـ (في).

1- الديوان ، ص : 133.
2- المصدر نفسه ، ص : 132.

ـ معجم النص ؛ أعلى درجات الانتماء ، وحضور الوطن في الأشقاء :

يصرح الشاعر أن مـصر تحتل من نفسه ومحبته مثـلما لـبلاده:

وَطْـنَان أشـــوقُ ما أكـون إليهـما -*- مصـرُ الـتي أحـببتُها و بـلادِي

وهو بهذا يقرن " مصر" ببلاده حبا وتعظيما وإكراما . ويتبين ذلك في لفظ " أشوق" الدال على منتهى المعنى باستعمال صيغة اسم التفضيل ؛« وهو صفة تؤخذ من الفعل لتدل على أن شيئين اشتركا في صفة ، وزاد أحدهما على الآخر فيها»(1) فالاشتراك واقع بين (لبنان ومصر) لكن الزيادة في المعنى ليست لطرف منهما . وإنما لهما معًا على حساب غيرهما. وبهذا يكون الطرفان متساويين (لبنان = مصر) في درجة الشوق الذي يمثل منتهى الحالة الوجدانية عند الشاعر(ما أكون). وقد أضاف الأول (أشوق) إلى الثاني (ما أكون) الذي هو جملة مصدرية ، تحمل معنى الكينونة : أي كائنا ما كان الشوق. وهذا هو المطلق في معنى الشوق. وما يؤكد هذا هو عدم وجود تعلق للمعنى بـ " من" الدالة على معنى المفاضلة ؛ فلم يقل الشاعر – مثلا- : " أشوق ما أكون إليهما من غيرهما " حتى تتم المفاضلة بطرفين يشتركان في المعنى ويزيد الأول على الثاني . وإنما هي مفاضلة في الحالة الشعورية ؛ أي بمعنى : أشد ما يكون شوقي (مهما كان الشيء المتشَوَّق له). وهكذا فالشاعر لم يترك للقارئ مجال مناقشة أو مقارنة بين شوقه لمصر ولبنان وشوقه إلى ما سواهما ، ليعبر بذلك عن أسمى معاني التعلق والولاء والحنين . ثم ينتقل الشاعر إلى تقرير تعميمي يبني حكمه على ما سبق ، ليضيف دلالة جديدة :

وَمواطن الأرواح يعظم شأنها -*- في النفس فوق مواطن الأجسادِ

فقد أضاف المواطن ، وهي إشارة إلى السابق : مصر ولبنان ، إلى الأرواح، إشارة إلى الجوانب الوجدانية والنوازع الشعورية،والمألوف أن الموطن حيز مكاني يحـــــوي

1- جامع الدروس العربية ، ج1 ، ص: 143.

الجـسد (بما فيـه الروح) لنستشف من هذا أن الشاعـر، لم يكـن بمصـر ولا لبنـان(*) حين كتب هذا النص . وبهذا تعبر (مواطن الأرواح) عـن جـهة الميـل الوجـداني والتعـلق العاطفي ، في مقابـل(مواطن الأجساد) الدالـة على حضـور الجسد فيها.

وتؤكـد لفـظة (حرصـي) علـى معنـى الاهتمـام البـالغ ، والانشغـال الشـديد ، بينـما تقـدم لفظـة(حب) المضافـة إلى (الكنانة) الدلالـة صريحـة واضحـة ممـا يثبت الانتمـاء والتعلـق، فكـأن "مصـر" تحـل محـل " لبـنان" تمـاما فـي منـح وجـدان الشـاعر شعور المواطنـة والانتـماء ، حتى إنـه ليظـهر معتـزا مفتخـرا بهـا وبتراثها وجمـالها وبطولاتها ، وهـذا مـن وجـوه التعبيـر عـن الوطـنيـة :

بلـد الجـمال خـفية و جلـيـة -*- والفن مـن مُسـتـطرف و تـلادِ
عرضتْ مواكبَها الشعوبُ فلم أجد -*- إلا بـــمـصرَ نـضـارة الآبـــادِ

فـمصر بلـد الجمـال ، والفـن ، والتاريـخ المجيـد ، وانتصـار الشاعر لهـا لا يختلف البتـة عن انتصاره لوطنـه الأم ، فهـي أيضا وطـن أم . بل إن الشـاعر قـد يغلـو في إظهار حـبه لمصـر والاعتـزاز بها وكأنما هي وطـنه الأم ، ويؤكـد صـلاح عبد الصبـور هذا التـوجـه فـي شعر أبي ماضي:«.. بل نجـده ينفعـل بالأحـداث التي تمـر بهـا مصـر انفعـالا يشـبه مـا يجيـش فـي صـدور من كان يُـطلـق علـيهـم في ذلك الـوقـت غـُلاة الـوطـنـيين»(1)

ويتأكـد الانتـماء لـ"مصـر " أرضـا وشعبا في آخـر المقطـع :

أبـنـاءَ مـصر الناهـضيـن تحـيـة -*- كـودادكم إن لم أقـل كـودادِي
من شاعـر كلـف بكم و بأرضـكم -*- أبـدا يـوالي فـــيكم و يـعـادِي

ففي النـداء (أبنـاء مصـر) المحـذوف الأداة تعبير عن القـرب الـوجـداني رغم البـعد

---

*- ويتأكـد ذلك بعمليـة حسابية بسيطـة ؛ فالقصيدة كُتبت في العيد الخمسين (اليوبيل الذهبي) لمجلة " المقتطف"، يقول الشـاعر(من القصيدة نفسـها) :

ما العيد للخمسيـن بل عيد النـهى -*- وفنـونه ، والخاطـر الـوقـاد.(الديوان ،ص: 134)

و قد تأسست " المقتطـف " في عام 1876 ، فتكون القصيـدة بهـذا قد قيلت في عام 1926 ، والشـاعر خـرج من مصـر إلى أمريكا عام 1911.

في المسافة والمكان ، ولفظ(تحية) الواقع مفعولا مطلقا يحمل في دلالته ووظيفته الإعرابية منتهى التعلق والحب ، ويزيد على ذلك بعامل المشابهة (كودادكم) تمثيلا لشكل (تحيته) وبرهانا على صدقها وحرارتها.

ثم يعلق هذه التحية ويربطها بتركيب من جار ومجرور منعوت (من شاعرٍ..) ليدل على مصدرها ثم يحدد طبيعة هذا المصدر بالنعت (كـَلِفٍ) بصيغة الصفة المشبهة؛(فعل) – المشبهة بالفاعل- وهي صفة يُؤتى بها ؛« للدلالة على معنى قائم بالموصوف على وجه الثبوت ، لا على وجه الحدوث »(1) وبذلك يقرر الشاعر أن "كلفه " (أي تعلق المحب(*)) مرتبط بالإنسان (بِكُم) ليقرر مرة أخرى معنى الانتماء للجماعة البشرية ممثلة في الشعب المصري. وللأرض المصرية - أيضا- (بأرضكم) ليكتمل معنى المواطنة ، التي تعوض و تنوب عن مواطنته في " لبنان".

ولا يقف معنى الولاء عند هذا الحد بل يصل إلى حد الانتصار ؛ فالشاعر- بواسطة الفعل المضارع المعبر على دلالة الاستمرار والدوام – يقرر أنه يحب (في سبيل مصر وأبنائها) من أحبهما في قوله: (يوالي) ، و(يعادي) من يعاديهما . ليصل معنى الانتماء لمصر إلى درجة التضحية وهي أعلى درجات المواطنة والولاء.

- الثنائيات المتقابلة ودلالة الاعتزاز المطلق :

يظهر في المقطع السابق من النص مظهر فني ملفت للانتباه ، يساهم في إبراز دلالات لها صلة وثيقة بمعنى الانتماء للوطن ، وهذا المظهر الفني هو التقابلات اللفظية ، أو الثنائيات المتقابلة التي تحدث المفارقة الفنية ، بجمالية ربط المعنى بنقيضه، مما يحدث منتهى التباين ، لكنه تباين لفظي (أي معجمي) ليس إلا، فهو في السياق تكامل وتأكيد ، باستثناء الثنائية الأولى التي تؤدي معنى التباين الشديد ، في قوله:

وَمواطن الأرواح يعظم شأنها -*- في النفس فوق مواطنِ الأجسادِ

---

*-« كَلِفَ الشيءَ وبه ، يكْلف كلَفًا : أولع به وأحبه فهو كَلِفٌ ..قال الحصري :
كلف بغزال ذي هيف -*- خوف الواشين يشرده ». القاموس الجديد ، ص: 914.
1- جامع الدروس العربية ، ج1 ، ص: 137.

فالتـقابل الواضـح بين : - (مواطن الأرواح) = مصـر ولبنـان

- و(مواطن الأجساد) = أمريكـا (المهـجر)

بـدلالـة الفعل (يعظم)الـذي يؤدي معـنى المفاضلـة بين الطـرفين ، مـع تعلقـه معنـى بدلالـة الظرف المجازي(فـوق) الـذي يؤيد مـدلول المفاضلة- هـذا التقـابل يبـرز جانـبين متباينين فعلا وحقيقـة ، حـد التعارض لفـظيا ودلالـيا وشعـوريا ، بهـذا الشكـل :

	الثنـائيـة التـقابلـيـة	
طرفا الثنـائيـة	الطـرف 1	الطرف 2
اللـفـــظ	مـواطن الأرواح	مـواطن الأجـساد
المـــعـنـى	مـصـــر ولـبـنـان	أمـريكا(المهـجر)
الـشـعـور	سعـادة روحية واندماج	اغتـراب وألـم
المـواطنـة	+	-
النـتيـجـة	منـتـهى الـتـعارض والـتـنـاقض	

أما الثنائيات المتقابلـة لفظـيا ، المتكـاملـة دلاليـا ، فيمكـن تفصيلها وتحليلهـا بواسطـة الجـدول التـالي :

	المجـال	الثنائيات المتقابلـة		الـدلالـة
		الطـرف 1	الطـرف2	
	الجمـال	خـفـيـه	جليـه	منتـهى الجمـال
	الفـن	مسـتطرف(جديد)	تـــلاد (قـديم)	روائع الجمـال
	الإنسان	دفيـن	الحـــي	مطلـق العظـمة
	فضل الإنسـان	الجـدود	الأحـفاد	مطـلق الفضـل
	علاقة الشاعر بأبناء مصر	يـوالـي	يعـادي	مطلـق الانتصار لهم والولاء
النتيـجـة	كل المجالات	تكـامـل وتضـــافر		مـطلـق الـدلالـــة

إن النـتيجـة الحاصلـة من تحليـل فنـية الثنائيات اللفظيـة ، والتـي تمـثل – ظـاهرا- التـقابـل ، هي إشـارة إلى نهايـة الدلالـة وكمـالها ، أي الإحـاطـة بالمعنـى كليا بكل وجـوهــه الممكـنة. ممـا يبـرز إشارات الإعجــاب الكامل ، والاعتـزاز المطلق ، والانتمـاء الفعـلي ، والـولاء الصـادق لـدرجـة التضحيــة ، وهـذا ما يؤكـد حرص الشـاعر علـى إبـراز انتمـائه للعروبـة وأوطـانها بقـوة ، دون أن يلغـي انتماءه لوطـنه الأم " لبنــان" .

وهـذا ما يؤكـده الشاعـر نفســه فـي بعض كتاباتــه النثريــة ، فـي بعـض مـا نقلــه عبد اللطيف شرارة عنــه : « لقد خطـب مـرة فقـال : " ..أنا لم أعش في أدبي لبلد دون بلد ، ولا لجاليـة دون جالية ، بل لأمتـي أجمـع : المهاجر منـهم والمقيم ، بل أنـا أعيش للذين فـي هـذا الزمـان، فمهـمة الأديب هي أن يعمـل في حياتــه لأبعـد مـن مـدى حياتــه ، وأن يعيش للنـاس قبل أن يعيش لذاتــه ، وأحب الناس إليه وأعـزهم عليه ، وأحقـهم منه بالخدمـة هم قومـه ، وأنا لا أرى شرفا أعظم،ولا مجدا أسـنى من أن أجعـل قلبـي وقفا على خـدمـة أمتي وبلادي..» (1)

هـذا هـو أبو مـاضي ، الشاعـر الـذي ظل يغـنى وطـنه ، كمـا يغنــي أمتــه ويذكـرها في أجمـل ما لديــه ؛ أي فـي شعـره وإبــداعــه ، كمــا غـنــى للإنـسانيــة جمـعاء دون أن يفـقد هويتــه وخصوصيتــه، ودعـا لخير الإنـسـان حيثمـا كان .

هـذا هـو أبو ماضـي ، وتلك هـي أوطانــه ؛ لبنـــان وطبيعتــه ، والعروبــة وأوطــانها ، والإنـسانيـة بمعانيها الراقيـة ؛ الخـير والحق والجمـال.

1- إيليـا أبو مـاضي ، عبد اللطيـف شـرارة ، ص: 53 ، 54.

3- الوطن المهـجر:

لم يقتـصر الشاعر في الحديث عن الـوطن على وطـنه لبنان (الصغـير) ،ولا عن الوطـن الأمـة (الكبير) . وإنما تجاوزهما إلى الحديث عن المهـجر الذي قضـى فيه الشطـر الأكبـر مـن حياتـــه ؛ فقـد كـان لا ينفـك يصـف مـدن هـذا المهجـر وقـراه بكثيـر مـن الحمـيمية والإعـجاب، في أغلـب الحـالات؛ « والديـوان يـحفل بالقصـائد التـي شكلت أماكن لتـنـقل الشاعـر، فمـكث فـيها مـدة من الـزمـن وألهـبت خاطـره فجـاشـت نـفسـه فاعـمل فـيها وصـفا وقـصا لذكرياتـه فـيها .مـن ذلـك قـصيـدة "أم الـقرى" و" لـوس أنجلـوس" و"لـيالي بـوسطن" »(1)

وهـذا من شـأنه أن يـثـيـر التسـاؤل حـول علاقـة الشاعر بهـذا المهـجر، أوعلاقتـه بالمـكان في غير أرضـه ، أو بعيـدا عن وطنـيه الصغير والكـبيـر.

أ- لـوس أنـجلـوس:

يتنـاول الشاعر في هـذه القصيـدة مظـاهر طبيعـة لوس أنجلوس المتنوعـة ، والتـي استوقفتـه وأثارت خياله وقريحتـه . يقول فيها :

أنا لستُ في دنيا الخيال ولا الكرى -*- وكأننـــي فيـها لـروعَـة ما أرى
يا قومِ هل هذي حـــقائق أم رؤى -*- وأنا ؟ أصاح أم شـــربت مخدِّرا ؟
لا تعجـبوا من دهشـتي و تحيري -*- وتعجـــبوا إن لـم أكـن متـــــحيرا
كيف التـفتَّ رأيـت آية شـــاعرٍ -*- لبق تعـــمد أن يُجـيـــد ليـبهرا
مسحتْ بإصبعها الحـياةُ جُـفونه -*- فرأى المحـــــاسن,فانتـقى و تَخيرا
ما (لوس أنجلس) سوى أنشـودةٍ -*- أللهُ غـناها فـجُن لـــها الـــورى
خلع الزمـــان شبـابه في أرضها -*- فهو اخضرارٌ في السفوح وفي الذرى
أخذتْ من المدن العواصِمِ مجدَها -*- وجلالها, وحوتْ حلاواتِ القـــرى

1- إيليا أبو ماضي بيـن الشـرق والغـرب ، ص : 138 .
2- الديـوان ، ص: 229.

هي واحة للمتعـــبين , و جــنة -*- للعاشـقين , وملعب لـذوي الـثرا
كـفنت في نيويـورك أحلام الصبا -*- وطويتها , وحســـبتها لن تـنشرا
لكـــنني لـما لمـحت زهـورها -*- شاهـدت أحلامي تطل من الثرى
تتنــفس الهضبات في رأد الضحى-*- تبرا , وفي الآصــال مسكا أذفرا
فالسحر في ضحك الندى مترقرقا -*- كالسحر في رقص الضياء معطرا
قل للألى وصفوا الجنان وأطنبوا -*- ليست جنان الخلد أعجب منظرا
كل الـفـــصول هنا ربيع ضاحك -*- فإذا تـرى شهـرا رأيـت الأشهرا
أن كنت تجهل ما حكايات الهوى -*- فانصت لوشوشة النسيم أذا سرى
وانظر إلى الغـبراء تنبت سندسا -*- وتأمـل الغــدران تجري كوثـرا
واشرب بعـــينيك الجمــال فــإنه -*- خمر بغير يد الهـوى لن تعصرا
حاولت وصـــف جمالها فكأنني -*- ولـد بأنـمله يحـــوش الأبـحرا
واستنجدت روحي الخيال فخانني ,-*- وكبا جــواد فــصاحتي وتعـثرا
أدركت تقصيري وضعفي عندما -*- أبصـــرت ما صنع الإله وصـورا
إني شهـــدت الحسن غير مزيف -*- بئـــس الجــمال مزيـفا ومـزورا
أحببت حتى الشوك في صحرائها -*- وعشـقت حتى نخـــلها المتـكبرا
اللابـــس الورق اليبـيس تنـــسكا -*- والمشمخر إلى الســـماء تجبرا(1)

ومن الظاهر أن الشــاعر يعبر في القصيـدة عن ثلاثـة مضامين رئيســة تتمثل في :

- دهشــته من حسـن طبيعة لوس أجلوس.
- أسـفه على ضيــاع أحــلام الصــبا في نــيويورك.
- عـودة لوصف مظاهر الطبيعة الجميلة في لوس أنجلوس.

ولتحـليل هذا النص رأيــت أن أنـظر في عــلامــة الحــيز ، التي تسيـطر عليــه كلـيا، مما يستـدعي الاعتــناء بها في الدراسـة الفـنية.

1- الديــوان ، ص: 229 ، 230

يطغـى علـى الـنص استعمـال الحيـز بنوعيـــه (المكـاني و الزمـاني) لكـن- وربمـا طبيعة النص- نــجد حضــور الحيز المكاني أغلب وأعم ، وفي ذلك صلــة وطيــدة بموضـوع هـذا البحث (الوطن) ، فـالوطن – فـي البداهـة البسيــطة والمعنـى الـذي يـُحضِره هذا الــدالُّ تلقائيـا – هـو مكـان ، و« يمتلك المــكان فاعليــة جـوهرية فـي تشكيل الشـعر ، وبقـدر مـا تتكاثر عنـاصر المغايرة والجـدة في هـذا المكان ، تزداد ملامح الخصوصيـة والتميـز داخـل القصـيـدة.»(1) ويـتجـلى الحيز بدءا من العنـوان أولِ علامـات الـنـص؛(لـوس أنجـلوس) الـذي يشيــر إلـى إحـدى مـدن الــولايات المتحـدة الأمــريكية، والملاحـظ أن الشـاعر لـم يضــف على هـذا العنــوان أية علامـة أو صـفة أو موقـف معـلن ؛ ما يستـفـزنا في البحث عن مـوقـف من هـذا المكان (الـحيز)،خاصـة عند مـا تستحضر خبرتنـا؛أن الشـاعر فـي الغربــة. ممـا يـدفـــع إلـى قـراءة مـتن النص،المشـــار إليــه بالعنــوان الـذي يغـدو ذا دور تحريكـي تحريضـي.وعـند إجراء مســح سـريع علـى الـنص نجد أن الشاعر يتنـاول **الحيز المــكاني بالانحــياز للطبيعــة** ، ويمكـن تصنـيفه في ثلاثة أنواع :

ـ الحيـز المثال وتبادلــية الأدوار بـين الــواقع والخيــال :

يستـفـتـح الشـاعـر نـصه من أعـلـى مـستـويات الحــلم ؛ إذ يقــرر أن المكـان (لـوس أنجلـوس) قريـن الصـورة الخيالية المــثلى في متخيلـه ووجدانه ، بل ربما يرفــعـه فـوق كل مســتوى كل تخـيل عـلـى اعتــبار تـفضيـل المــكان الــواقـعي(الـموجـود فـعـلا) عـلـى الصورة المتخيلــة (الـتي هــي فـي الأصـل صـورة المثل الأعلـى للمكـان " أي النمــوذج") ، ولهذا فأول حيز يصادفــنا هـو من نوع الفضـاء المجـرد الـذي هو : «الإشــارات والسـمات والكلمــات التي تتكئ في بناء الجملة على معان مجردة.»(2) ويظهـر ذلك في (دنـيا الخيـال) ، فالـدال الأول (دنيـا) حيـز تواضعـنا عليــه ،ونـعرفــه بهـذا التــواضع، لكنـــه سرعــان مـا يتلاشى بإضافتــه إلـى لفـظ (الخيـال) الـذي يتصـف بمـطلق الغـموض، والذاتيـة ،لكن نـدرك

1- المـدينة في الشعر العربي الجـزائري ، ص: 264.

مـنه معـــنى المطلق والنـــموذج رغم مـــا فيـــه من هـلاميـة المعـنى ، وزئبقيـة الدلالـة ، والنتيـــجة الواقـعة بهـذه الإضافـة - وهـي :« نسبـــة بـين اسـمين علـى تقـــدير حـرف الجـر.»(1) - أن الشـاعـر ألـحق (المكان) إلى معـنى مجـرد يـرمز إلى المثال ، لكنـه غير مضبوط ، ولا متـــعارف عليـــه (تحديده متـروك للقارئ) ، مـا يحيلنـا علـى وجـــود حيز (فضاء مثالي)من الممكن تمثيله كالآتي :

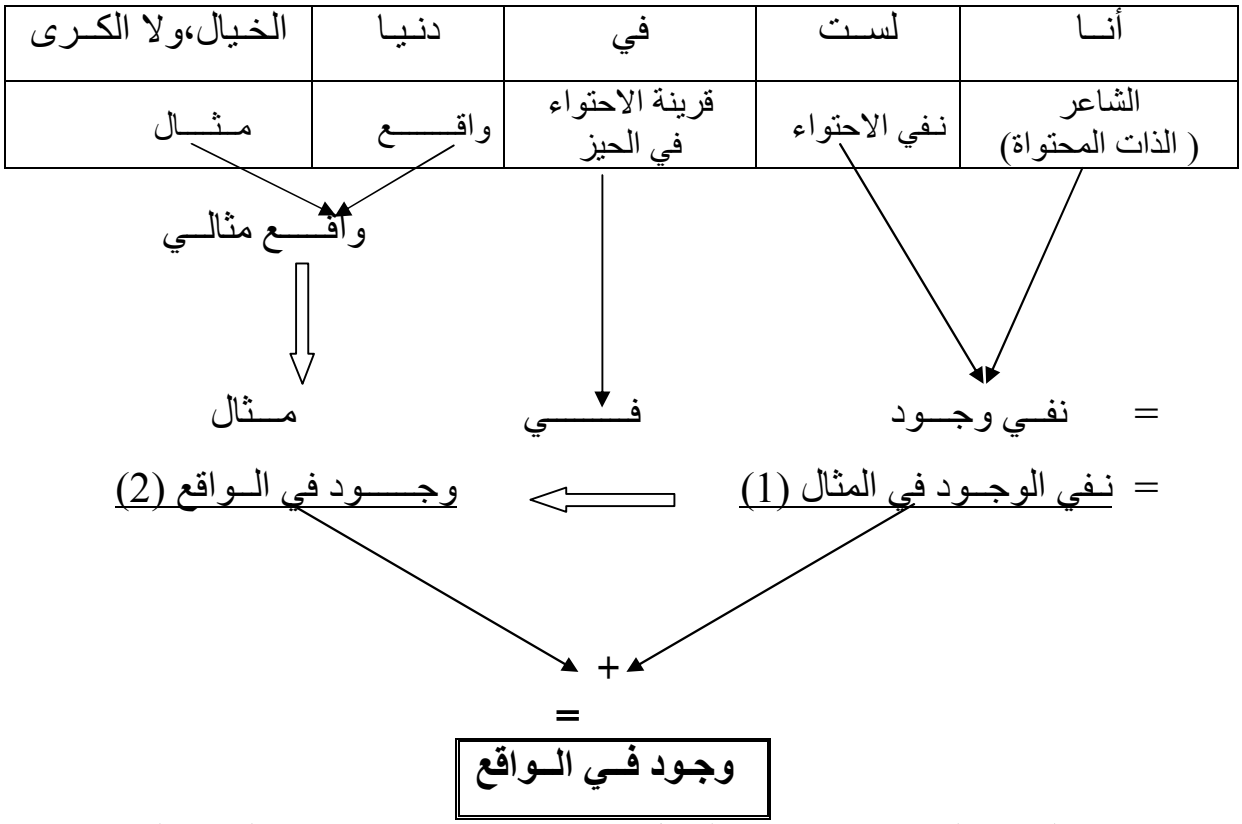

= إن نـفي الشاعر لـوجـوده في دنيا الخيال، هـو إقـراره بوجـوده في الـواقع.لكنـــه إقرار بأسـلـوب نـفي النقيض ممـــا يدل أن النقيـض المنفـي (مثال) قـــاصر ومنقـوص.

= حـــيـز الـــواقـــع **أفـضـل** من الحـــيز المـثالـي !!

والمألوف أن يتـــوق الإنـسان للمـثال لـتـفـوقـــه عـــلى الواقـــع ، وإلا لـــما وجـــدت فكـــرة المثال من أصلـــها ،ولا وجـــد التـمني ، وفـكرة المثال فكرة إنسانية ضاربة في القـــدم في

1- جـامع الدروس الـعربيـة ، ص: 549.

الأساطير والفلسفات، حتى من قـبل (الجمهورية)لأفلاطـون. وقـد ظلـت هاجسا بشـريا مـلحا ، ولعـلها أقوى في أدب الرومانتيكيين : « فلم يكن ذلك الأدب إلا استجـابة لبعض الـنوازع الفـردية للاستعاضـة عن الواقع بمشاعـر وخـواطـر تُعْـوِزُ الواقـع، ولكنها تكمـله وتعـادل بينـه وبيـن الأماني .»(1)

لكـن الشـاعر بنفيـه أن يكون في حـيز خيالي أو حالم ، يفـضل الـواقع ، لأنـه فاق المـثال، أو صـار مماثلا لـه – على الأقـل- والنتيجـة :

بما أن حيز الـواقع **تـفوق** على الحيـز المثالي ⟸ **فقد صـار حيـز الواقع مـثالا**.

وعـجز البيت يؤكـد صحـة ذلك خاصـة وأنـه مربوط بالصـدر بحرف العطف (و) تثبـيتا وتوكيدا:

وكـــــــــــ	ـــــــأنـني	فـيها (دنيا الخيال..)	لـــروعة مـا أرى
أداة مشابهة	حيز واقـع =	حيـز مـثـال :	دليل ومبرر مشابهة

ويتأكـد ذلك مـرة أخرى في البيت المـوالـي:

يا قوم هل	هـــــذي	حقائق	أم	رؤى	وأنا أصاح؟	أم	شـربت مخدرا؟
	لوس أنجلوس	واقـع	=	مـثـال	واقـع	=	غير الـواقع

أسـلوب الطلـب (ممـثلا فـي النـداء والاستـفهام يؤكـد منتـهى التداوليـة والتبـادلية بحيـث يتطابـق الأول بالـثاني .)

1-الـرومانـتيكية ، محمـد غنيـمي هـلال ، دار العـودة ، بيروت ، لبـنـان ، ط 6 ،1981 . ص: 53.

حقائق (1)	أم	رؤى(2)
واقع (أ)	=	مثال(ب)

وهـكذا يصبـح : (1) = (ب) و : (2) = (أ).

والنتيـجة نفســها مع عجـز البيت.

وبـهذا يكون الشـاعر قـد حـقق قمـة التماثلية بين طـرفين يشـكلان – في المألوف والمنـطق- قمـة التعارض والتباين. ولكي نكتشـف سـر هـذا القلب ، نعمـد إلـى تتبع أنـواع الحـيز المكاني (خاصة) ودلالاتـه :

الحـيز (A)	صـفـتـه(B)	معنـاه وقيـمتـه(C)
في دنيا الخيال ولا الكــرى	حــيــز ذهــني (حلم)	نفيـه لقصـوره(حيز عاجز)
لوس أنجلوس	حيـز مكاني حقيقي (مـدينـة)	مثال = سعادة وجمال فني ، والقرينة "أنشـودة"
أرضها	حيز حقيقي منسوب للمدينة	أرض جـديدة نموذجية بشباب الزمان
الـزمان	حيز زماني	
السفوح ..الذرى	حيز حقيقي له علاقة بالجبال	مثالي لاخضـراره.
واحــة	مكان يحيل على الصحراء	الظل ، الماء ، الثمار = الراحة و النجــاة
جـنــة	حيز مكــاني	مثاليـة الزمان والمكــان = السعادة المطلقــة
ملعــب	حيـز مكـاني برؤية فـنـية (بمنطق المشابهـة)	السعــادة والفرح
نيويـورك	حيز مكاني حقيقي (إقامـة الشاعر)	مـوت المعاني والتحجـر (كفنت أحلام الصبا)

إن القـراءة السريعـة لهـذا الجـدول ، تسلـمـنا إلى نــتائج مهـمة تتيـح لـنا تقريب صـورة

الوطــن (في شكل من أشكالــه) في مخـيلة ووجـدان أبي ماضي ، من أهمــها :

- أن المـكان الذي شكّـل مـوضوع النص كان يمثل مظـاهر الحيز الطبيعي (ينظـر(A) في الجدول السابق)، بمعنــى أن الشاعـر لم يعرض لنـا – وهـو يحدثنا عن "لـوس أنجــلوس"- أي شـيء فـي خصــوصية تلـك المدينـة الأمريكيـة ، حتـى نعـرف معـالم مـدينتها ؛ مـن مبـان ومصانع وطــرق ومـرافق تمثل إنجازات الإنسـان ، ومـا أضافـه للطبيعـة ، إنمـا وصـف لنـا "لــوس أنجــلوس" الطبيــعة ، ولـولا عنــوان القصيــدة ، وذكـر اســم المديــنة ، ومدينـة نــيويورك في متــن النـص، لحسبنـا (وربما جزمنا) أن الشاعر يصـف لبنان ، وهـذه نتـيجـة جـد مهمـة ، فالوطــن المهجــر بــهذا المنـظور ، هــو صورة تذكـر الشـاعر بالوطــن الأم؛« فـوطنــه لا ينفــــك تلـك الصــورة الجمـيلــة التـي أبدعــها الله ، وزيــن بهــا الكــون ..قطعــة رائــعة ظلــت تعيــش فـي مخيــلة الشــاعر تســابق قلمــه لتحــضر فـي كـل مــوضوع يتــناوله »(1)

- أن الأمكـنة الطبيـعة التي هي بذاتها الصــــور الجزئية المكونـة لفـكرة الفضـاء الكلـي ، أي المكـونة للحيز المتناول في مـوضوع النص ، يشــكل في صــوره معنـى النمــوذج ؛ أي أن كل مظهـر طبيعـي عــرض له الشاعــــر كـان يمثل الصـورة المطــلقة أو درجـة الكمـال ، ولو نظـرنا في عنـصر القـيمـة في الجدول السابـق "المرمـوز لـه بـ(C) " لـتَـأكــدَ لنـا هـذا الحـكم . وبناء على هـذين الحكميــن ، وباعـتبار أن قـراءة فــكرة الحـيز فـي النص توصلنا إلى : أن العلاقـة بين (A) و (C) هي علاقـة دال بمدلـول ، نخـلص إلى النتيجــة التاليــة :

- إن كل مكان يمتاز بجمال طــبيعي ما هــو إلا صــورة للبــنان (*)

- إن طبـيعة لبنان هي المثال ، والنمــــوذج وهـي الصورة المطلــقة والأصل ، ومـا ســواها فـــرع لها أو تقلـيد.

---

*- يمكـن مراجعـة ذلك في مبـحث : الوطــن الأم ، ص : 66 وما بعـدها.

1- إيليا أبو ماضي بين الشـرق والغـرب ، ص: 230 .

والخلاصة النهائية هي أن الشاعر كان كثيرا ما يصف ويذكر مدن المهجر وقراه، لما فيها من عناصر اشتراك تربطها بوطنه لبنان ، ممثلة في مظاهر الطبيعة لا غير، ويحقق سالم المعوش هذه الفرضية، معلقا على قصيدة " لوس أنجلوس "بالذات بقوله : « ومن يقرأ القصيدة حتى نهايتها يقع على أوصاف لمواكب الجمال في تلك المدينة بحيث يعتقد أن ما يقوله الشاعر عن حسن لبنان هو ذاته ما يقوله عن حسن لوس أنجلوس »(1) فالشاعر لا ينصرف إلى وصف مدينة غربية ، وإنما ينتصر للطبيعة التي تحيله دائما على لبنان.

- الحيز القاهر، ونفور من المدنية:

في أثناء اندماج الشاعر في طبيعة " لوس أنجلوس" وسفره عبر الخيال في وصفها وتغنيه بها ، نجده يعرض لمدينة " نيويورك " وهي حيز مكاني مثّل مكان إقامة الشاعر وعمله لسنوات طويلة :

كفنت في نيويورك أحلام الصبا -*- وطويتها , وحسبتها لن تنشرا

ليعرض لنا ماضيا مغايرا مرتبطا بالحيز السالب الذي ينقل هذه السلبية إلى وجدانه، ويضفيها على ذاته. وبالعودة إلى تصنيف الحيز في الجدول السابق نلاحظ :

نيويورك (1)	حيز مكاني حقيقي (إقامة الشاعر)	موت المعاني والتحجر (كفنت أحلام الصبا)

- أن إقامة الشاعر في المدنية (بمعناها الحضاري : صناعة ، بنايات شاهقة ، آلات ، مرافق المدنية المختلفة) وهي مقابل الطبيعة هنا ، تمثل له معاني الشيخوخة والعجز(ضياع أحلام الصبا) وعدم القدرة على الحلم (الجمود والتحجر)على خلاف طبيعة الرومانتيكي الذي:« يضيق ذرعا بعالم الحقيقة ، فيطلق لنفسه العنان في أحلام يعوض بها ما فقده في عالم الناس من حوله ، ووجد في هذا الانطلاق إشباعا لآماله

1- السابق ، ص: 282 .

غــير المـحدودة ، حتى إنـه لا يريـد أن يهبـط من ذلك العالم الذي خلـقـه لنفسـه ، ولو تحققت آمالـه التي يحلم بها ، إذ كان يجد في حلمـه نفسـه لذة لا يريـد أن يتخلى عنها »(1) وبالتالي المـوت الشـعوري والإنساني لا المـوت البيـولوجي المـادي (كفنـت) ؛الشـيء الذي يسلــمه إلى اليــأس المــطبِق (وحسبـها لن تنــشرا) ، كل ذلك في حيـز (نيويورك). لكن مـا الذي أحـدث هـذه الرجعــة من الحاضر إلى الماضي (باعتبار الحيز الزماني) ومن الحـيز المثال إلى الحـيز القاهـر (باعتبار المكان) ؟

إن مـا أثـار المقارنــة هو الغـربــة ؛ إذ أن جمـال المكـان أو مثاليــته ممثلــة فـي جمـال الطبيعة، إحالــة على الوطـن ، واقتـرابه منـه يجعل الشـاعر يتعالى عن شعـور الغربـة – ولو مـؤقتا- ما دام يعيـش في الحيز المثال ؛ الذي يعـدل فكرة الوطــن أو يمنحه الشعور بما يشبـه حضوره في الوطن. وعلى هـذا الأساس نستطيع الخلوص إلـى نتيجـة كبـرى يمكـن تعمــيمها في شعــر أبي ماضي الذي يتــناول الطبيعـة بوصف عام ؛

- فهـو شعـر يمثل شـكلا من أشكال مقاومـة الغربــة ؛ لأنــه مقاومـة للنسيان ؛ لأن حضــور جمـال الطبيعــة فـي الحــواس والشعــور ، هـو حضــور لطبيعــة لبنـان ولـو فـي الشــعـور والذاكرة.

- إن أبـا ماضـي لـم يكن راضيا علـى إقامتــه فـي المـدينة ، ولـولا أن دوافع العمـل وحاجـات التحضـر ، ومطامحــه الفكريـة والماديـة ألزمتــه لاختــار الإقامــة (فـي مهجره) فـي أريـاف تحمـل طبيــعتها مظاهــر طبيعـة لـبنان. فالمديــنة تزيد من شعـوره بالاغــتراب والقيـد ،أي أنــها تمثــل اغــترابا فـي اغتــراب ؛ فـالأول اغتـراب الرومانسـي (بعـد عـن الطبيعــة)، فالطبيعــة هـي المعبـر الأول عن معـاني الحريــة والشعـور الصـادق؛ « ولا شك أن لرهـف الحـس و شبوب العاطـفـة عنـد الرومانتيكيين أثرا عظيما فـي هــيامهم بالطــبيعــة فـي جمــيع مظاهــرها »(2) والثاني اغتراب حـقيقي (بعـد عـن الــوطن).

1-الرومانتيكيـة ، ص :73.
2- المرجـع نفســه ، ص: 171.

الحيـز الباعث وعطاء سخـي يعـيـد الأمـل :

يستـرسل الـشاعـر وصـف محـاسـن طـبيعـة " لـوس أنجلـوس" ولا يذكـر مـن مظـاهر المدينـة فيها إلا القصـور المنثورة في جبالها الخضـراء ذكـرا عابرا لا تفصيـل فيـه ولا خصـوصيـة ، وإنمـا لا يختصـها بالذكـر لأنهـا ضمـن المشهد العـام للطبيعـة :

وكـأنما تـلك القصـور على الـربى -*- عـقـد لغانـيـة هـوى وتبعـثـرا

لمـا تـراءت من بعيـد خلـتـها -*- سفنـا وخلت الأرض بحرا أخضرا(1)

لكـن الملفـت في عنـصر الحيـز هـذه المـرة ، هـو أن الشـاعر يسعى إلـى تكميل صـورة الحيز المثال بذكـر عنـاصر إضافيـة تكمـل الصـورة العامـة ، بعـد تعريـج سريـع علـى الحيـز القاهـر الذي مثل لـه معـاني المـوت ، ويضيـف علـى هـذا فعالـية الحـيز المـثال ودوره ، ليـقدم لنـا تصـورا كاملا لفكـرة الحيـز ، لا سيمـا المكاني منـه :

الحـيز (A)	صـفـته(B)	معنـاه وقيـمتـه(C)
زهـورها	حيز (نـبات) في الحيز الموضوع (..هـا)	الجمـال والسحـر والصفاء والشاعرية والأحلام ..
الثـرى	التربـة (مكـان الإنـبات والخصب)	بعث الأحلام الدفيـنة،وإعادته للحياة
الهضبـات	حيز مكاني مرتبط بالمدينة(الموضوع)	تقاطع جمـال الحيـز المكاني بالزماني(قوة الصباح + شاعرية المساء) = مثاليـة مطلـقة في الحيز بمعناه المطلق مكانا وزمانا
الضحـى	حيز زمـاني (صباح) = النشاط والانطلاق والشباب	
الآصال(جمـع:أصيل)	حيز زمـاني (المساء) = الشاعـرية والتأمـل	
النـدى الضيـاء	حيـز مكاني حيـز ذو طبيعـة انتشارية في المكان والزمـان	يضـفي جمالية على المكان يضفي جمالية على المكان والزمان

1- الديـوان ، ص: 230 .

الفصـول ربـيـع	حيـز زمـاني حيـز زمــاني	صفــة جماليــة مطلقة للمكان
الغـدران	حيـز مكاني مائي	كوثـر= مثال الحيـز المائي
الخيال	حيــز مجــازي ذهــني	مـثال : عــودة إلى فاتحــة النص

والنتيـجة الحاصـلة أن الحيــز المثال يتحـول إلى حيـز فعـال وديناميكي ، فمثاليتــه ليسـت مثاليــة مجــردة ، أي مثاليــة علـى مســتوى الذهـن فقـط ، بـل إنهـا مثاليــة منتِجــة ومثـمـرة ، وبــذلك يصبح الملفت في المقطـع الأخيـر هـو عنـصر الحيـز الباعـث :

واشرب بعــينيك الجمــال فــإنه -*- خمر بغير يد الهـوى لن تعصرا
حاولت وصـــف جمالها فكأنني -*- ولـد بأنـمـله يحـــوش الأبـحرا
واستنجدت روحي الخيال فخانني ,-*- وكبا جــواد فــصاحتي وتعـثرا
أدركت تقصيري وضعفي عندما -*- أبصـــرت ما صنع الإله وصـورا
إني شهـــدت الحسن غير مزيف -*- بئــس الجــمال مزيـفا ومـزورا

إن مطلقـيــة المثاليـة في الحيـز تصــل بالشـــاعر إلى حالـة من الاستســلام الجمـيل، لأنــه استســـلام لانتصـــار جمــال الطبيــعة وكمــال صـورتها ، فـإذا الشـاعـــر أمـامـــها يتضـاءل، حتـى يصبــح ولــدا مبهـورا مليــئا بالدهـشــة والإعجـــاب ، فـلا شاعريتــه ولا فصاحتــه تلهمـانه ، أمام شاعـريـة الطـبيعـة وقـدرة إفـصاحها ، ولا خيــاله الخصـب الثرى يــسعفـــه فـيكـون قـادرا علـى استيــعاب هـذه الصـور، فيعــود إلـى حيــز الــواقع لأنـــه أقـــوى مـن كـل خيـــال (مثـال) ليصـــل أخيـــرا إلـــى حالـــة مـن الإيمـــان الصـــوفي الحـالم،المـدرك لضـــآلة الإنســان أمام قـــدرة الخـالق العــظيم :

أدركـت تقصيري وضعفي عندما -*- أبصـــرت ما صنع الإله وصـورا

1- الديــوان ، ص: 230 .

وهكذا تبلغ فاعليـة الحـيز المثال درجتـها القصــوى ؛إذ أنــه يمتلك قـدرة الإقنــاع ممــا يدفعه إلى الإيمــان ، والإيمان مطلق الطمـأنينة ، خاصـة إن كان عـن تأمل وإدراك وتـدبر ونظـر فيما صـنع الخالـق وأبـدع.

كمـا يمتـلك الحيــز المـثال القـدرة علـى تـوفير حاجـة لا غنـى للشـاعر عنـها ، ولا الإنـسان ، إنــه عنصــر الانتشـاء بالجـمال الطبيعي الســاحر:

إني شهــدت الحسن غير مزيف -*- بئــس الجــمال مزيفا ومـزورا

وأخـيرا ، يتيـح الحـيز المثال (وهـو صـور الطبيـعة كما برأها الله) عنــصرا آخر يمـثـل صـمـيم هــوية الشـاعر وحيـاتــه ؛ إنــه قمــة العـطاء والإلـهام ؛ إنــه الشــعر والإبــداع والفـن الخالـص :

أنا شاعـر ما لاح طـيف ملاحــة -*- إلا وهــلـل للجـــمــال وكــبــرا

والشــعـر(الصـورة المـثــلـى للشعر) يبـعـث على منـتهى الحـــب ، والصبـر والتـفاؤل :

وزعـت نفســي في النفـوس محبـة -*- لا شــاكيــا ألــما ،ولا متــضــجــرا

ومشــيـت في الدنــيا بقـلب يابـس -*- حتـى لقيـت أحبتــي فاخـضوضرا

وذلك - بـدوره- يبعــث على معــايشــة الآخــرين ، وتجــدد إنســانية الإنــسان، واسترجاع معنى وجــوده :

قد كنـت أحســبني كــيانا ضائعا -*- فإذا أنا شـــــخص يعـيش مكررا

وهــذا يبين أن الإنـسان عليــه أن يعطي متمــثلا بالطــبيعـة :

فكأننـي ماء الغمــام إذا انــطــوى -*- في الأرض ردتــه نبــاتـا مثـمــرا

ما أكرم الأشجار في هـذا الحـمى -*- فـيها لقاصـده البشـاشــة والـقِـرَى(1)*

والخلاصـة التي يمكن الانتهاء إليها هي أن الشاعر قـد صـور لنـا الحيز فـي مظهرين رئيسين همــا :

---

*- الـقرى : طعــام الضيــف.

1- الديــوان ، ص: 230.

- الحـيز المثـال الـذي تَـجَسّـد فـي الواقـع فـي سـحـر الطـبـيعة ؛ حتـى جعـل الشـاعر (صـاحب الخيـال) يقتنـع بـالواقع ويفضلـه (وهـذا يمثـل المرحلـة 1 فـي النـص) ويكمـله الحديث عن قدرة البعـث والتجـديد في هذا الحيـز وفاعليـته في العـطاء والبث (ويتمـثـل في المرحلة3 في النص).

- الحيـز القـاهر (الذي يمثل المرحلـة 2 من النص).

ومما تجدر الإشـارة إليه هـو أن الشاعـر قـد اختـار الترتيب الأمـثل لعنـاصر الحـيز؛ فقد افتتح بالحـيز المثال (الممثل لِحاضر سعيد) ، ثم ارتجـع إلى الماضـي ليعرض لـنا عنصر الحيز القاهـر القاتل ، ثم عـاد إلـى الحاضر ليقـدم - مستـكمـلا عنصر الحيـز المثال – قـدرة البعث والعطاء والتجديد.

على هذا نستطـيع أن نفهم سر اندماج أبـي ماضـي فـي الوطن المهـجر ، الذي كـان كثيـرا ما يصـور مـدنه وقـراه ، بل ويجعـل أسمـاءها عنـاوين لقصائـده الكثيرة التـي تناولـت هـذه المـواطن ، بـأن يمـثـل حالـة عكسيـة هـي ؛ الـلا انـدماج . مـا يـؤكـد قـوة شعـوره بالغـربـة شعـورا مستمـرا،وحـالـة اللا اندمـاج تتكـشف حين يحيد عن وصـف المدينـة بذاتهـا إلـى وصـف طبـيعتها (والطبيعـة تمثل عنصر الالتقاء بين هـذه المـدن ولبنـان) تنفيـسا لهـذه الغـربة وطلبـا للسلـوان فـي هـذه الطـبيعـة، وانحيـازا لـها أمـام عنـاصر المدنيـة التي لا تـلبي شاعـريتـه ولا تـشبع – أبـدا - حنينـه إلى الـوطن.

ب – ضـرة جلـق(*) :

كان الشـاعر كثير التنـقل بيـن مـدن المهجـر لِمـا عُـرف عنـه من نشـاط دؤوب ، ولاتصالـه الـدائم بالمهـاجرين العـرب ، ولمشـاركتهم فـي مختلـف نشـاطاتهم كالاحتفـالات ومـراسم التأبين وتكـريم بعض الشخصيـات السياسيـة أو الأدبيـة ، بل إن هـذا النشـاط كـان يستدعيـه أن يسافر حتـى خـارج الولايات المتحـدة ، فينتقـل إلى كنـدا – مثلا- لتفعيـل أنشـطة المهاجـريـن ، وقصيـدته (ضـرة جلـق) نمـوذج من ذلك ، فـقد قالـها في الحفلـة

*- جلـق اسم علم لـ "دمـشق" ويمكن أن يـطلـق على سوريا عامـة ، أو الشـام.

التكريمية التي أقامتهـا الجاليـة على شـرفـه في "مونتريال ". يقـول فيـها :

لا تقلقي يومَ النـوى ، أو فاقـلقي -*- يا نفــسُ كل تجـمـعٍ لـتـفرّقِ
الله قـدّر أن تمـسَّ يــد الأسـى -*- أرواحُـنا كيـما تَـرِق وترتـقِي
أو في على الشهبِ الدجى فتألقت -*- لـولا اعــتـكارُ اللـيل لم تـتألقِ
و الفحمُ ليس يضيء إن لم يضطرمْ-*- والنـدّ ليس يضوعُ إن لـم يُحْرَقِ
لا أضربُ الأمثال مَــدْحًا للنوى -*- ليــت الفراق و يومَـه لم يُخـلقِ
مَا في الوداع سِوى تلـعْثم ألسُنٍ -*- وذهـولُ أرواحٍ ،وهــم مطبـق
عَنـّفتُ قــلبي حين طال خـفوقه -*- فأجــاب : بل لُـمْـني إذا لم أخـفقِ

--*

أنا طائر قد كان يَمْرح في الربى -*- و على ضِفافِ الجدول المتـرقرقِ
فطوى الفضاءُ مُروجَه و فضاءه -*- ليُزجَّ في قـفـصِ الحديـد الضيق
لله مونـتــريالـكم ذات الحـلـى -*- و مديـنـة الطـود الأشـــم الأبـلق
كم وقـفةٍلي عند شاطئ نهـرها-*- لا أسـتقي مـنه , وروحي تستـقي
متعـلما منه التواضـــع و الندى -*- والصفح عن عبث الجهول الأحمق
ضيعت عند الواعظين سـعادتي -*- ووجـدتها في واعــظ لم ينــطـق
مــلء المــدائن و القـرى آلاؤه -*- وهـباته, ويعـيش عيش المُمْــلقِ
لولاه لم يخـضر قــاع مجـدب -*- لـولاكم شجـر المــنى لم يـورقِ
عـرضت محاسـنها الحياة عليكم-*- فـأخــذتُمُ بأحــــبـها والأليــقِ
أنا منـكم في روضــة مِعْـطارة -*- من مـونق فيها اللـحاظ لـمـونقِ
ألعطر يعبق من جمـيع ورودها -*- ما أن مررت بزهــــرة لم تعــبق
لله مونتــــريالكـم وجــــلالـها -*- هي رومــة الصغرى و ضرة جلق
رقت علي نجومها و تواضعت -*- حتى لكــدت أحســـها في مفرقي
فكـــأنما هـــي أنتـم و كأنـــما-*- أرواحـــكم من نــورها المـــتدفق

رجع الشــباب إلي حين هبطــتها -*- واليــوم أخرج من شــبابي الريق
سأطــير عنها في غــد بحــشاشة -*- مكلــومة , وبــناظــر مغرورق
ويغــيب عني طــودها و قــبابها -*- وقصورها خــلف الفضاء الأزرق
و تظل صورتــها تلوح لخاطري-*- بعض الرؤى سلوى وإن لم تصدق
لو تعــدل الدنــيا بنا لم ينــتــثر -*- شــمل نظــمناه و لم نــتــفرق(1)

- سيميائيــة العنــوان ومفــارقــة الإسقــاط :

يقــوم العنــوان في القصيــدة على بنيــة التركيب الإسمــي ، المكــون أساسا من ثلاثــة عناصر حــذف أحــدها ، وهو يظهر عــلى هذا الشــكل :

.....	ضــــرة	جــلــــق
مبــتدأ محذوف	خــــبــر	مضــاف إليــه

لكــن العنــوان يحمــل دلالــة أبعــد من ظــاهر لــفظــه ، فقــدرة التكثيــف سمــة غالبــة في العنــاوين الشعــرية ، فضــلا عن أدائــها لوظائف أخرى.وقــراءة متــن النص تــؤكــد غيــابا لفظيــا لبعض العنــاصر ، رغم حضــوره دلاليا :

لله مونــتــريالــكم ذات الحــلى -*- ومديــنــة الطــود الأشــــم الأبلق.

وتبــدو بنية النــص العميقــة بــهــذا الشــكل :

لفظــيا	هــذه	ضــــرة	جــلــــق
دلالــيا	مــونتريال	ضــــرة	جــلــــق
تركيبــيا	مبــتدأ محذوف	خــــبــر	مضــاف إليــه
وظيفيا ومنــطقيا	موضوع يــراد كشــفة	محمــول منســوب يحــدد ماهية الموضوع	منسوب إليــه يحدد المحمول ويعيّــنــه
انزيــاحيا	مشــــبــه	مــشــبــه بــه	

1- الديــوان ، ص: 267.

والعنوان بهـذا التحليـل يوصلنـا إلى عــدد من الأحكام :

- إن اعتماد التركيب الإسمى من غير أساليــب الطلــب ، يفـضي إلـى الدلالــة التقريرية ؛ فالعلاقـة بين الطـرفين الرئيسيين لهذا العنـوان(المبتـدأ والخبـر)علاقــة تقريرية تثبيتية.

- إن المهجر (مـونتريال) صار المـعادل المنافس للوطـن (جلـق) بدلالـة (ضـرة) والضـرة هي :« إحـدى زوجـتي الرجل »(1) وتنـشأ دلالـة المنـافسـة من بُعـد الحـسد الموجـود بين الضـرائر ، لـدرجــة أن كـل متحاسدَيْــن لا بــد أن يكــونا متنافسَيــْن ، حتــى قيـل فــي المتحاسِـدِين :« بيـنهم داء الضــرائر أي الحســد » (2) . والمنافـسة هنـا هـي محبة الشاعر لهمـا ، ممـا يجعلــهما متماثلين (ينظـر الجـدول السابق : انزياحيا = علاقــة المشــابهــة) ، وهنا تتحـقق المفارقـة المـدهشـة ؛ إذ يصبـح المكـان المـمثل لشعــور الغربــة، هــو نفســه المكــان الذي يخلـص وينـقذ من هـذا الـشعور المؤلم.

- إن وطـن المهجــر لا يمكـن تعريـفه إلا بالوطـن الأم ؛ مـا يـكشف تبـعية الأول للثــاني ، فالأول فـرع يتبع الثانـي وهـو الأصــل.

- إن المـشابهـة بين الوطنـين قائمـة بفعل حب الشـاعر لكليهمـا ، لكــن السبـب غائب غير معلـن ؛ فإذا كان حـب (جلـق) مبـررا بالانتـماء ، فمـا تبرير مشابهــة المهجــر به ؟

- إن حضــور المكان (الحيـز) في العنـوان لدليل قاطع على حمــيمية المكــان، وقــدرته في تحريك وجـدان الشاعـر ؛« ويكفي المكان قيـمة وفخــرا أن يكون عنوانـا لقصيــدة ، بل قـد يكون موضــوع القصيــدة لا يخرج عن الحيز المكاني.» (3) ؛ خاصـة في عملية ربط مكانين بأسـلـوب المـشابهـة

إن مــتن النــص يقـدم لنـا الإجــابة ؛ وهــي تـتلخص – بكـل تبسيــط – فـي جمــال الطبيعــة وروعتـها. وهـذا مــا يتنــاوله عنــصر " الحـيز المـكاني وإثارة الشعــور" لاحقـا ضمـن

1- القامـوس الجديـد ، ص : 585 .
2- المـرجع نفســه ، ص: .585
3- سيمـيائية العنــوان في شـعر مصـطفى الغماري ،رسـالـة ماجستــير في الأدب الجـزائري لـ : عبد القـادر رحيم ، إشـراف أ.د / صالـح مفقـودة ، جامعــة بسكـرة،2005-2006 ، ص:107.

دراسـة هـذا النص.

أسلـوب الطلب ؛ ألم الفـراق ونـزوع إلى الحكمـة :

يبـدأ الشـاعر قصيـدته من آخـر الحـدث ، أي بعـد أن تـم اللقـاء ، وحانـت لحظـة الفـراق ، غيـر مـراع عنـصر التـرتيب الزمـني ، لحـاجة نفسـية ملحـة ، هـي شعـوره بفقـد المـكان المـثال الذي يـؤدي وظيـفة التعويـض النفسي عن الـوطن ولـو شعـوريا ، ولفتـرة مؤقتـة.ويصـور هـذا الموقف الإنـساني (فـراق المكان العزيز) بكثير من الحـرارة والحميمية والتفاعل الوجـداني ؛ الأمـر الـذي يبيـن حمـيمية العلاقـة ويكـشـف عمق المعاناة:

أسلوب الطلب	نـوعـــه	دلالتـه
لا تقـلقـي	أسلـوب نهـي	التماس للسلوى والعزاء
فـاقـلقـي	أسلـوب أمـر	تصبـر ومقاومـة واقتناع
يا نـفـس	أسلـوب نـداء	مـواساة وتعـزية
لـيـت	أسلـوب تمـن	رغبـة مستحيلة
لـُمـْنِي(على لسان قلب الشاعر)	أسلـوب أمـر	تبـريـر ودفـاع

ما يمكـن ملاحظتـه أن الشاعـر في موقف تنـازع شديد بينـه وبين ذاتـه المـعذبـة بفعل الفراق ، الذي نقلـه من الفـراق بمعنـاه الجزئي المحـدد والمؤقت(وهو فراق مونتريـال) إلـى الفـراق بمعنـاه الفكـري الفلسفي الإنسـاني (كـل تجـمـعٍ لـتـفـرّقِ) وهـذا يكشـف دلالـة عميقـة نائمة في باطـن الذات ؛ إذ أن حيـاته كلها مبنيـة على الفراق ، بل إن الحيـاة الإنسـانية كلها رحلـة تنتهـي بفراق .

وفي خـلال أساليـب الطلب المتنـوعـة رأينـا الشـاعر يعتمـد أسلـوب التـقرير، ليلخص من

*-النَـد : " نوع من الطيـب ،يُـتـبـخـر بـه "، القـاموس الجديـد ، ص: 1210.

تفاعلـه بعض الحقائـق ويثبـتها كنوع من تسليـة ذاتـه، والتعالي على ألمـه الشخصي في نظـرة تأمليـة فاحصـة :

أو في على الشهبِ الدجى فتألقت -*- لـولا اعــتكارُ اللـيل لم تـتألقِ

و الفحمُ ليس يضيء إن لم يضطرم-*- والنـدّ(*) ليس يضوعُ إن لـم يُحرق

فالشاعـر لا يبـقى حبـيس تجربته الذاتـيـة مقـيـدا بعـواطفـه الجارفـة ، بل يـنزع إلى الـتأمل الوجـداني والفـكري البعيـدين، الذي يهـديه إلى توسـيع أفــق النظـر في الحياة والكون:«والشعر الذاتي يـتحول شـيئا فشــيئا بطرق غير محسـوسة إلـى الشعـر التـأملي الفلسـفي ، وقد تـظل فيه صفات للعاطـفة والحـيوية وانسـجام اللغة والتـصوير.»(1) ، وفـي هـذا النـزوع نوع من المقاومـة، مــقاومــة آلام الاغتـراب الذي تـثيـره مثل هـذه المواقف ، وهـذا لا يلغـي أهـداف الشاعـر السامـية وما يرمـي إليه من تقـديـم خبراتـه بالحــياة للقارئ وجعلـه يتأمل مثلـه ، فأبو ماضي دائما يتعالى على ألـمـه الفــردي ليصل إلـى الحـكمـة من ذلك الألم . وبالتالي تعميم التجـربة ليقـدمها للقارئ.

- الحيـز المكانــي وإثــارة الشـعور :

إذا كانت فاتحـة النص (المقطـع الأول) طلبـية تصور حالـة الشـاعر لفـراق المـكان الحمـيم ، فـإن المقطـع الثــاني يسيطــر عليــه عنصـر الحيز باعتبــاره قيمـة موضوعيـة وشعورية في آن واحـد ؛ فالـمكان- بعناصـره وأشكــاله - يـمـثـل موضــوع النـص أي مادتـه الفكـرية ، وهـو أيضــا يشكل بعـده الفنــي الجمالــي والشـعوري ، ممـا يجعل الوقوف إزاءه حتميـة ملحــة لرصـد مجمـوع خصائصـه وأبعـاده:

المكــان	صـفتــه	القيـمــة	نوعــها	القرينــة
مونتريال مدينة الطـود	حيز مكاني (الموضوع)	إعـجاب	شعـورية	لله الأشم الأبلق
شاطئ نهـرها	حيز مكاني مائي	بث الحياة نبل وكرم	شعورية أخلاقيـة	روحي تستقي التواضع والندى

1- النقـد الأدبي ، أحمـد أميـن ، مكـتبة النهـضة المصرية ، مطبعـة المعـرفـة ، القاهـرة ، مصــر ، ط 4 ، 1972 ، ج 1 ، ص: 78.

المكـان	صـفتـه	القيـمـة	نوعـها	القرينـة
الحقـول زرعـها	حيز مكاني (آخذ ومعطي)	بث الحياة	حيـوية	أعطى(كأن لم يعط)
المدائن والقرى	حيـز مكاني	الآخـذ	تفــضل (إحسان)	آلاؤه وهباتـه
روضـة	حيز مكاني يحوي الشاعر	سعــادة	شعـورية	مـعطارة
العطر..ورودها	حيز منتشر في المكان	إعجاب	شعورية	يعبــق
مـونـتـريالكم	حـيز واقـع	إعجاب	شعورية	ِلله
رومة الصغرى*	حـيز غائب	إعجاب	شعورية	هــي
جـلق (دمشق)	حـيز غائب	منتهى الإعجاب	شعورية	هــي ، ضــرة
نجـوم	حــيز بعيـد	إعجاب وافتتان	الرفعـة والسـمو	رقت ، تواضعت
هـي (النجـوم)	// //	تمثيل أبناء الـوطن	إشباع الحنين للوطن	هــي أنتم
هـا(في هبطتـها)	حيز يحوى الشاعر	إعادة شباب الشاعر	شعورية(سعادة)	رجع الـشباب
عنــ (هــا)	حيز متروك	اغتراب في اغتراب	شعورية (ألم وحزن بسبب الافتقاد)	عن (التجاوز)
طودها ، قبابها، قــصورها	أماكن مسلوبة متروكة			يغيــب
خلــف	حيز سـالب	قــهـر	شعورية (ألم القهـر)	تغيب
الفضاء الأزرق	حـيز سالب	عـودة الاغتراب الأول		خلـف
صـورتـ (هــا)	مونتريال في خيال الشاعر(ذكرى)	إعجـاب	تصور خيالي ملازم لذهن الشاعر+ تصور خيالي غير محـقـق	تظـل

إن إصرار الشـاعر على التعلق بالمـكان ،بدءا من العنوان إلـى نهايـة القصيــدة،لدليل

*- رومـة : يقـصـد رومــا عاصـمـة إيطاليــا.

على فاعلية المكان في وجدانه وقوة تأثيره. فإذا كانت فاعلية المكان في فن القصة، تأتي من كونه أساسا لبناء العمل القصصي ، لعدم وجود حدث خارج الحيز (ولو كان حيزا خياليا أو ذهنيا مفترضا) ، فإن فاعلية المكان هنا تأتي من فاعلية إثارة المشاعر النائمة واستحداث مشاعر جديدة ، نظرا لقوة عامل المكان في التأثير في حياة الشاعر ووجدانه، ومن ثم إنتاجه الشعري.

ج- فلوريدا :

كان الشاعر كثيرا ما يسمي قصائده بأسماء أماكن تذكر أوطان المهجر على اختلافها كما مر في قصيدة (لوس أنجلوس). وإذا كانت هذه القصيدة المسماة (فلوريدا) لا تخرج عن السياق العام لقصائد المهجر ، خاصة في ظاهرة التغني بالطبيعة ، فإني رأيت أن أنتقي منها مقاطع تحوي بعض الاختلاف ، وتمنح النص شيئا من التميز:

يا جنة قبلما حلت بها قدمي -*- أحببتها قصة واشتقت راويها
كانت لها صورة في النفس حائرة -*- مثل القصيدة لم تنسج قوافيها
وددت لوأنها تمت فيبصرها -*- غيري, وتسكره مثلي معانيها
وكيف تكمل في ذهني ولم أرها -*- وما لصورتها شيء يحاكيها؟
وأيما نغمة أدى عذوبتها -*- كلام راو ولا شاد يغنيها؟
أأنشق العطر لم أهبط خمائلها -*- وأشرب السحر لم أسمع قماريها؟
وتصعد النفس مني للسماء ولا -*- حبال نور تدلت من دراريها؟(1)

- أساليب الطلب ؛ فاتحة إعجاب، واندماج مؤقت :

يُصَدِّر الشاعر نصه بفاتحة تشترك فيها أساليب الطلب ، مع أساليب الخبر(الوصف) لكشف حالته الوجدانية من لحظة الاستهلال(وربما قبلها) تجاه موضوعه (مدينة فلوريدا)، ويأتي النداء فاتحة هذه الأساليب :

1- الديوان ، ص: 435 .

يا: أداة نـداء للبعيـد ، وهـا بـعد في الإعجاب ؛ والمد يعطي فـرصة أوسع لإطالـة المعنـى ، بـخلاف الهمـزة (أ) التي تستعمـل للقريب (سـواء أكان القرب حسيا أو معنـوبا).

جنـة : منـادى وهـو نـكرة مقـصودة لتعلـقة بالنعـت .

أحببتـها : تركيب فعلي ،فيـه تصريح بدلالـة الإعجـاب ، يؤدي وظيفـة نعـت المـنادى

قـصـة : يعنـي نـادرة المـثال ، بقريـنـة أن القصـة غالـبا ما تكـون خيالا لا واقـعا.

واشتقت راويهـا : الشـوق دلالـة على البعـد ؛ تأكيـدا لمعنـى بُعـد احتمـال الوقـوع.

إن أسلـوب النـــداء لا يـؤدي شيـئا مـن معنـــى النـداء الحقيقـــي ، وإنمـا يسخـــره الشـاعر ويطـوعـه للكشـف عن حـالته الوجـدانـية المغمـورة بالإعجـاب وهـذا ما تثبـته أبيات أخـري في وسط النـص :

لما رأيت الجـمال الحـق أدركـني -*- زهـد بكـل جـمال كـان تـمويها

كأنـما الحور مرت في شـواطئها -*- وفي لـيلة طـفلة رقـت حواشـيها

فـفي الرمال سـناء من تضاحـكها -*- وفي المـياه أريـج من أغانـيـها(1)

ثم يأتي الطلـب بالاستفهـام :

وكيف تكمـل في ذهني ولـم أرها -*- وما لـصـورتـها شـــيء يحاكـيها؟

ليكمل الدلالـة السابقة للنداء، ويؤكـد حضـور التعجب بقـوة في شكل آخـر ؛ لأن الإجـابة عليـه تـوصل إلى النـفي ، إذ – بداهة –لا تكتمـل الصـورة في الذهـن ما لـم تُـحقق بفعل الرؤيـة . إن هـذا الاستفـهام يوفـر يفجـر عـامل الإثـارة (بتضافـره مع النـداء) التـي تـشد القـارئ إلـى النـص ، وتفتـح رغـبتـه في التـساؤل عن هـذه الجـنة ، وما سـر هذا الإعـجاب الذي لا حـدود له ؟

ويعـود الشـاعـر إلى الاستفـهام ليحمـل دلالات أخـرى تقـرر حالة الإعجاب الذي يمـلأ نفس الشاعر :

وأيـما نغـــمة أدى عـــذوبـتـها -*- كـلام راو ولا شـــاد يغـــنـيـها؟

1- الديـــوان ، ص: 435 .

فلا تـعرف عـذوبة نغمـة بمجـرد الرواية(النقل) مـا لـم يـكن هنـاك شـاد يغنـي هـذه النغمـة ؛ وهـذا إسـقاط علـى جمـال هـذه الجـنة التـي طـالما سمـع الشـاعر عنـها (بالروايـة)، لكـن السماع لم يستطع أن يكمل الصورة الذهنية ، ما لم تقع تحت البصر.

ويضيف الشاعر استفهاما آخر :

أأنشـق العطر لم أهبط خمائلها -*- وأشرب السحر لم أسمع قماريها؟

ليحقق مرة أخرى معنى المستحيل ، في صورة مخالفة للسابقة : فلا أحد يستطيع أن يشتم روائح خميلة (*) وهو لم ينزل بها.

ويمضي الشاعر في تأكيد المعنى بصورة أخرى :

وتصعد النفس مني للسماء ولا -*- حبال نور تـدلت من دراريها ؟

فلا إمكانية للصعود إلى السماء بلا سبب أو واسطة

كل هذه الاستفهامات المتوالية تؤكد معنى الصورة المثالية منظرا (المشهد) ، ومسمعا(نغمة) وعطرا (أأنشق..؟) ومشربا (أأشرب) وارتقاء (تصعد النفس للسماء).

لكن هذه الصورة المثالية لا زالت حبيسة التصور الذهني والتخيل ، ولم يلامسها الشاعر بأي من حواسه ، حتى نزل بهذه الجنة (فلوريدا) وتحققت الصورة في الواقع والملموس :

لما رأيت الجمال الحق أدركني -*- زهد بكل جمال كان تمويها

وبهذا تكون أساليب النداء والاستفهام قد أدت فاعلية قوية في فاتحة النص بحيث تجعل القارئ متطلعا إلى اكتشاف الموضوع ، وفهمه ومعرفته ، والبحث عن سر الإعجاب الكبير.

---

*- الخميلة :« الشجر الكثير الملتف ، كل موضع كثر فيه الشجر فأصبح لا يُرى ما يقع في وسطه ، جمعُ ؛ خمائل . » عن : القاموس الجديد ، ص: 322.

- الحـوار الفنـي : مفارقـة البـنـي التقـابلية والدلالات التكامـلية :

يستعمل الشاعر في الأبيات المـوالية أسلـوب الحـوار ، ويوظـفـه لإكمـال الدلالة السابقـة ، مضفيا على النـص خاصية من خصائص فـن القصة :

سُئلت ما راق نفسي من محاسـنها؟-*- فـقـلـتُ للنــاس : باديها و خافـيها
وما حببت من الأشجا؟ قلت لهـم: -*- إني افـتـتـنتُ بكـاسـيها وعاريـها
وما هويـت من الأزهار؟ قلتُ لهم -*- ألــحبُ عـنـدي لـنـاميـها و ذاويها
قالــوا:وما تتمنى؟ قلـت مبتـدرا: -*- يا ليـتــنـي طائرا أو زهــرة فـيها

المرحلـة	السـؤال	الجـواب	القيمـة الفنية	القيمة الشعورية
1	- ما راق نفسي من محاسنها؟	- باديـها وخافـيها	كمال الجمال ظاهرا وخفيا	كمال الإعجـاب
	- ما حببت من الأشجـار؟	- افتتنت بكاسـيها وعاريها		
	- ما هـويت من الأزهـار؟	- الحب ..لنامـيها و ذاويها		
2	- ومـا تـتـمـنى ..؟	طائـر أو زهـــرة فيهـا	التمـني : طلـب البعـيد	شـدة الـرغبـة ومنتهاها

إن الاستفهامات المشكلة لعنـصر الحـوار الفني تقـوم على مبـدإ التسـليم بقيمـة الإعجاب(راق – حـبـبت – هويـت) ، لكنّ إجابـاتِ الشـاعر تـأتي بـدلالات المطلـق : أي بالدلالــة النهائيــة للمعنــى ، فالشاعــر يحقق الإجـابة بتـقـديم المعنـى الذي يوفــر دلالــة الكمــال ، لدرجــة أنــه جمع المتقـابلات مثنـى مثنـى ، ليحــقق مجـال الدلالــة كامــلا من أدنـى معـناه إلـى أقصــاه . ويبــدو ذلك واضحا عنـد تحليـل(عنصر الجـواب) فـي المـرحلــة (**1**) من الجـدول السابـق بالشكــل التالــي :

الحـد الأدنـى	الجمـع	الحـد الأقصى	المعنـى	الشـعـور
باديـــها	و	خافـيها	**كل الدلالـة الممكنـة**	**إعجـاب مطـلق**
عاريـــها	و	كاســيها		
ذاويـــها	و	نامــيـها		
بـداية المجال	+	نهـاية المـجال		

1- الديـوان ، ص: 435

أما المرحلة (2) فتمثل طورا آخر في حالة الاندماج والإعجاب ؛ إذ أن الشاعر انتقل من مرحلة الإعجاب معنى وشعورا إلى مرحلة طلب الانتماء إليها والرغبة في أن يكون جزءا منها ، وهذه الرغبة على ما هي مستعصية - واقعا وحقيقة- فهي ممكنة فنا وخيالا ، جسدها في أسلوب التمني(*) وهو الأسلوب الأمثل لتأدية الدلالة ؛ مما يؤكد حميمية الطبيعة للشاعر، وقدرتها في تسلية نفسه وإخراجها - ولو للحظات- من غربته القاتلة ، وسجن وحدته وهو بعيد عن وطنه :

ورب روح كروحي في بنفسجة -*- وسنى أطلت على روحي تناجيها

- نظام الخاتمة ؛ تأكيد الانتماء للوطن في تمثيل أبنائه للطبيعة :

لقد سبقت الإشارة إلى أن الطبيعة الجميلة بكل مظاهرها تعدل عند أبي ماضي صورة الوطن ، وتحيله عليه ، وتحيي فيه الأشواق والحنين ؛ فالطبيعة الساحرة حيثما كانت ، ليست عند أبي ماضي سوى "لبنان" وقد ورد في مستهل هذا البحث أن الشاعر ولد وعاش سنواته الأولى في قرية " المحيدثة" بجبل لبنان ، وهي منطقة من أجمل مناطق لبنان طبيعة ، ولو أن كل طبيعة لبنان جميلة وساحرة .

لقد ظلت تلك الصور ذكرياتٍ طفولية كامنة ترتحل مع الشاعر حيث حل ، وتعاوده دائما ، وهي ماثلة في خياله ووجدانه ، حية نابضة تعوضه افتقاد الوطن في اغترابه الطويل وبعده البعيد ؛ فمرة أخرى يتأكد أن الشاعر لم يكن يصف من المدن الأمريكية والكندية التي زارها وذكرها في شعره ، إلا الطبيعة . والطبيعة لا تعبر عن المدنية . وفرار الرومانسيين من المدنية إلى الطبيعة ؛ فرار من المفاسد والشرور إلى الفطرة والخير:« ولا يبقى أما الشعراء من سبيل لمواجهة الزحف والخراب ،سوى الارتداد إلى المرجع-الأصل- والاحتماء بالمكان- الذاكرة »(2)وقد أكدت

1-التمني من أساليب الإنشاء الطلبي: « وهو طلب ما لا طمع فيه .. أو ما فيه عسر» عن : شرح قطر الند ى وبل الصدى ، ص: 203 .

2- المدينة في الشعر الجزائري العربي ، ص: 48 .

القصيدتان السابقتان (لوس أنجلوس- ضرة جلق) هذا التوجه عند الشاعر، كما تأكد هذا الميل إلى الطبيعة في مبحث " الوطن الأم" .

ويمكن إثبات هذا في آخر مقطع من قصيدة (فلوريدا) :

واذكر أكارم قوم طاب عنصرهم-*- وأشبهوا بسجاياهم أقاحيها

بني بلادي وفيكم من خمائلها -*- جمالها والتسامي من روابيها

تسلت النفس عن أحبابها بكم -*- لولاكم لم يكن شيء يسليها(1)

ففي هذا الختام ربط وثيق الصلة بسابقه(من النص) رغم تحول مجرى الحديث من الافتتان بالطبيعة إلى الحديث عن الإنسان :

واذكر أكارم قوم طاب عنصرهم-*- وأشبهوا بسجاياهم أقاحيها

ففعل الطلب (أسلوب الأمر:اذكر) فيه تنبيه قوي – دلالة وصيغة- بالتحول من معنى إلى آخر؛وعنصر الرابط هو الانزياح بالمشابهة بين الطرفين فقد صار الموضوع هو أبناء الوطن (المهاجرين) :

بني بلادي وفيكم من خمائلها -*- جمالها والتسامي من روابيها

ليكتمل المشهد بين تمثيل طبيعتين ببعضهما ؛ طبيعةِ الأرض وطبيعةِ الإنسان. وكلاهما له صلة وثيقة بالوطن ، فالانزياح الواقع بين المعنوي والمادي (بين سجايا الإنسان وجماله وتساميه من جهة والأقاحي والخمائل والروابي(المنسوبة إلى فلوريدا في الضمير العائد "ها") من جهة ثانية ، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك ، أن حالة الاغتراب عند الشاعر في ذروتها ، وأن وصفه لطبيعة " فلوريدا" هو نوع من التعويض عن فقدان الوطن (وطبيعته) والأهل ؛ ولهذا فالمهاجرون إذا التقوا - في الغربة- يكونون أهلا وأحبة (ولو كانوا من مدن مختلفة في الوطن الأم) :

تسلت النفس عن أحبابها بكم -*- لولاكم لم يكن شيء يسليها

إن المواطن(الشريك في الوطن) يحيل على الوطن ، والطبيعة الجميلة تحيل على

1- الديوان ، ص : 436 .

جمال طبيعة الوطـن . وبـهـذا يتأكـد أن هيـام الشـاعـر بطبيـعـة المهاجـر الأمريكيـة ، مـا هـو إلا تنفيـس لرغـبة الاندمـاج في طبيعـة الوطـن .ومـبرره عنـصر المشابـهة والتماثل الذي يحـدث لدى الشـاعر حالـة من تداعي الذكـريات والصـور المرجـعة للمـاضي وهـو الزمـان الممـثل للوطـن أيضا،والدافـع إلـى الـتأميل فـي الحـاضر والمستقبـل . ويتقـرر بـذلك أن الشاعـر لم ينـدمج – يومـا- في أوطـان المهـجر، وهنا يتـحقق أن الانـدماج فـي الطبيـعة الذي ظـهر فـي فاتحـة النص ، كـان انـدماجا مـؤقتا ، أقـره الشـاعر بنفســه فـي القصيــدة نفسها (فلوريدا) :

بالوهــم توجـد دنيا لا وجـود لها -*- وتـنطوي عـنك دنـيا أنــت رائيها

وفـى إعـلان حاجتـه للسـلوان تأكيـد على النقـص الذي يعتـري اندماجـه في الطبيـعة :

تـسلت الـنفس عن أحـبابـها بـكم -*- لـولاكم لـم يكن شــيء يســليها

وتلخيصـا لتحليل النص ، ومبحث الـوطن المهـجر بالجملـة يمكـن وضـع تصنيـف يبـين درجـات الاغتـراب عنـد الشـاعر :

الشاعرفي الأوطان	المدينة (الوطـن المهجـر)	طبيـعة المـهجـر نيابة عـن طبيعـة الوطـن	أبناء الوطن (المهـاجرون)	الـوطن (لبنـان)
المــؤشــر	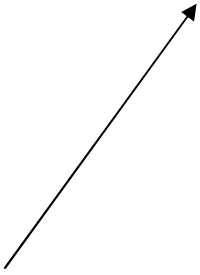	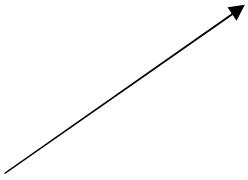	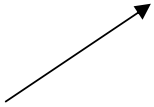	--------
درجـة الاغـتـراب (–)	% 100 محققـة	% 60 محـقـقة	% 40 محـقـقة	% 00 غير محـقـقة
الـمواطنـة والانـدماج (+)	% 00 وهي نسبة واقعـة	% 40 واقـعة	% 60 واقعــة	% 100 معطلة بالبعد

إن قـراءة هـذا الجـدول تـقـدم لـنا النتـائج التاليـة :

- إن اغتـراب الشـاعر ينـعدم فـي الوطـن الأم ، ولكـن هــذا - واقـعا- غـير محــقق بسـبب

البعد ، ولهذا فالعنصر السالب الذي يمثل نظريا نسبة(00 %)، هو في الواقع محقق في أعلى درجاته .

- إن الاندماج والمواطنة تكون في أعلاها في الوطن الأم ، لكنها غير محققة واقعا لبعد الشاعر عن هذا الوطن وتعذر اندماجه؛ وعليه فالعنصر الممثل لحالة الإيجاب في ذروتها يتعطل ويصبح دالا على منتهى السلبية. والنتيجة الملخصة لما سبق أن الشاعر :

وقع عليه السالب في أعلى درجاته ، ولم ينل من الموجب شيئا .

- إن المدينة(الوطن المهجر) تمثل أقصى درجات الاغتراب ، وقد تأكد هذا في عدة قصائد منها (لوس أنجلوس) حيث يقول الشاعر في نيويورك :

كفنت في نيويورك أحلام الصبا -*- وطويتها , وحسبتها لن تنشرا(1)

ويقول من قصيدة أخرى :

ويح المدائن إن ساكنها -*- كالميت ، لم يطمر ولا دفنا(2)

فمقابل الطبيعة الخالصة عند الشاعر هو المدنية ؛« وكان من شأن تعلقه بالطبيعة..أن صرفه عن المدنية،وجعله يتبرم بها، ويضيق بأحوالها، فكان إذا ترك نيويورك، وذهب إلى الريف، تنفس ملء رئتيه،وأحس بالسعادة حتى لكأنه بُعث إلى الحياة من جديد»(3).

لكني لا أرى أن الطبيعة هي التي أبعدت الشاعر عن المدنية وجعلته ينفر منها ، بل إن نفوره من المدنية ميل طبيعي في تكوينه، بفعل الفلسفة الرومانسية ، وبفعل نشأته في طبيعة لبنان الساحرة ، والذي قوى هذا النفور هو عامل الغربة ؛ فالمدينة تشعره بالاغتراب أكثر ، وتفقده التوازن الشعوري ، وتسلبه معاني الانتماء والمواطنة .

وهكذا فبعد أن افتتح الشاعر نصه بفاتحة تبدو فيها نفسه مندمجة غاية الاندماج ومعجبة بالطبيعة منتهى الإعجاب ، فإنه شعور الغربة الذي يترصده ، قد عاد إليه وجعل الشاعر يقاومه كعادته.

1- ينظر " الحيز القاهر ونفور من المدينة" ص : 102.
2- الديوان ، ص : 394.
3- إيليا أبو ماضي ، عبد اللطيف شرارة ، ص : 45.

4- الوطن العالم(أو الإنسانية) :

لا نكاد نجد للشاعر قصيدة بعينها خصها بالوطن العالم ، وإنما نجد النزعة الإنسانية مبثوثة في عموم إنتاجه الشعري ، ومجموع ديوانه ، ذلك أن البعد الإنساني في الشعر قد يعالج بأكثر من وجهة ؛ فقد يؤخذ من المنظور الفكري أو الفلسفي ، وقد يعالج من كونه خصوصية في مذهب من المذاهب الأدبية ، كما يمكن تناوله من قبيل المؤثرات الحضارية والسياسية في توجه شاعر من الشعراء..

والبحث عن البعد الإنساني للوطن ، أو الوطن بمعنى الإنسانية يدفع الباحث للقيام بمسح شامل لديوان الشاعر كله ، فلا وجود لنصوص مستقلة تتناول الوطن العالم ، فهذا المضمون (النزعة الإنسانية أو عالمية الوطن) لا يقوم بذاته في نص أو نصوص قائمة بذاتها ، لكنه يأتي إشارات وخواطر في شتى أغراض الشعر وفنونه التي تناولها أبو ماضي.

أ- يا أنشودتي انطلقي (1) **:**

تعالج القصيدة موضوع انتهاء الحرب العالمية ، وفرحة الشاعر بانقشاع سحائبها المدمرة للإنسان ، وفي أثناء ذلك يعرض علينا ويلات هذه الحرب وما جرته وجنته أوربا على نفسها ، وما أحدثته الصناعة والآلة من إبادة واسعة بالبشر وفتك بالإنسان ، حتى صارت الحياة جحيما وعذابا مستطيرين .

يقول الشاعر في قصيدة (يا أنشودتي انطلقي):

أنشودة في ضميري كم أواريها -*- وما شفائي إلا أن أغنيها
ولى الشتاء ونفسي في كآبتها -*- واستضحك الصيف إلا في نواحيها
كأنها زهرة في الظل نابتة -*- لا نور يغمرها ،لا ماء يسقيها

* * *

كأنها الحرب في قلبي زلازلها -*- وبعض أهلي أقوام تعانيها

1- الديوان ، ص : 432 ، 433.

حكــاية أتـقـلى حين أسـمــعـها -*- ويأكل الحـزن قلـبي حين أرويها
وارحــمتاه لأوربا فــما فـتكـت -*- أفــعى بأفعى ، كأهـليها بأهـليها
لم يبق غير الضواري في خلائقها -*- ومن حـضـــــارتها إلا مخازيها
كانت تعد الدواهي في مصانعها -*- لغيـــرها ، فأصابـتها دواهـيها
وكل طابخ سـم ســـوف يأكـله -*- وكل حافــر بئر واقـــع فـــيها
لو دام إيمانها لم تنــطلق ســقر -*- بـدورها والأفـاعي في معـانيها
لكن أكبت على الآلات تعبـــدها -*- وتستـعيـن بـهـا من دون باريــها
فصـــار مالكها عـبدا لسلـطـتها -*- وصار كل ضعيف من أضاحيها
وصار إنســانها للحـــلب آونـــة -*- والذبح مثل المواشي في مراعـيها

* * *

يا نفس سري،ويا أنشودتي انطلقي-*- من علم الصمت،إن صمت يؤذيها
أيـشرق الأفـــق لم يطلع كواكبه -*- وتجمل الأرض لم تخرج أقاحـيها؟
اليــوم يوم القـوافي تهـتـفين بها -*- لا يشـرب الناس خـمرا لم تصبيها
هذا هــو العيد قد لاحت مـواكبه -*- يا قـلب هـلل لها، يا شـعر حـييها

- صور الانـزياح في صراع الثنائيات، وفـرحٌ للإنســانية :

يعلـن الشـاعر في نصـــه عن فرحتـه بنهايـة الحرب العالميـة(*) في تشكيلات فنــية تعـدل عن المباشـرة إلـى توظيف التخيل الشعــري ، واتخــاذه أداة إفصـاح ، يبـث المعـاني وظلالــها ، واستعمــال الصـورة الفنـية في الشعـر أقــدر من التعبيــر العادي علـى تمثيـل المضامين والدلالات أيا كانت فـكرة أم شعـورا أم خاطرا ..

وفي هـذا النص نلمـح تـوجه الشاعر إلى الانـزياح في التعبـير من فاتحـته:

أنشـودة في ضميري كم أواريها -*- وما شــفـــائـي إلا أن أغـنيـــها

---

*- لـم يتـضح من خلال الديـوان أي الحربين العالميتين يقصد الشـاعر ؛ الأولـى أم الثانـية ؟ وإن كان ذلك لـيس أساسيـا في قـراءة النـص وتحليلـه.

فليست الأنـشـودة سوى صـورة الفرحـة ، عبر عنهـا الشـاعر بإحـدى قرائنـها (الإنشاد) ليمثـل لنـا دلالـة هـذا الفـرح فـي مظهـر من مظـاهره السلوكيـة، إذ "الفـرح" بذاتـه معنـى مجـرد كل التجـريد ومن علامـاته : الابتسام والـضحك والغناء والإنـشاد وغـيرها..لكن؛ لماذا اختـار الشـاعر (الإنـشاد) بالذات ؟ والجـواب ببساطـة ؛ لأنـه شـاعر ، فهـو صاحـب هذا النـوع من الأفعـال ، وهـو – افتراضا – الذي لـه أولويـة الإنـشاد ، لكنـه (يواريها) أي: يدفـنها ، وهـو يقصـد ؛ يخفيـها . فهي - بهـذا التعبيـر – كـالموءودة التـي تدفـن حيـة . ثـم يـقرن (شفاءه) بغناء هذه الأنشـودة ليـس إلا ، إذ إنـه جعـل عجـز البيت في أسلوب حصر:

وما شـفـــائـي إلا أن أغـنيـــها

وهـذا ما أعطـى فاتحـة النص (بيت القصيـد) صفـة الشعـرية التي تجعل التركيب النحـوي المألوف (النمـط النظري للتركيب) متفـجرا على إيحاءات أوجـدتها علاقات الانزياح الفـني الذي يكشـف لـنا أبعاد العلائـق النحـويـة بين الألفـاظ ؛ الأمـر الذي يزيح ما وراء القـراءة الفوقيـة ،للاقتـراب – ما أمكن- مـما لا يستطيع أن يقـدمه التعـبيـر المباشر: « إن الشعر كلـه يستعمـل الصـورة ليعبـر عن حالات غامضـة ، لا يستطـاع بلوغها مباشـرة أو من أجـل أن تنقـل الدلالة الحـقة لما يجـده الشـاعر.» (1) ، والشكـل التالـي يلقـي الضـوء على ذلك :

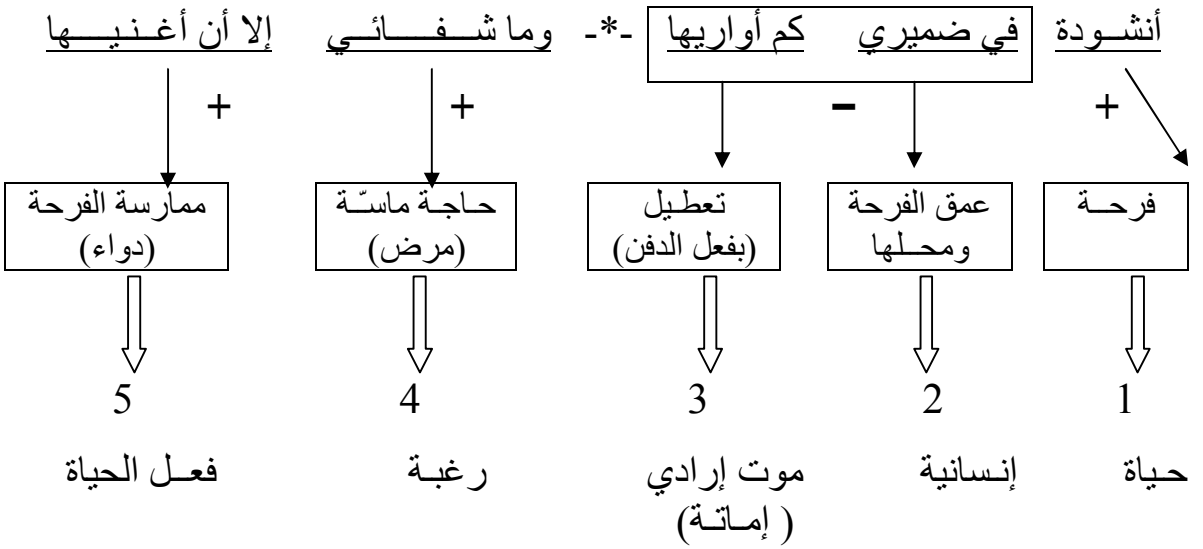

1- الصـورة الأدبيـة ،مصطـفى ناصف،دار الأنـدلـس ، بيـروت ، لبنـان ، ط 3،1983، ص: 217.

- إن معنى الحياة (1) ممـكن ، بواسطــة الفعل (5).

- إن الرغبـة في الحيــاة (البحث) موجـودة في (4).

- إن فعل الحياة (5) معطــل بالإمــاتة (3) إراديــا.

- إن عمليــة التعطــيل (3) تـمارس في حيــز معنــوي ، يعبر عن عنـصر الاشتراك لدى الإنسانية (2). وعليــه فالعنصــران؛ (2) و (3) يؤديــان معــا ، دورا سلبــيا (–)

- وانطــلاقا من هــذه المعادلة ، تكــون عبارة (في ضميري) مــركز البيت ، أو لعلها مـركز هـذا التسـاؤل : لمــاذا يتعطــل الفرح البسيــط (الإنشــاد) مع وجــوده ضمنــيا (أي تـوفر إمكانيتــه) في الضمــير ؟

- إن الإجــابة(على بساطتها) ليست بأقل إثارة من السؤال نفســه ، وهـي : الضميــر نفســه؛ أي أن مشـاركة الشاعــر لآلام الإنســانية (بفعل الحــرب) هــو الــذي يـؤجل فـرحــته :

يا صاحبي ليس الوغى من مذهبي -*- هاتيــك وسـوسة من الشيــطان

فالناس إخــوان،وليــس من النهى -*- أن يــفتــك الإخــوان بالإخــوان(1)

وفي هـذا التعبيـر تكمــن قــوة المفارقــة الناتجــة من ثنائيــة الإيجاب والسـلب والتــي تجعل الضميــر(وهو عنصر إيجابي) يعطـل عنصـرا إيجابيا آخـر(الإنشــاد = إعــلان الفرحــة). لكـن الدهشــة التـي تعتريــنا بفعل هــذه الفرضيــة لا تلبــث أن تـزول عنــدما نــدرك سـر هذه العلاقــة :

الضميــر	الإنسانـية	العــام
الإنشـــاد	الشاعــر	الخــاص

إن الشــاعــر يتنــازل لــ(العـام) عن حــقه الخـاص (الإنشـــاد والفرح) ،وهــذا يؤشــر إلــى معنــى التضحيــة والمشاركــة الوجدانيــة لآلام الإنســانية .وهـذا يحـيلنا بدورة إلـى نتيجــة أخرى ، وهي أن (الضميــر) نفســه يمثل ثـنائية أخــرى تظـهر كالـتالي :

1- الديــوان ، ص: 373.

يشــارك الإنـسـانـية آلامها

\+

ضميـر الشــاعر

\-

يعطل الشاعر عن الإنشــاد

ويتــأكـد هــذا التفسيــر من الأبيات الموالية (الـثاني والثالث)المـماثلة للبـيت الأول حــد التطابق والتوحـد :

	الثنــائيــات المتـقــابـلة		**النتيجة**
البيت	الطرف 1	الطرف 2	تصــادم
1	أنــشـــــودة	في ضميري كم أواريها	تعطيـل الطرف2 للطرف1
2	ولـــــى الشـــتاء واستضحك الصيف	ونفـسي في كآبــتها إلا في نواحـيـها	
3	كأنها زهـــرة	في الظل نابــتة..	
النتيجة	+	-	-

إن البيتين الثاني والثالث ما هما إلا صــورة أخــرى لمعنــى البيت الأول ، الذي هو بدوره صــورة لمعنــى مجـرد يمكـن تلخيـصه ببساطــة في العبارة التاليــة :

إن ضمير الشاعـر الذي يتألم لويلات الإنســانية يجعلـه يؤجـل فرحـه ولا يعلنــه.

من الواضــح قدرة التباين الدلالــي لمعجم هـذه الأبيات في تجليــه الفـني ، واقتـدار هاتيـن الخاصـيتين علـى إيجـاد المفارقـة فـي المنــطق ، التـي تصـبو إلـى تحقيـق الـتلاؤم والانسـجام والـوحـدة الفنيـة ، ولا يتحــقق ذلك بغير قوة الخيال الشعـري : « إن الـوحدة التـي تسيطـر على العمل الخيالي تعني التـوافق التـام بين العقل والقلب ، بين الملاحظــة الصـادقة والملكـة المتخـيلـة ، بين المحـسوس وغير المحــسوس .» (1)

1- الصــورة الأدبيــة ، ص: 16.

وباستعـراض معجم النص وعـرضه وفق دلالات الحضـور والغيـاب، للغـوص في أغـوار صـوره الانزياحية ، نلتـقط إشعـاعاته الفنـية ذات البعد الإنســاني:

اللفظ الدال (الحاضر)	الـدلالـة (الغائبة لفظيا)	البـعـد الإنـســاني
أنشودة في قلبي... ولى الشتاء ونفسي في كآبتها استضحك الصيف إلا...	فرحة مكـتومة إراديا بقرينة الحالية(ونفسي..) والاستثناء (إلا)	تعطيل الفرحـة لمصاب الإنسانية بفعـل الحرب،وعـدم القدرة على التمتع بثمار الصيف وصفائه وأحلامـه
كأنها زهـرة في الظل نائمة	التعرض للمـوت	الظل مقابل النور رمز الحرية ؛ فرحـة منقوصة بدون طعم
أفعــى بأفــعى	نزعـة الـشر في أعلى صورها	فتـك البشـرية ببعـضها
كأهـليــها بأهـليها (*)	طرفي الصراع في أوربا	حياديــة الشـاعر في الحـرب ، وانحيازه للإنســانية عمـوما بقرينـة (وارحمـتاه)
الضــواري	المتوحشون من البشــر	موت الضمير الإنساني فيما بين البشر
الــدواهــي	حـيل العلم وصناعـة الســلاح	نبــذ استغلال العلم وتسخيره للشـر
أكبت على الآلات تعبدها	الثورة الصناعية وما جرته من استعمار للشعوب	رفض الاستعمــار
من دون باريــها (**)	الاتجاه نحـو الماديـة ، والمروق عن تعاليم الديانات السماوية	عواقب القطيعـة عن الأديان السماوية والبعد عن تعاليمها السمــحة
أيشـرق الأفـق وتجمل الأرض؟	الإشراق = الظهور، وهـو حلول السلام الذي تجمل به الأرض	الشــروق والجمـال يحمـلان البعد الإنساني، في دلالتيهما الطبيعـية والمجـازية الخيالية معا

*- ربمـا يقصــد بـ (أفعـى بأفـعى) ؛ طـرفي الصــراع في الحرب العالمية : المحـور والحلفـاء .
**- يظهـر الشـاعر- في النص- مـؤمنا بـالله ، و كــذلك فـي قصــائد أخـرى مــثل؛ (الحـرب العظمـى ، الديــوان ص: 383) ، ويظهــر مشــككا مــترددا في قصــائد أخــرى أشــهرها (الطلاسم ؛ الديــوان ، ص :95).

اللفظ الدال (الحاضر)	الـدلالـة (الغائبة لفظيا)	البـعـد الإنـســـاني
هـذا هــو العـيد	نهـايـة الحـرب أعـلـى مراتــب الفـرح	العيـد : من العـودة والرجـوع ، أي عـودة الفرحـة ، فالسـلام أصـل ، والحـرب استثـناء دخيـل. العيـد:قرين الفرح الصافي؛الفـرح الطفولي. العيـد : فـرح كل النـاس . وعليــه : **العـيد أفضـل معادل لمعنـى الفرحـة الكـبرى بخلاص الإنسانية من الحـرب**.

وخلاصــة القراءة السابقة تبين لنــا عـمق النـظرة الإنســانية عنــد الـشاعر،وتفاعلـه الإيجابي مع أحداث عصره ، وإن تجاوزت وطنـه أو أوطـانه ومـكان إقامـته، فهـو فـرد في الأسـرة البشـرية الكبيــرة ؛(وهـذا المعنــى قـد عبر عنــه الريحــاني بقولـه ؛« لا تنــسوا وطنـكم في حبكم الإنـساني ، ولا تنسـوا الإنسانيـة في نـزعتكم الوطنيـة»)(1)هــذه النـزعـة التي عـدت خصيصـة شعـرية في شعـر أبي ماضي عـامة عُـرف بهـا ، كمـا عُـرف بـحبـه للطبيعة وميــله إلى التفاؤل :« إن شعـره ينبــع من قـلـبه ، ولعـل أبـرز ما يقـرب هـذا الشـعر إلــى النفــوس نــواح ثلاثــة؛ النــزعة الإنســانية ، والدعــوة إلــى محــبة الحــياة ، واستلــهام الطـبيـعة »(2)

إن ذلـك يــؤكد شمــولية النظــرة للحيــاة فــي أدب أبــي ماضــــي ، ويــؤكــد قـدرتــه علــى التـوفيــق بين انتمائــه الخاص ، وانتمائــه العــام للبشريــة جمعــاء.

ـ عـودة الفـرحة في دائرية الفـواتح والخـواتيم :

يتخذ النص شكـلا دقيقا في سيره فـنيا ، قـد لا يبدو في الـوهلـة الأولـى ، لكـن التأمــل العميــق وقراءة إشـاراتــه ، من شأنهمـا كشـف النـهــج العــام الذي يحكــم القصيــدة ويرتـب دلالاتها الجزئيــة للوصول إلى الدلالــة النهائيـة الناتجــة عـن هــذا النــسيج الخاضـع لخطــة

1- أدب المهجـر ، عيـسى النـاعـوري ، ص : 187.
2- الجامع في تاريخ الأدب العربي ، الفاخـوري ، ج2 ، ص: 596.

دقيـقة ، والتـي بدورها تتيح الفـرصة ، لرصـد الجانـب النفسـي ، والبعـد الشـعوري في إنـتاج الدلالـة والتفـاعل معـها؛ الأمـر الذي يؤكـد حـالة اندمـاج الذات الشاعرة بالمـوضوع ليصبـحا شيـئا واحـدا ، فالقـارئ يستوقفـه الدخـول القوي للنـص ، الذي ينبئ عن فرحـة عـارمـة ، لكنـها حبيـسة بحـزن بـاق مـن آثـار حـرب مـولية(ولـى الشـتاء).فالفـاتحـة (أنـشودة) دليل فـرحـة تصبو إلى الـذروة (إلا أن أغنـيها) ، ومـا يلبـث أن يعلـن عن سـر هـذا الكتـمان ، وكـبت الفـرحـة وهـو الذكـرى الأليـمة المـلازمـة لوجـدان الشـاعر ، والمقتـرنة بحـدث جـلل ، عايشـه الشاعر وعاصـره ؛ وهو الحرب العالمية الثانية ، فيـأخـذ في سـردها ، مسترجعا الحـدث الذي ما تزال آثـاره النفسيـة في وجـدان الشاعر، مـوظـفا واحـد من خصائص الفن القصـصي(*) أو الروائي ، وهـو تقنيـة السـرد(1) التي تقـوم بنقل الأحـداث الـتي توافق العرض الـعام لموضـوع النص ، مستعمـلا إياه وفـق طـريقة مغـايرة لأجـل أن « يبـدأ السـرد البـلاغي فـي التـحرر مـن قيـد الـعرض الـبرهاني ، كـي يـؤدي وظائف أخرى تجعلـه أقرب إلى نطـاق الشـعر.»(2)

ووظيـفة السـرد تتعـدى مهـمة نقـل الأحـداث وتصويرها ، وتـزيد عليها بـأداء دور أقرب ما يكـون إلى تبريـر حالـة الشـاعر النفسيـة ،التـي بـدت في فاتـحة النص(المطلع) متـذبـذبة بين فرحـة غامرة وقـوة تمنعـها من الخـروج ، ولـذلك راح الشـاعر يستعمـل هـذا السـرد بالشكـل الـدرامي السيـنمائي أي : « استخـدام أسلـوب الارتجـاع الفـني (flash-back) وهو مـن الوسـائل السينـمائية .»(3) فقد ارتجـع الشـاعر

---

*- من أكثر الخصائص الفنية شيوعا في شعر أبي ماضي ؛ ميلـه إلى الأسلوب القصصي ، وقد أفـرد لـه بعض الدارسـين فصـولا كامـلة ، مثل : سـالم المعـوش في كتابـه؛إيلـيا أبو ماضـي بين الشرق والغرب ، ص : 350 .

1- جـاء فـي تعريفـه ، فـي : دليـل الناقـد الأدبـي : « عـلم السـرد(Narratologie)هـو دراسـة القـص واستنـباط الأسس التي يقوم عليها ، وما يتعلق بذلك من نظم تحكم إنتاجـه وتلقيـه» ص: 103 .

2- بلاغـة الخطـاب وعلـم النـص ، صـلاح فضـل ،المجلـس الوطني للثقـافة والفنـون والآداب ، الكويت ، أغسـطس 1992 ، عـدد 164 ، ص : 255 .

3- الريف في الروايـة العـربية ، محمد حسـن عبد الله ، المـجلـس الـوطني للثقـافة والفنـون والآداب ، الكويت، نوفمـبر 1989 ،عـدد143 ،ص : 250 .

من حاضـره (ويقابل - زمنـيا- مرحلـة انتهاء الحرب) إلى المـاضي ، الـذي يمثل الحـرب (استحضـار نفسـي شعـوري لمرحـلة ماضيـة) ليـقدم لـنا – فـضلا عـن دلالـة الحرب المـدمـرة ويفصل أوصـافها- تعليـلا لعـدم قدرتـه علـى الفرح المـشروع ، ثـم يعـود إلـى لحظـة الحاضر ويعيش الفرحـة ويحـقـقها.

وهـذا الخـط الـذي مثل نهـج النص ، يمنـحه قوة التمـاسك والوحـدة العـضويـة التـي نادى بها الرومانسـيون عـامة بديـلا لـوحدة البيت في الشعر العربـي القديم ،ولعل جمـاعة الديـوان كانـت الأكثر إلحاحـا علـى هـذه الخاصية الفنيـة البنائيـة : « فشكري يقرر أن لكل قصيـدة ناجحـة غرضـا أو مغـزى عامـا ، وأن هـذا المغزى لا يمكن أن يستخلص إلا من قراءة القصيدة كلها.ويرى أن لهـذا المغـزى جوانب نفسيـة ذات علاقـة بالحياة وبالخلـق»(3). وعلـى هـذا يمكنـنا فـهم هـذا الالتـواء ،وهـذا التـداخل فـي الحركـة الـزمنية للنص بقياس المنـطق المـألوف، الذي يبـدو في نسيـج النص متسـقا تماما وفـق التمثيل التالي:

النـص	الأبيات: 1 ، 2 ، 3	الأبيات :4.....13	الأبيات 14،15،16،17
المحطـات	وصف للفرحـة المكبوتة	سرد لـواقع مـؤلم ، حاضر في الذاكرة، غائب واقعيا (حسيا)	عـودة للفرحة وسعي للاندماج والتفاعل من خلال أساليب الطلب
الخاصية	وصـف	سـرد + وصـف	طـلـب
- أ - سيـر النص لفظيا (فنـيا)	حـاضـر(2) 1	مـــاض 2	حـاضر(1) 3

1-جـماعـة الديـوان في النـقـد ، محمـد مصايـف ، الشـركة الوطنـية للنـشـر والتـوزيع ، الجـزائر، ط 2 ، 1982 ، ص : 289.

أما الافتراضات الأخرى لترتيب حركة كل محطة فيمكن قراءتها في الشكل الموالي بناء على هذا التوضيح :

- يمثـل الشكـــل الـدائري: الـــفرح ومـا يـــرتبط بـه سـواء تحقـق أو تعطـل أو يـراد لـه التحقق،وزمـنه هو : الحـاضر مفتـوحا على المسـتقبل . والـرقم يـمثل الترتـيب الزمني.

- يمثـل الشكـل المثـلث: الحزن لمصاب الإنسـانيـة ومـركزه الزمن الماضي.

- تمثل الأرقـام التي داخـل الأشكال : مراحل النص أو محطاتـــه ، وفق ما قـدمه الشـاعر.

- ب- زمنيا (فعليا) منـطقيا	ماض 2	حاضر(1) 3	حاضر(2) 1
-ج- وجدانـيا (الترتيب حسب الشعـور ومراحله)	حاضـر(1) 3	حاضـر(2) 1	مـاض 2

والنـتـيجة :

أن كـلا مـن الحـالتين : ب ، ج ، لا يمكن أن تحقــقا عنصـــر التماسك ، الـذي يجعـل فاتحـــة الـنص- تقريبـا- هـي الخـاتمة ، بحيـث يتحقق الشكل الدائــري للنص ؛ مـا يعطــيه عنـصر التكامل ويحــقق - من خلال مـوقف إنســاني - قـصة فـنية بارعــة.

إن الشـاعر قـد اختار أفضل منحـى لسيـر دلالــة النص بحيث يجسـد الشكل الدائري، للمعنـى فيبــدأ من الفـرح وهـو موضـوع النص (ممثلا في العنـوان) ليعــود إليه ويجعلــه خاتمتـه (هذا هو العيد). الشـــيء الــذي جـل التخيل الفنـي(أ)، يتـفوق علـى المنـطق(ب) ، ويعيــد تنظـيم الوجـدان (ج) في سيـاق فـني قصـصي.

- البنـاء الصوتي والإيـقاعي وتراجيع الحـزن والفـرح:

التـزاما بالتقـسـيم السابـق لمحطـات الـنص ذي الشـكل القـصصي ، نلاحـظ قـدرة الجانـب الصـوتي علـى تمثيـل دلالات الـنص صوتـيا – لا سيما وأن عنوانـه " يـا أنشـودتي انطلقي "- فإذا تتـبعنا المقـطع الأول لاحـظنا :

- طغيان حروف المـد(*)(وهـي التـي تسمى الحركـات الطويلـة) لدرجـة ملفتـة للانـتباه ، إذ تصـل إلى تسـعة وعشـرين (29)حـرف مـد في ثلاثة أبيات فـقط ، لدرجـة أنـه لا تكـاد تخلو كلمـة مـن حـرف مـد ؛(أنشـــودة – فـي – ضـميري- أواريهـا - مـا - شـفـــائـــي - إلا - أغـنـيـها- ولى - الشـتاء- نفـسي- في - كآبـــتها- إلا- في – نواحيها- كأنهـــا - في - نابـتة -لا - نـور- يغـمرها -لا - ماء - يسـقيها) فأصواتها تمنح الكلـمات بعـدا تنغيميا بفرصـــة إطالتها عند القـراءة والإنشـاد أكثر من الصوامت ، وبخاصـة التي تكون دلالـتها محـورا في النص مثل(أواريها) التي حـــوت ثلاثة حروف مـد .

- حـــرف الشيـــن ، ذي الصـوت الانتـــشاري (**) المعتمـد علـى مـــد الـواو فـي "أنشـــودة" وهي فاتحـــة النص ومـركز عنوانـــه، وهو صوت هامس ممـدود ، مما يشـير إلـى الرغبـــة في الجهـر ورفـع الصوت ؛الممثل في أصوات كل من حرف ؛الهمـزة ، والدال،والتاء وهـي أصـوات شـديـدة ، الأمـر الـذي يـفسـر صـراع الفرحـــة والألم صوتيا فالإنشـــاد لا يكـون همـسا أبـدا .

- الأصـوات الصفيرية(***) وهي(ز، س، ص) التـي تعـطي شحـنات من الصـــليل وطاقة تعبيـرية عـن دلالات الصـدى في المقطـع لأنهـا أصـوات « تتميز بالحـدة وشـدة الوضـوح السمـعي واحتكاكـيتها »(1)،وهـذا يؤكـد رغبـة البوح من جهـة وتعـذرها من جهـــة ثانيـــة.

---

*- سبقت الإشارة إليـها في قصيـدة (لبـنان) في عنصـر " الـوطـن الأم " ص: 72 .

**- الشـين حـرف ذو صـــوت انتشـــاري تمـــددي ،ويعبـــر عـن هـذه الصفـــة بالـتفـشي، ينظـر : الأصوات اللـغوية ،ص : 274.

***- الصفير: صوت زائد يصـاحب خـروج أحرفه الثلاثـة ،الميسر في أحكام الترتيـل ، ص: 38 .

1- الأصوات اللغـوية ، ص: 274.

أما إذا نظـرنا في المقطـع الثاني الذي يصـور ويلات الحـزن في دلالات كلها ألم وأسى فإننـا نجـد – مـرة أخرى – قـدرة الأصـوات اللغـوية على البـوح بالدلالات الضمنـية المتماشـية مع الدلالات العامة للـنص،كما في هذين البيتين:

حكـاية أتقـلى حين أسمـعـها -*- ويأكل الحـزن قلبي حين أرويها

وارحـمتاه لأوربا فـما فـتكـت -*- أفـعى بأفعى ، كأهـليها بأهليها

- تـوالـي حـرف الحـاء أربـع مـرات وهـو صـوت يـنـبئ عـن الحـرقـة وحـدة الـمعنى(وهـو الألـم هنا) رغم أن الحـاء ذات صوت هامـس رخـو، ممـا يـؤكـد عمق الألـم الـذي يسـكن الشاعـر بفعل مأسـاة الـبشـرية .

- حرف الـفاء أربع مـرات ، والهاء خمـس مرات ، في البيـت الثانـي ، وهمـا صوتـان هامسـان ، رخـوان ، يعـبران عن درجـة التعـب الذي نـال من الشاعـر بـفعـل المأسـاة. مدعـومين بتكـرار حـرف المـد الألف الـتي تنبـئ عن دلالـة الاستـغاثـة المحـققـة في (وارحـمتاه).

أما في المقطع الأخيـر من النص فالبيتان :

يا نفـس سـري، ويا أنشـودتي انطـلقي -*- من عـلم الصـمـت،إن صـمت يـؤذيها

أيـشرق الأفـق لم يطـلع كواكـبه -*- وتجـمل الأرض لم تخـرج أقاحيها؟

يمـثلان فـي بعـض أصواتـهما دلالـة بدايـة القـوة التـي كانـت مفتـقـدة ، وعـاد الشـاعر فاسـترجعـها ليعـيش فرحـته ويندمـج فيها ، مثل:

- بعـض حروف القـلـقلة الموحيـة بدلالة الحركـة والاضطراب ،فـ« القلقلة اضطراب اللسان عـند النـطـق بالحـرف حتى تسـمع لـه نبـرة قويـة.. وحروفـها خمسة جمـعت فـي عبـارة" قطـب جـد"»(1) ويتجـلى ذلك في أصـوات الدال ، والـطاء والقاف ، التـي هـي فـي الـوقت ذاته أصوات شديـدة ومجهورة أيـضا ، نجدها في (أنشـودتي) التي تعيدنا إلى فاتحـة

1- الميـسر في أحكـام الترتيل ، ص : 38 .

القصـيدة ،ونجـدها في فعـل الطـلب الناقـل لـدلالة التحـريك والحـيوية (انطـلقي) فالطاء والقاف يعبران عن انفجـار طاقة الإنشـاد ، وشـدة الفـرح الذي كان ممتنـعا ، فصـار ممكـنا ، هـذا فـضلا عن كونـهما صوتـين من أصـوات حـروف الاستعلاء(مع إضافـة الصـاد لهـا) والاستعـلاء يعنـي الارتـفاع : « حيـث يرتـفع معـظم اللـسان عند النطـق بهـا»(1) مـا يـؤكد تغـيـر نبـرة الشاعر، الناتـج عن تحـول نفسيـته إلى الفـرح الـذي صـار قـادرا أن يعـبر عليـه وهذا مـا يتضـح أكـثر في البيـت الثـاني ، في الكلمـات: (أيـشرق- الأفـق - يطـلع - الأرض - أقاحـيها) ، لتأتي خلاصـة النص ممـثلة مفـسرة لكل الدلالات السابـقة ومحققـة لها في قـوله: (هـذا هو العيـد) . مع الإشـارة إلى توالي أساليـب الطلـب المتـنوعة في خاتمـة النص تأكيدا على فعـالية الشـاعر وحيـويتـه،وتجاوبه مع الفـرحة بعـد أن كان مكتفيـا بدور السارد المخبـر، فها هو ينادي (يا نفس ، يـا أنشودتي، يا شـعر ، يا قـلب،) ويأمـر(سـري ، انطلقي ، هـلل ، حـييها) ويسـتفـهم (من..؟ أيـشـرق ..؟ ، وتجمـل..؟) بـعـد أن كـان يـؤدي دور المتفـرج المحايـد المتفـرغ لأداء الوصـف والـسرد .

- ب- أنـا :

تصـور قصيـدة (أنـا) شخصـية أبـي ماضـي بوصفه إنسـانا أولا وأخـيرا ، خـارج حدود الإقليـمـية أو الانتماء لمكان أو الولاء لهـوية بذاتـها ، فلـيس فيها أية إشارة إلـى لبنـان أو العـروبة أو إلـى أي تحـديد زمـاني ..إنـها وصـف للـذات مـن جهـة إنسـانيتها ، ومـن منـظور أنـها ذات بشـرية لا غـير..

يقول الشاعر في قصيـدة (أنـا) :

حـر ومـذهـب كل حر مذهـبي -*- ما كـنت بالغـاوي ولا المتعصب
إني لأغـضب للكـريم ينـوشـه -*- من دونـه ،وألـوم من لا يغـضب

1- السـابق ، ص: 36.

وأحــب كل مهـــذب ولـــو أنــه -*- خصــمي، وأرحم كل غير مهذب
يأبى فـؤادي أن يمـيل إلى الأذى -*- حب الأذيـــة من طـباع العــقرب
لــي أن أرد مســـــاءة بمـــساءة -*- لو أنــني أرضـى بـــبـرق خـــلب
حسب المــسيء شعـــوره ومقاله -*- في ســـره؛يا ليتـــني لم أذنـــب
أن لا تغشـــني الطـيالس والحلى -*- كم في الطـيالس من سقـيم أجرب
عـينـــاك من أثـــوابه في جـنـــة -*- ويـداك من أخـــلاقــه في سـبسب
وإذا بصــرت،بصــرت بأشــمـط -*- وإذا تحـدثه تكـشـــف عن صـبي
إنـــي إذا نــزل الـبلاء بـصاحـبي -*- دافعت عنــه بنــاجذي وبمخلـبي
وشــددت ساعده الضعيف بساعدي-*- وسـترت مـنكبه العـري بمـنكبي
وأرى مســاوئـه كأنـــــي لا أرى ، -*- وأرى مـحاسـنـــه وإن لـم تكـتـب
وألــوم نفــسي قبلــه إن أخـطأت -*- وإذا أســـــاء إلـــي لـم أتعـــتـب
متـقرب من صاحبي فـإذا مشـت -*- في عطـفه الغلـــــواء لم أتـقرب
أنا في ضميري ساكن في معـقل -*- أنا من خـلالي ســائر في مـوكب
فـإذا رآني ذو الغـبـــاوة دونـــــه -*- فكما ترى في الماء ظل الكوكب(1)

وخلاصـــة مضـمـون النص إعـلان الشـاعر عن بعـده عن التعـصب ، وتـرفعـه عن الرذائل ، وميلــه إلى أخـلاق التسامح والتضحيـة والتعـاون مع الآخرين من بني البشـــر ، ومساعدتـــه لهم ورحمـــته بالضـعيف مركـزا علـى معـاني الصـــداقة وكيـف يتصـــورها ، ويراهـا تتمثل في التـفاعل مع الصـديق والإحـسان إليـــه ومـدّ يد العـون لـه عنـد الحاجـة ومؤازرتـــه و الـدفـاع عنـــه باستمـــاتة وتفـــان ، وغض الطـــرف عن مســـاوئه ما لم يكن متـكـبرا، مؤكـدا أن رائـده هو ضمـيره الـــحي، وهـو ضابطـــه وموجـــهه، وأن تـــواضعه عنـــوانٌ لأخلاقـــه.

1- الديـــوان ، ص: 70 ، 71.

ـ سيميائية العنوان وهوية خارج الزمان والمكان :

عنوان النص هو عنوان الهوية للمتكلم بلسان حاله ، ملخـَّصا في ضمير الإفراد (أنا) ، والضمائر تجمع بين التعريف مع الإبهام(*) لعمومية دلالته ، فـ(أنا) لا تشير خارج النص إلى أبي ماضي أو إلى أي إنسان غيره ، إنما تدل على كل متكلم عن نفسه بلسانه، وإن جهلنا من يكون ،وإن كان المتكلم غير متكلم في الأصل (أي : مجازا) وافترضناه يريد الدلالة على ذاته لقال: أنا . وهنا تتخذ الضمائر صفة الإبهام. الأمر الذي يكسب العنوان صفة التجريد والمطلقية و العموم ، حتى تتلاشى تفاصيله ونكون أحوج إلى التعريف والتحديد.

وبالنظر إلى تركيب العنوان فهو اسمي (الضمائر أسماء) يحضر فيه المبتدأ ممثلا في الضمير (أنا) ويغيب الخبر على خلاف المعهود في العنونة الإسمية ، مما يمنح هذا العنوان قدرة تحفيزية ،و يكسبه الوظيفة الإغرائية(**) التي تضفي دافعية لاكتشاف النص . وبهذا يصبح بديلا لصيغة الاستفهام : من أنا ؟ غير أن الشاعر قدمه في صيغة إخبارية تقريرية لا تكتمل إلا بالنفاذ إلى عالم النص والتطواف في أرجاء معانيه وملامح دلالاته واحدة واحدة للخلوص إلى خبر المبتدأ (أنا) ، مما يجعل الجملة القصيرة أطول جملة يحتملها النص ؛ فهي تمتد بامتداده ، فالنص على هذا المحمل كله جملة واحدة ، وما يثبت هذا هو فاتحة القصيدة :

حـــرّ، ومذهب كل حر مذهبي

---

*ـ ما يكنى به عن متكلم أو مخاطب أو غائب ، فهو قائم مقام لاما يكنى به عنه ، مثل « أنا وأنت وهو» وكالتاء من« كتبتُ وكتبتَ وكتبتِ» وكالواو من « يكتبون» ، جامع الدروس العربية ، ج1 ، ص: 87.

**ـ للعنوان أهمية كبيرة في الدراسات الحديثة ، وله أكثر من وظيفة ، يمكن مراجعتها في بحث : « سيميائية العنوان في شعر الغماري» للباحث : عبد القادر رحيم ، جامعة محمد خيضر، بسكرة .

1- الديوان ، ص: 70 ، 71.

فلا مـحـل إعرابيًا لكلمـة (حـر) المرفوعـة إلا الخـبر لأنـها - دلالـة وتركيبـا ـ مسـند ، لمحـذوف يقـدر (أو يفترض) : أنـا .

لكـن لمـاذا نفترض المبـتدأ محـذوفا ، ما دام هـذا محـققا في العـنوان ؟ إن هنـاك تنـاغما كاملا بين العنـوان والنـص يمكـن إثباتـه من خلال تكـرار ضمـائر المتكلـم على اختلاف أنواعـها(*)، التـي تعتـبر أصـداء متنوعـة النغمـة واللـون لضمـير كلي جامع هو (أنـا) العنـوان، ممـا يحـدث علاقـة الانطبـاق بـين الطـرفين بحيث يصبحـان شيئا واحـدا الجـدول التـالي يوضح ذلك ويفصلـه :

فـنـيا	العنوان	النـــص
تركيبيا	الـمبتدأ	الخـــبـــر
دلاليا	المحور الدلالي	الحقـل الدلالي
أنـا		حـر- الياء في (مـذهـبي) - التاء في (ما كنـت)- الياء في (إنـي)-الضمير المستتر في(أغضب و ألـوم و أحب)- الياء في (خصمي)-الضمير المستتر في (أرحم)- الياء في (فؤادي و؛ لـي - و إنـني)- الضمير المستتر في(أرد)- الياء في (أنني)-الضمير المستتر في (أرضى) أنـا - الياء في (تغشيـني و إنـي وبصاحبـي)- التـاء في (دافعت)-الياء في (بناجـذي ومخلـبـي)- التاء في (شـددت)- الياء في (بساعـدي)-التاء في (وستـرت)– الضمير المستتر في(أرى،وألـوم)-الياء في (نفسـي و ؛ إلـي)- الضمـير المستـتر في (أتعتـب)- متقرب - الضمير المستتر في(لم أتقرب)- الياء في(ضميري)- ساكن - الياء في (خـلالي)- سـائر - الياء في (رآني).

*- الضمائر بحسب الدلالـة ،ثلاثـة أنـواع : للمتكلم والمخاطب والغائب. وبحـسب موقعـه من الإعراب: مرفـوع المحل ومنصوبه ومخفوضه(أي مجـروره) ، وبحسب اللفظ : مسـتتر وبارز ومنفصل ، شرح قـطر الندى وبل الصدى ، ص: 136 ، 137.

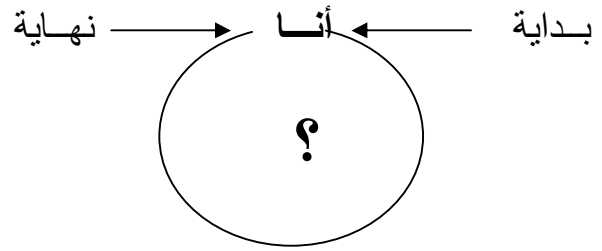

شـكل – أ-

عند قـراءة العنـوان فقط =

شكـــل – ب-

بـعد قـراءة النـص =

حـــــر،
غيـر غـاوٍ- غيـر متعصـب -
غيـورٌ على أذى الكـريم – أحـبٌ المهـذبين
مترفعٌ عن الأذى-أتجنبُ الإساءة لغيري- متسـامحٌ
لا تخـدعني المظاهر-أستميت في الدفاع عن صاحبي
وستـره - ومســـاعدته - أجـتـنبُ المتكبـرين -
رائـدي هو ضـميري الحي - وهـو رقيبي -
وأخلاقـــي الفاضـلة مـــلازمتي -
شـــديدُ التـواضع

الخـلاصــة :

- إن الشكل (أ) يمـثل منتـهى التعمـيمية في الـدلالة بحيث لا يُـفهـم ، سوى أن شـــخصا (أو طـــرفا مـا) يتـكلم عـن ذاتـه بلـــسان الضـمـير. ممـا يثـير الفضـــول فـي المـعرفة والاكتـشاف ، وعليـه فالطرف الأول الشـــكل الممثل في (أ) يؤدي الوظيـفة الإغـرائـية الدافـعـة للـقراءة.

- إن الشكل (ب) يمثل الـوظيفة التـقريرية الإخـبارية الوصفـية المكملة والشارحة لعمومـيات الشـكل(أ). ما يـؤكـد تكامل الطرفـين هو نفسـه تكامل عنصري المـبتدأ والخبر في الجملـة الإسـمية.

- إن خلاصـــة الشكلـــين تعطيـــنا محصلـــة بيانـات هويـــة الـنص ؛ ومـن ثـم بيانـات هـوية الشـــاعر (لتـطابق الـذات والمـوضوع (أنا).

وبقراءة سريعة لمحـصلة هـذه الـبيانات نجـد أن مجمـوع الصفات لا تحوي صفـة واحدة يمكـن حصرها في جـنس بشـري بعيـنه ، أو إقليـم أو وطن دون وطن ، أو عصـر من العصور ، أو مـلة من المـلل . وإنما هي الصـفات المـثلى في الإنـســان مـطـلـقا. ففي ؛ « قصيـدته (أنا) يعرض أبـو مـاضي نظريتـه في السلوك الإنساني الـمرتبـط بغايـة محـددة هـو الخيـــر للجمـيع. »(1) ممـا يـؤكـد نزعتـه الإنسانيـة ، ونظـرتـه الرحيـبة للإنـسان بوصـفه كائـــنا لا بـد أن يعيش كريمـا ، كما لا بـد عليـه أن يتحلـى بكل الأخلاق الحمـيدة والمُـثـُـل الإنســانية.

1- إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب ، ص: 229.

5- معادلات موضوعية للوطن:

لا يظهر موضوع الوطن في شعر أبي ماضي بصفة مباشرة تصور الوطن الأم أو الوطن الأمة أو الوطن العالم فحسب ، بل يمكن التماس الوطن مخفيا أو مرموزا إليه في عدة قصائد ،لا يفصح موضوعها عن الوطن بأي من وجوهه . لكن القراءة السيميائية لإشارات النصوص يمكنها فتح منافذ كثيرة تسمح برؤية مغايرة لها . وهذه القراءة لا تستبعد التأويل،وإن وصل الأمر إلى حد تجاوز القصدية ، أو القفز فوق ما يعلنه الشاعر نفسه صراحة ، بل إن هذه القراءة قد تذهب بعيدا فتتجاوز النظر إلى النص بصفته إنتاجا واعيا ، إلى وضع احتمال قراءة هذا النص من منظور اللاوعي ما توفرت القرائن النفسية والموضوعية لمثل هذا التأويل .

من هذا المنطلق تستوقفنا عدة نصوص لا تمت في ظاهرها بصلة إلى موضوع الوطن ، لكننا نجد فيها من التكثيف الرمزي والعلامات الدالة ما يجعلنا نعيد القراءة ونعيد فيها النظر ، ومنها قصيدة تصف زهرة بعنوان" السجينة".

أ- السجينة:

تصور القصيدة حال زهرة قطفها رجل ثري مولع بالزهور ، من حقلها نضرة مليئة بالحياة والجمال وأخذها ليضعها في مزهرية في قصره ، فتحولت من الحرية إلى السجن ومن الطبيعة إلى صناعة الإنسان فافتقدت الشمس والفراشات والحباحب(*) والغدير، ووجدت في القصر أسباب الرفاهية المصطنعة إلا أنها أخذت في الذبول وتناقص عمرها ، فيما كانت الطبيعة مليئة بالحياة والجمال في أجمل فصول العام ، يقول الشاعر:

لعمرك ما حـــزني لمال فقــدته -*- ولا خان عهدي في الحياة حبيب
ولكنـني أبكي وأنـــــدب زهـرة -*- جنـاها ولـــوع بالزهور لعوب
رآها يحـــل الفجـــر عقد جـفونها -*- ويلـقي عليها تـــبره فيـــذوب
وينفــض عن أعطافــها النور لؤلؤا -*- من الطل ما ضمت عليه جيـوب

*- حباحب : حشرات تطير في الليل ، وفي طرفها ضوء صغير كالشعاع.

فعالجــها حتى استــوت في يميــنه -*- وعــاد إلى مغـناه وهو طـروب
وشاء فأمسـت في الإنــاء سجيــنة -*- لتشــبع منــها أعيــن وقــلوب
ثوب بين جــــدران كقلب مضيمها -*- تلـمــــس فيــها منـفذا فتخيــب
فليست تحيي الشمس عند شــروقها -*- وليسـت تحيي الشمس حين تغيب
ومن عصبت عينــاه فالــوقت كله -*- لــــديه وإن لاح الصباح غروب

--*-*

لها الحجرة الحسـناء في القصرإنما -*- أحــب إليــها روضــة وكثـيب
وأجمل من نور المصابيــح عنــدها -*- حباحب تمضي في الدجى وتؤوب
ومن فتيات القصر يرقصــن حولها -*- على نغــمات كلهـن عجــيب
تراقــص أغصــان الحديقــة بكرة -*- وللريـح فيه جيــئة وذهــوب
وأجمل منهن الفراشات في الضحى -*- لهـا كالأمــاني سكنـة ووثــوب(1).

إن قـراءة هذا النص وتأمـل أدواته التعبيرية ،وبنـاءه الفني ، علـى ضـوء مـا سبــق عندنا من معطيات حول حياة الشاعر وملابساتها ، إن هـذه القراءة تسلـمنا إلـى طرح سـؤال جـوهري لا ينقص من إعجابنا بــهذا التعاطف مع حال الزهـرة والرثــاء لهـا ، هو : هل كـان الشاعر يصف زهــرة فعلا ؟

لم يكن الشاعر يصف في الزهـرة إلا نفســه ، فهـي المـظهر الطبيعـي المثـالي لمعادلـة الذات الشاعرة ، وهـي المـرآة الفنـية الصقيلة التـي تعكـس لنـا صـورته ، (وربمـا تعكسـها لـه أيضا) وتمنـحه الريشة الحاذقة التي تجنـبه الخطاب المباشــر، وتحمل عنــه حـرج استعمـال ضـمير المتكلم (أنـا أو مـا يعبـر عنهـا) ليظــهر أمامنـا فـي هيـئة المتماسك الحكيـم الملاحـظ للطبيـعة ومظاهـرها والمتأمل في أسـرارها المتـعلم من كتابها المفتوح ،في ثوب من الشفــافية الرومانسيــة والرقة الإنسانية ومشاعــر الرحمة والعــطـف والرثاء.

فالزهـرة مظهـر طبيعي استوقف الشــاعر وفتح خيالــه ، ومنــحه مجالا لـرؤية ذاته

1- الديــوان ، ص: 62 ،.

السـجينة فـي الغربـة ، ومـا الافتـتاح الحـزين البـاكي لحـال الزهـرة إلا قرينـة تؤكـد قـرب المـوضوع من الشاعر لدرجـة التـوحد :

لعمـرك ما حـــزني لمال فقـــدته -*- ولا خان عهدي في الحياة حبيب

ولكنـني أبكي وأنـــــدب زهـرة -*- جنـاها ولـــوع بالزهور لعوب

وفي الخاتمـة أيضا يتحـقق ذلك :

أيا زهـــرة الـوادي الكئيـبة إنـني -*- حزيـــن لما صرت إليه كئيـب

فهو كئيب لأنها كئيـبة ومـا الاشتراك في الصفة (ولفظها) إلا اشتـراك في الحـال والمعانـاة والأسباب،بل إن الشاعر زاد على الزهـرة بوصف نفسـه بالخبر(حزيـن)لأن المعانـاة الحقيقيـة عنـده.

ـ سيميايـة العنـوان: ذات شـاعرة على صفحة الطـبيعة:

يتكون العنـوان في بنائه التركيبي الظاهر من لفظ واحد (السجينة) وهو اسم مفعـول وهو : « صفـة تؤخـذ من الفعـل المجهول للدلالـة على حدث وقـع على الموصـوف بهـا على وجـه الحـدوث والتجـدد.»(1) مشتـق من الفعـل(سجـن)،لكنـه جاء بصيغـة (فعيـل) وهـي إحدى أوزان اسم المفعول ؛ « ينوب عن "مفعـول" في الدلالة على معنـاه أربعـة أوزان (منها): فعيـل : بمعنى مفعـول ، مثل قتيل وذبيـح.. كمقتـول ومذبوح.»(2)،و يؤدي هذا اللفظ (لفـظ العنوان) وظيـفة الإخـبار لمبتدإ محذوف.

أما البنيـة العميقـة للعنـوان فإنها ؛(هـذه ،السجينة) فغياب اسم لإشـارة مُبَرر لحضـوره في الخبر ، ولأنه يفتـرض بالبداهـة. وعليـه فبنية العنوان اسميـة ، وتركيبـه يبـرز مفارقـة الذاتي والموضوعي ، والبنيـة العميقـة للعنوان كالتالي :

	المحـذوف (الفظ الغائـب)	الحـــاضر
	الموضوع	القضية
الحضور	هـــذه	السجيـنة
الغياب	أنـا (الشاعر)	**السجيـن**

1- جامع الدروس العربية ، ج 1 ، ص : 135.
2- السابق ، ص: 136

أما البنيــة الظاهـــرة فهـي هكـذا : السجيـنة.

لقـد قام الشاعر بعملية إســقاط بارعـة تَـخَـفّـى وراء ستارها وعـدل عن الشكـوى المباشـرة ليظهـرها (وربمـا لتنبـجس لوحدها من غير إرادتـه) فـي إطـار موضـوعي يجعل ذات الشـاعر مفصـولة ماديـا عـن الموضــوع (الزهــرة) ويُـقـِّـع المعنـى ليحـدث انزياحـا لطيفا،ومراوغـة فنيـة تقوم على مشابهة غير معلنة؛ تعطيـــنا ظاهـرا من القول ، وتحـقق لـه رغبـة دفينـة في التخلص من الغـربة ؛« فالرغبة الحبيسـة تستقـر في مملكة اللاوعي من عقل الفنـان أو الأديب(الإنسان عمـوما) لكنهـا تجـد لنفسـها متنفسـا ، أو قد يسمـح لهـا الرقيـب بـأن تشبـع نفسـها خياليا من خـلال صيغ محرفة وأقنعـة من شـأنها أن تخفـي طبيعتهـا الحقيقيـة ، وتخفـي موادها عون الأنا الواعية.»(1)

ـ معجم النص بدلالات الحضور والغياب :

اللفظ الحاضر	الدلالة الغائبة
زهـــرة	الشـاعــر(باعتباره رومانسيا)
جـنـاها (قطفـها)	قضى عليها وفيــها إحالة على(الجناية) والجرم للاشتراك اللفظي
ولوع بالـــزهور لعوب	الزمـن أو ظروف الحياة ، وهذا يتأكد في نهاية النص: ولكنها الدنيا ولكنــه القضا -*- وهذا لعمري مثل تلك غريب
يحل الفــجر عقد جفونهـا	بداية العمر= هجرة الشاعر في طفولته
فأمســت	أواخـر العمـر
في الإنـــاء سجيـنة	سجـن الغربة = البـعد عن الوطـن
ليســـت تحيـي الشمس	افتقـاد الشعـور بالحرية + افتقـاد طبيعة لبنـــان
عنـد شـــروقها	بداية عمـر الشاعر+ لبنـــان في المشرق ، وفي هذا تناص اجتراري مع قوله في قصيدة(يا رفاقي): أيها السـائل عـني من أنا؟-*- أنا كالشرق إلى الشمس انتسابي(2)
ومن عَصُبَت عيناه = حجبت	البعد والغربة = عدم رؤية الوطـن = عمـى
فالوقـــت كلـه	العمـر كله
غـــروب	نهـاية ، مـوت ، غربـة واغتراب(أمريكا تقع في غرب لبنان)

1- دليـل الناقـد الأدبـي ، ميجان الرويلي وسعد البازعي ، ص: 226.
2- الديـوان ، ص : 74 .

اللفظ الحاضر	اللفظ الغائب(الدلالة الحاضرة)
لها الحجرة الحسناء- نور المصابيح فتيات القصر يرقصن ، نغمات ..	رفاهية أمريكا ، وجود مظاهر المدنية والحضارة مُحققة في لام الملكية (لها)
حباحب – الدجى – الفراشات –الضحي – العشب الخضيل – فضاء – الشهب – نسيم الربى – قليل الطل(الندى) – ميسور الشعاع	مظاهر طبيعة لبنان الجميلة ، التي يتمناها الشاعر ويتوق إليها
تـحِــن(*) (الحنين فعل لا إرادي ، ينبع بدوافع الافتقاد الدائم ، الغربة ،الافتقار،الاحتياج ، العوز)	الرغبة الملحة لرؤية المكان(وهي مستمرة بدلالة المضارع المفتوح على المستقبل)
تُحْـرَمُ (يلاحظ بناء الفعل المضارع للمجهول مما يؤكد القهرية)	قهر الغربة ، قهر الزمن والظروف..(مع استمراره بدلالة المضارع)
ذبول – لهيـــــب - الضـنى	مظـــاهر المـرض والمـوت ، العجـز ، اليأس
أيــار(مايو) في الحمـــى	في أوج العمر وقوة الشباب= الحياة والتدفق والإثمار والعطاء لأن (ماي) شهر الماء

ووفـــــق هذه القراءة تكون القصيدة مجمـوعة هائلة من الانزياحات الصغرى تتحقق بتآلفها وتضافرها الصورة الكاملة لحالـــــة الشاعر في الغربة ،ومعانـاته في وحدته بعيدا عن وطنـه ، مع ملاحظة أن الصورة المستعارة هي عبارة عن لوحـة طبيعيـــة متكاملـة العناصـر تحقق رومانسية الشاعر، وتؤكد نــزوعه نحو الطبيــعة التي يجــد فيها صورة ذاتـه: « والطبيعة مَعِين الرومانسييـن الذي لا ينضب ، فهم ينشـدون السلــوان فيـها ،وهـي مهـربهم يبثــونها أحزانـهم ، ويناظرون بين أحاسيسهم ومظاهـرها.»(1) ولهذا يعتبرها الرومانتيكي مثال الكمال فيـتخذها أدوات فنـية تستجـيب لخياله وأبعـاد ذاتـه ووجدانـه:«الرومـانتيكي ذاتـي فـي صـوره، يصف الطبـيعة والأشياء من خلال ذاته، فنفســه مرآة لما حــوله ومن حـوله.»(2)

ورغم أن أبـا ماضـي أصر أن يظهر فـي (السجينــة) بمظهـــر العطـوف الرحيم ذي القلب الكبير والمشاعر الإنســـانية النبيــلة العلـيا وكل مثل الرومانسيين ليلخص لنـا فلسفتــه في الحياة، إلا أنـه- ومن غيـر قصـد- كشـف لنـا نفسـه؛وهـذا مـا تـؤكده قـــــراءة الشـاعر

*- ينـظـر؛ مفهوم الحنين في الفصل النظري : ص: 19 ، 20.
1- النقد الأدبي الحديث ، محمد زغلول سلام ،منشـأة المعارف ،الإسكندرية ،مصر،1981، ص:127.
2-الأدب المـقارن، محمد غنيـمي هـلال، دار العـودة ودارالثـقافة ، بيروت، لبنان ، ط 5، ص: 384.

صلاح عبد الصبور؛« رجـل كشـــف لنا نفسـه رغم أنه أراد أن يكشـــف لنـا عقـله،وقـــدم لنا الإنســـان رغـم أنه أراد أن يقـدم لنا الحياة.»(1)

وبناء على ما سبق يتأكـد لنا أن الشاعـــر مسكون بالوطـن ، فهـو يعبر عنه صراحـة مباشـرة تـارة ، ويعبـــر عنـــه ضمنـــا تـارة أخرى في غير مـا شـــكل فني ، وفي غيـــر مـا مناسبة ، وفي أشكال شعريـــة شتـــى.

ب- **العليـقــة**(*) **:**

تمـثل قصيـدة العليقـة نموذجا ، من نمـاذج عـدة ، في شعـر الطبـيعة عند أبـي ماضـي ، الذي يعتبر إحـدى مميزاتـه الشعريـة ، والقصيـدة تتـخذ منـحى قصصيا ككثير من قصائـد الشاعــر، تطــرق فيهـا إلـى وصـف شجـرة العـليق التـي حاولـت التمســك بـه والالتصــاق للنــيل منه وإيــذائه واســتلابه. يقـول الشــاعر :

ذات شـوك كالحـراب ، أو كأظـفار العُـقابِ
ربضت في الغـاب كاللص ، لفتـك واسـتلابِ
تقطـع الـدرب على الفـلاح والـــمولى المهابِ
صنت عنها حـــر وجهي ، فتـصدت لثيـــابي
كلـــــما أفلـت من ناب ، تـلـقـــتـني بـــنابِ
فلـــها نهـــش الأفـــاعي ، ولها لســـع الذبابِ
وأذاهـــــا في سكـون ، كأذاها في اضـطرابي
وهي كالقـيد لساقي ، ولجـــيدي كالســـخابِ
فكـأنا في عنـــــاق ، لا نضـــال ووثـــــابِ

--*

*- العلـيق ؛ « هـو نبت يتـعلق بالشـجـر ويتلوى عليـه» القـامـوس الجـديد ، علـي بـن هادية وبلحسن البليش و الجيلاني بن الحاج يحيى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجـزائر، ط 7 ، 1991 ، ص : 695.
1- نبـض الفكـر ، ص : 60.

قلت : يا ســاكنة الغاب ، ويا بـنت الــترابِ
لا تلـجي في اجـتـذابي ، أو فـلجي في اجتذابي
إن عــودًا فيه ماء لـيـس عـودا لاحـتــطابِ
أنا في فـــجر حـياتي ، أنا في شــرخ شـبابي
الهــوى ملءُ فـؤادي ،والصبى ملء إهــابي
والمــنى تـنـبت في دربي ،وتمـشي في ركابي
أنا لم أضـجرْ من العيــش ولم املل صحابي
لمْ أزلْ ألمحُ طـيف المجـدِ حتى في السرابِ
لمْ أزلْ أستـــشعرُ اللـذة حتى في العـذابِ
لمْ أزلْ أستـشرفُ الحسنَ ولو تحـت نــقابِ

*_*_*

ما بنـفسي خشــية الموت ولا منه ارتهابي
أنا للأرض وإن طال عن الأرض اغـترابي
غير أني لــم يَزلْ ضرعي لمـري واحتلاب
لم أهَـبْ كل الذي عندي ، ولم يفرغ وطابي
أنا نهـر لم أتــممْ بعـدُ في الأرض انـسيابي
أنا روض لـم أذع كـل عـبـيري ومــلابي
أنا نـــجم لم يُمـزق بعـدُ جلـبابَ الضباب
أنا فــجرٌ لم تـتــوّجْ فضـتي كل الــروابي
لي رغــابٌ لم تلـدْ بعــدُ فـتبلى بالــتباب
وبنفـسي ألـفُ معـنى لم يُضمن في كتاب(1)

1- الديــوان ، ص: 77 ، 78 ، 79 .

من الـواضح أن النص قد جاء في سياق قصـصي يعبر عـن معنـى عـام ، مـركـزه نبتــة " العليـق" ويـقدم لنـا دلالات كليـة ، يمـكن إيجازها في العبارات التالية :

- ترصـد العليـقة للشـاعر ومحـاولة اجتـذابه.
- مقاومـة الذوبان .
- مقـاومـة اليأس ، وثبــات الأمــل.
- مقــاومــة المنـع ، وثبــات العطــاء.

لكـن مـا يستـرعي الاهتمــام في هـذا النص ، هـو عامل الغرابــة المتـولـد من طبيـعة القصيـدة ، والذي يلخصــه السـؤال التالي :

مــا الذي أعجـب الشـاعر في هـذا المظـهر الطبيعي ؟

فهــذه النبــتة لا تمتلك أي مظـهر جمــالي ، علـى الأقـل من منـظور الشـاعر الذي وصفـها وصـورها في نصـه وألحـق بها دلالات الـقبـح المعـنوي ، وأضفى عليها نـزعـة الشـر .

ومـن الـوارد جـدا أن يتصـور القارئ أن القصيـدة تتنــاول نبات "العليــق" تنـاولا رمـزيا تعليميــا فيـه نـزوع إلى الحكمـة .

قـد يكـون ذلك واردا فعـلا ، لكـن الشـاعـر وضـع نفـسه هـدفا لاعتـداء "العليقـة" ، وراح يقــاوم أذاهـا ، وهـا ما يزيـد في غرابـة النص إذا أخـذناه على مـأخـذ شـعر الحكـمة ؛ فالمـفترض فـي شـعر الحكمــة كمــا فـي كــثير(*) مـن قصـائد الشاعــر أن يكـون بطـرح موضـوعي ، يتجنـب فيــه الشاعـر تصـوير عواطـفه ووجـدانه الخـاص بقـدر مـا يلـح علـى تصـوير فكـره وعـرض عقلــه علـى القـارئ. إن انـصراف الشـاعر إلـى كشـف صراعـه مـع "العليـقة " يـدفع إلى إعادة قـراءة النـص على محمـل جـديد ، ليس من الضروري أن يـناقض أو يعــارض التفــسـير الفكـري لأبعــاد الـنص وفــق القـراءة المباشــرة المعتــادة ، وإنــما يضيف فرضيـة جـديـدة وفـق النـظرة السيميــائية التي تعـدل عن تقبـل الدلالات السـطحية ؛ فالشــاعر بقصـد منــه أو بدافـع غـــــير مقصـود (لا شـــــــعوريا) قـام بعمـلـية نقـل

*- مثل قصيدة "الـتينة الحمقاء " الديــوان ، ص: 174 ، وقصيـدة "الطيــن" ،ص : 163

للمعنى : « ويتم النقل عندما تغير الدلالة معناها إلى معنى آخر، أي عندما تنوب كلمة عن كلمة أخرى كما يحدث في الاستعارة والكناية.»(1) وحقيقة ما وقع أن الشاعر أحدث انزياحا كليا ،مال به عن ذكر الحقيقة التي كانت ستبدو ذاتية جدا، فمنحها - فنيا – صبغة تبدو مقنعة و موضوعية :

- معجم النص ؛ حضور المجرد في دوال الطبيعة الماثلة المتحركة :

إن " العليقة " ما هي إلا مرآة طبيعية انزاح بها الشاعر عن الإفصاح الصريح بالقصد الذي يريده ، مما يكسب النص شعرية عالية تشد القارئ وتوفر له ثراء دلاليا ومعرفيا يحرك طاقته التخيلية؛ إذ العليقة ليست سوى المظهر الطبيعي (في النبات) للغربة ، وهي المفهوم المجرد الذي سيبدو جامدا مُعَلبا لو أن الشاعر صرح به مباشرة . وبهذا يصبح العنوان هو: الغربة ، و يكون ذلك شبه مؤكد لو أثبت متن النص قرائنَ فنيةً وإشاراتٍ تدل على ذلك :

اللفظ الحاضر (المتحرك)	المعنى الغائب (المجرد)	القدرة الفنية والجمالية
ذات شوك – ربضت – كاللص – تقطع الدرب – لها نهش الأفاعي – لها لسع الذباب – كالقيد – كالسخاب	صور الغربة التي هي معنى مجرد ، وشعور إنساني عند الابتعاد عن الوطن	إضفاء الشكل على المعنى المجرد والحركية وطباع الكائنات الحية .
الغـــاب	المهجر مجردا ، أي حيز الهجرة بمعناه المطلق ، وليس المهاجر الأمريكية بذاتها.	مماثلة دينامية لأوجاع الهجرة وآلامها بمخاطر الغاب : ربضت، الأفاعي..

إنها الصورة الطبيعية المقاربة لمعنى الغربة التي تسلب الأجنبي (الغريب) وتعلق به بغية إذابته ، ولو بدت في صورة المعطِي المتفضِّل ، أي ولو ظهرت بمظهر الإيجاب

1- السيميائية ؛ أصولها وقواعدها ، ميشال آريفيه وآخرون ، ترجمة : رشيد بن مالك ، منشورات الاختلاف ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر، 2002 ،ص:54 .

والصـورة الجمـالية ـ في بعـض مظاهـرها-على من تعتـدي عـليـه :

وأذاهـــا في سكـون ، كأذاها في اضـطرابي

وهي كالقـيد لساقي ، ولجـــيدي كالســـخاب(*)

فكـأنا في عنـــاق ، لا نضـــال ووثـــاب

وهـكذا فقد يكـون الأذى في منتهـى السكـون ؛ أي غيـر معلـن ، أي ضمنـيا. بل قـد يكـون في صـورة جماليـة خادعـة (ولجـيدي كالســـخاب) ممـا يبيـن – ظاهـرا – التوافق والانسجـام (فكـأنا في عنـاق ، لا نضـال ووثـاب).

ـ تضـافر البنى التركيبية ونـزعـة العدوان طـبعا وفـعلا:

يـتشكـل المقـطع الأول من النص من تنـوع أنسجتـه اللغـوية بين التراكيب الإسمية والفعليـة ، التي تؤدي جميعا دلالـة الأذى في عـدة صـور:

التراكيب الإسمية	الوظيفـة	التراكيب الفعليـة	الوظيفة
ذات شوك كالحراب.. فلها نهـش الأفاعي ولـها لسـع الذباب وأذاها في سكون كأذاها. هي كالقيـد لسـاقي فكأنا في عنـاق	وصفيـة // // // // //	ربضتْ في الغـاب تقطعُ الدرب صنتُ عنها حـر وجـهي فتصـدتْ لثيـابي كلنا أفلـتّ..تلقتْـني..	ترصُّـــد ترصـد ومتـابعـة مقـــاومـة إصرار على الأذى //
النسـبة %	54.54	النسـبة %	45.46
الدلالـة العامة	تعريفيـة	الدلالـة العامة	سـردية ترصـد الحركـة
الوظـيفـة	كشف حقيـقة الموضوع وماهيته	الوظـيفـة	ممـارسـة الأذى والاعتداء عمليا

وهـكذا يصـور الشاعر طبيعـة موضـوعـه موظفـا التركيب الإسمـي متفاعلا مع التركيب

*ـ الجيـد : العنق ، والسّخـَاب : قـلادة من قرنفل أو ما شـابه ، لـيس فيها لـؤلؤ أو جـوهـر.

الفـعلي لغايـة واحـدة تسعى إلـى تمثيل الـدلالات المجـردة (دلالات الغـربة وآلامهـا) فـي صـورة مستقـاة من الطبيـعة الحيـة المتحـركة . فالجمـل الإسميـة المعـبرة علـى معـنى الثبـات والديمومـة، وظيفتـها كشـف طبيـعة المـوضوع ، بينـما تقـوم الجمـل الفعلـية بـدور الإيـذاء والاعتـداء بكيفيـة يغلـب عليهـا أسلـوب القص ، يحـاول الشـاعر من خلالـه تقـديم قيـمة أخلاقيـة من خلال الدلالـة المُعلنـة للنص فهـو؛« يـسوق المـبدأ الأخلاقـي الـذي يريـد للنـاس أن يعتـنقـوه ويأخـذوا بـه ، فـي حكايـة شعـرية ، أو صـورة فنـية ، أو حـوار أدبـي، ويكسـو المعـاني الأخلاقيـة ثـوبا رومانطيـقيا لا يعـهدها النـاس أنهـا تلبسـه ، وتـظل نفسـه محـور هاتيك المعاني والصـور ...في وقت تظـهر به أنها نفس كل إنسـان .»(1) وهـذا الميـل عـن المباشـرة إلـى التمثيـل القصـصي بالطبيعـة ، أسـلوب فنـي يحقـق معادلـة المشـاعر موضوعيا للنـفاذ من التقريريـة إلى التصـويرية ؛ ممـا يتيـح الفرصـة للشاعر أن يتنفس فنيـا بكيفيـة أكـثر حرية تجعـل النص مفتـوحا على أكـثر من قـراءة وعلى أكـثر من تأويل . حتـى ولو سـلمنا بأن الشاعـر يؤدي مهـمة أخلاقيـة " تعليميـة" فما الذي يبقى منها شعريا ؟ « لا بـد أن تكـون المهـمة الخالـدة شيئا يتصـل بالشاعر نفسـه ، بطبيعتـه هو ، بمزاجـه وبنظرتـه الخاصـة إلـى مـا يحيط بـه من كائـنات.»(2) فالمـوضوع شـديد الالتصـاق بذات الشـاعر ، وتفاعلـه الوجـداني يثبت ذلك ، ممـا يسـمح لنـا بقراءتـه فـي ضـوء ظرف الشـاعر، وتحت إدراكنا لملابسـات حياتـه وما يلامسهـا.

ـ التركيـب الاسـمي لإثـبات الحـياة والشـباب :

ويفتتـح الشـاعر مقـطعه الثـاني من الـنص بحـوار بيـنه وبين " العلـيقة" ليعـلـن قـوته وتحـديه لها ، بما يملك من عـناصر الحـياة والشـباب والأمـل:

قلت : يا سـاكنة الغاب ، ويا بـنـت الـترابِ

لا تلـجي في اجـتـذابي ، أو فـلجي في اجتذابي

1- إيليا أبو ماضي ، عبد اللطيف شرارة ، ص: 50.

2- فـن الأدب ، توفيق الحكيـم ، دار الكتـاب اللبنـاني ، بيـروت ، لبنـان ، ط 2 ،1973 ، ص :211.

ليــقرر قوتـــه فــي تراكيــب اســمية غايتهــا إثبــات هويتِــه المقاومَــة ، والقــادرة علــى الحيــاة،والاستمـرار مزودة بطاقـة الشباب وشعلـة الأمل :

إن عـــودًا فيه ماء لـيـس عـودا لاحتــطابِ
أنا في فـــجر حـياتي ، أنا في شـرخ شـبابي
الهــوى ملءُ فـؤادي ،والصبى ملء إهــابي
والمــنى تـنـبت في دربي ،وتمـشي في ركابي

وثبـاتُ عناصـر القـوة ثـباتٌ علـى المقاومــة ، والاستــمرار وعـدم الخــوف من الـذوبان أوالضــياع ، ومن ثـم القـدرة على المـواجهـة ، والقـدرة على البـقـاء.

ـ صيـغـة النـفي وجـزم على استـمـرار الأمـل :

بينـما يوظف في المقـطع المـوالي صيـغة أسـلوب النفي لإثبات الاستمــرار بشــكل آخر، مستعمـلا الفعل المضارع مسبوقا بـ "لم "(*) للإخــبار عن ذاته والتعريف بها :

المــوضــوع	صفـــاته(بالنفي)		دلالـة التركيب	النتيجــة
أنـــا	لم	أضـجرْ	الجزم بنفي الضجر=	دوام الأمـل
	لم	أملل	الجزم بنفي الملل =	دوام الرغبـة
	لمْ	أزلْ	الجزم بنفي الزوال =	بقـــــاء
	لمْ	أزلْ	الجزم بنفي الزوال =	بقـــــاء
	لمْ	أزلْ	الجزم بنفي الزوال =	بقـــــاء
	ـ	ـ	نـفي قطعي لكل سلبيـة	+

وبأسلـوب نفي المعانى السالبة ؛(الضجر ، الملل ، الزوال) بواسطة (لم) يحقق الشاعر أقصى دلالات القطعيـة على أنـه مستمـر قوي يملك كل عناصـر المقاومـة من حياة وحب وشــباب وأمل .

*ـ لم من الجوازم الأربعـة لفعل مضارع واحـد ، وهي ؛ حرف نفي وجـزم وقلـب ، لأنهـل تقلـب زمـان المضار من الحال والاستقبـال إلى الماضي . ينظر: جامـع الدروس العربية ، ج2 ،ص: 300 .

ـ أشكال الثبات فنيا،وثبات العطاء :

يعود الشاعر في المقطع التالي إلى تعميم استعمال التركيب الإسمي في بداية كل بيت ، ليعقبه التركيب الفعلي المتمم للمعنى،في نسيج ثابت النمط تركيبا وترتيبا وإيقاعا :

المبتدأ	الخبر	تابع الخبر (نعت) في صيغة فعلية	الدلالـــــــة
أنا	نهـر	لم أتــممْ	بث الحيـاة(الماء)
أنا	روض	لـم أذع (1)	بـث العطـر(الانتشاء)
أنا	نـــجم	لم يُمـزق	بث الضياء و الهداية
أنا	فــجرٌ	لم تتــوّجْ	بث النـور و الهداية
/ /(*) فـعـ	0/0/ لاتــن	0/0//0/ فاعلاتن	ـ ثبات دلالـة البـث والعـطاء ـ ثبات التركيب الإسمي والنعت بصيغته. ـ ثبات الإيقاع الشعري (ماعدا في(1)

وحتى عند تغير ترتيب النمط التركيبي ، يبقى الشكل العام له محققا لعنصر الثبات ، لإضفاء قوة أخرى للدلالة الكلية ، التي تتضح معالمها في قول الشاعر:

لي رغــابٌ لم تلـدْ بعــدُ فـتبلى بالــتباب

وبنفـسي ألـفُ معـنى لم يُضمن في كتاب

فقوله (وبنفـسي ألـفُ معـنى لم يُضمَّن في كتاب) يؤكد أن الشاعر لا يقصد نفسه في النص ذاتا مطلقة (أي الذات الإنسانية المفترضة) تقاوم الفناء (ممثلا في العليقة) ، وإنما يقصد ذاته الحقيقية بخصوصيتها (يقصد شخصه أبا ماضي الشاعر) يقاوم موته في موت هويته بفعل الغربة،وما "المعاني "التي يريد تضمينها في كتاب إلا معاني الشاعر

*- غالبا ما تخفف (أنا) في الشعر وتنطق (أنَ = //) كما في قول أبي العلاء المعري :
ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل -*- عفاف وإقدام وحزم ونائل

التي يتـوق إلـى تحـقيـقها شـعرا ؛ فالشعـراء دائما يحلمـون بقصيـدة جديـدة (لـي رغـاب) تكـون هي الأجـمـل ؛ فالشـاعر لا يفـرغ من قصيـدة كان يتوقعها الأفضـل ، حتى يعـود إلى الحـلم بقصيـدة جـديدة ، وكل شاعـر يـرى أن قصيـدته المثـلى لم تـُكْـتَـب بـعـدُ.

ج- الحــجــر الصـغيــر:

سمـع الـليل ذو النجــوم أنـينـا -*- وهـو يغشــى المـدينــة البيـضــاءَ
فانحنى فوقها كمستـرق الــهمـــــــــس, يـطيل السكـوت و الإصـغــاءَ
فـرأى أهـلها نيــامـا كـأهـل الـــــــــكـهـف ,لا جلبـة ولا ضـوضـاءَ
ورأى السـد خلفها محكم الــبنـــــــــيان , والمــاء يـشـبـه الصـحراءَ
كان ذاك الأنين من حجر في الـــــــسـد , يشــكـو المـقـادر العــمـيــاءَ
أي شأن - يقول- في الكون شأني؟ -*- لســـت شيـئا فيه ,ولست هبـاءَ
لا رخـــام أنا فـأنحـــت تـمـــثـا -*- لاً, ولا صـخـرة تـكـون بـنـــاءَ
لست أرضا فأرشـــف الماء أو مـا -*- ءً, فـأروي الـحـديـقـة الـغـنـــاءَ
لســت درا تنافس الغــادة الحـســـــــــناء فيـه , المـلـيـحة الحـسـنـــاءَ
حـجـــر أغـبـــر أنـا و حـقـيـر -*- لا جـمـال ,لا حـكـمـة ,لا مضـاءَ
فلأغادر هـذا الوجــود و أمـضي -*- بـسـلام , إنـي كـرهـت الـــبقـاءَ
وهوى من مكانه وهو يشـكو الـــ -*- أرض و الشـهب و الدجى السماءَ
فتح الفجـر جـفـنه فإذا الــطـــــو -*- فـان يـغـشى المـدينـة البيـضـاءَ(1)

تسـعى قصـيـدة الحجر الصغير إلى أن تقدم دلالة ظاهرة لا يجد القارئ العادي عناء كبـيـرا في الوصـول إليها , وهـي :

وجـوب إيمان الفـرد بقيـمـته في الحـياة وعـدم التـخـلي عـن دوره مهـما رآه ضـئيلا .

وهي بهذا المعنى تحاول أن تكون تأكيدا لدلالات قصيدة "فلسفة الحياة" المشهـورة و التي يـقـول في بعـض أبياتها :

1- الديــوان ، ص : 56 .

إن شـر الجـــناة نـــفس يـــؤوس -*- تـتوقى قبـل الرحـــيل الرحـيلا
وتـرى الشوك في الـورود ،وتعمى -*- أن تـرى النـدى فـوقـها إكلـيـــلا
...
والـذي نـفـســه بغـــير جمـال -*- لا يـرى في الـوجود شيئـا جميلا(1)

مـع الإشـارة إلـى أن القصيدتيـن تشـتركان فـي بعـدهـما الإنسـاني , إذ أنهـما موجهـتان للإنسـان كائـنا من كان , خارج تحـديدات الزمان و المكان , و بعـيدا عن أيـة إقـليمـية أو قـومـية أو عـقيدة تحكم هذا الإنـسـان ..

- الانزياح الفني و المـعادل العـقلاني :

تقوم القصـــيدة في جـملتها على قصة بسـيـطة البـــناء في قالب شـعـري وتصـور - رمزيا - حجـرا يقع في سـد ضخم يحجـز ماء هائلا في ضاحـية مدينـة مثالية خالية من الشـرور , وفي لـيلة من الليالي , كان أهل المدينة نيـــاما نـوما هانـئا مـطلق الطمأنـينة و الهـدوء , وإذا بالليل يســمع شكاة مؤلـمة تنـطلـق من ذلك الحـجر الذي كـان يندب حـظه و يرى أن لا قيـمة له في الحياة ؛ فلا فائـدة ترجى منه ولا نـفع (حســب ما يعتقد) ، وليس فيه بعـد جمالي أو شعوري أو قيـمة إنسانـية يمكن الاعـتزاء بها , - و بالتالي - الاطمئـنان إلى أنه ذو قيـمة مـا في الوجـــود ..و النتـيجة أنـه يـقرر الانســحاب من السـد لأنـه لا ينـفع فـــيه(كمـا يـرى) و يـفعل ذلك , ومـا إن يطـلع الفـجر حتـى تكون المـديـنة كـلها قـد غرقـت بفعل طـوفان عظـيم اكتسـحـها بفـعـل الثغـرة التي أحـدثها انـسـحاب الحـجر.

ومن الـواضح أن الحـجر رمز للإنسـان الذي يرى نفســه حـقيرا من دون قيمـة , و السـد رمز للمجـتمع , و المديـنة الـبيضاء رمز للحياة المـثالية .. لكن هذا التـفسـير الفوقي للنص - وإن كـان واردا جـدا في قصـد الشاعر لِـما عُـرف عـــنه من جـنوح للعـقـلانـية رغـــــم رومـانسـيـته - إلا أنـه تـشـوبه كـثـــير مـن الاختـــلالات و النـقـائص أهـمها:

1-الديـــوان ، ص: 320 ، 321 .

- أن الشاعر (أو النص) لم يبين سر احتقار" الحجر" لنفسه , أي أنه لم يقدم حجة موضوعية تجعل شعور " الحجر" مبرَّرًا و مقنِعا , فمن خلال النص لا يوجد طرف يمارس عليه أي نوع من الأذى أو التهميش.

- أن الوسط الذي وجد فيه السد، وسط مثالي كامل المثالية ، يسوده الجمال الشاعري (الليل ذو النجوم) و السلام (المدينة البيضاء) و الطمأنينة:

فرأى أهلها نياما كأهل الـــــــــكهف ,لا جلبة ولا ضوضاءَ

- لا مبرر منطقيا و فنيا لقوله:(يشكو المقادر العمياء) , ما دام أنه لا توجد سلبية واحدة في المجتمع أو الطبيعة أو العلاقات بين الناس ..

- نفي" الحجر" عن نفسه أن يكون" صخرة" : (ولا صخرة تكون بناء) مع أنه واقع في بناء ضخم يحجز ماء كثيرا (يشبه الصحراء) :

كان ذاك الأنين من حجر في الـــسد , يشكو المقادر العمياءَ

- استعمال الضمير(أنا) من قبل الشاعر للحديث نيابة عن الحجر في المقطع الأوسط (لا رخام أنا ... لست ... فلأغادر ...) رغم توظيفه لضمير الغياب(هو) الملائم للسرد القصصي(*) في المقطع الأول(سمع - فانحنى - رأى - كان ..) والمقطع الثالث(وهوى من مكانه وهو يشكو ..فتح الفجر)..

كل هذه القرائن التي تظهر إشارات فنية بليغة إذا نظرنا إلى موضوع النص بوصفه معادلا موضوعيا لذات الشاعر, فما الحجر إلا الصورة المستعارة لتمثيل ذاته, و المقربة لمعاناته في الغربة :

الحضور	الغياب (غير المعلن)	التخريج الفني
سمع الليل ذو النجوم	الليل حيز زماني (ذو النجوم) دلالته صفاء و هداية و شاعرية	الحياة الهانئة للشاعر في المهجر(لولا الغربة)

*- يقوم السرد الفني في القصة ، على استعمال الضمير هو(ضمير الغائب) لتصوير الأحداث ونقلها .

الحضـور	الغيـاب(غير المعلن)	التخـريج الـفـني
المدينة البيضاء	المجتمع المثالي	الشاعـر في مدنيـة الغـرب و كمـال الـنـمـط الأمـريكي (أو توقع الكمال في مجتمع الغرب)
..أهلها نيـاما كـأهل الكهـف(*)	طمأنيـنة.. انعدام الـشرور و استـمتاع بلـذة الـنـوم و الشعـور بالأمـن	عـدم الشكـوى من الـمـجـتـمع
الأنـيـن	الشعـور بالـغـربة	افـتـقـاد الـشاعر لأهلـه ووطـنـه = حـرمـان
الحـجـر	الـشـاعـر	تطـابق الحـال والشـعور
لا رخـام	شعـور بانعدام القيمـة الجمـاليـة	"التمثـال " إحـالة إلى فـن مـن الفنـون
لا صخـرة (لا بنـاء)	انعدام القيـمة المـاديـة	البـنـاء أساس التعمـير والتشييد والحضـارة
لـست أرضـا...لسـت مـاء	انـعـدام القـدرة على العـطاء والبث	الأرض = القوت والرزق المـاء = الإنـبات والحيـاة
لـسـت درا	ضـآلـة القيـمة المـادية والجمـاليـة	الـدر = مظـهر جمـالي ثمين(قيم)
لا أنـا دمعـة	انـعدام القيـمة الشـعورية الوجدانية الإنسانيـة	الـدمـع = رمـز رقـة العاطفـة والرحمـة والشـفـقـة
لا أنـا عيـن	انعدام الرؤيـة والقيـمة الجمالية	غـلاء العيـن = تقديمـها على جمـيع الحـواس + التغـزل بالعيـون في الشعر العربي لجمالها، ولكونـها من أدل الجـوارح على شخصيـة الإنسـان
لـست خـالا أو وجنـة حمـراء	انعدام مظـاهر الجمال البـشري	انعدام مظـاهر الجمال البـشري
حـجـر أغـبـر أنـا وحقـيـر	إنـسـان مهمـش لا فـائـدة فيـه	شـعـور بانـعـدام الـدور في بـلاد المهجـر، وشعـور بالضـيـاع لافـتـقـاد الـوطن
فلأغـادر هذا الوجـود	الرغـبة في الانـسحاب	رغـبة في تـرك المهـجـر

*- المشـابهـة بـنـوم أهل الكهـف ، لجـامـع الطـمأنيـنة والراحـة بينـهما ، وليـس لجـامع الطـول . إذ أن نـوم أهـل الكـهف كان عـامـل إنـقـاذ ونـصرة لهم وطمـأنـة وتوفيـق .

لكن الشاعر لا يتمادى في إســقاط ذاته على صورة الـحـجر الذي قـرر الانسحاب من الســد , فـعـدل عن إكمال المشــهد و عــاد لاسـتـعمال الضـمـيـر(هـو)

وهــوى مــن مكــانه وهــو يـشـكو ..

لـيبدو موضوعيا معـزولا عن " الحـجـر" ولـيـشـعـر القارئ بأنـه مجـرد واف أو مـصور لهذا الحجر، ليـخـتـم بـتـوجيه عـقـلي (تعليمي) مُغـَلِّـفا تـمـلصه من ذاتـيته بحضور أخلاقي يعـقـلن (يمنطق) الحديــث و يلخـص العاقـبة (بطـريقة المتـفـرج) :

فـتـح الـفـجر جـفـنه ...

- الـبـنـاء القـصصي و أثـواب الـتـنكر:

ظــهرت بــراعة الشـاعر حين اخـتار القصة شكـلا فـنـيا لـتـوصيل دلالاتـه , فعــدوله عن المـباشــرة و اختـيـاره لتـمـثـيل المعاني في أثـواب تجســد العناصر القصصية يضـفي كثيرا من الإقـنـاع على النص ويـبعـد القارئ عن الخطاب الذاتي و التـقريرية , ولهذا فالقدرة الفنـية لا تـتــجلى فـي الفــكرة المجـردة التـي تـبـدو جاهـزة رغـم كــونها فـكرة فـلسـفـية يخـتـلف الناس في تصورها و الاقـتناع بــها , وإنما تـتـجلى هـذه القـدرة من تـفاعل الـفكرة و التشـكـيل الفني المعـتمد على الـبناء القصـصي الممـثـل في الحـبكة : تمهـيد – عـقـدة – حــل (نهاية):

1- الســرد القــصصي :

يقـوم بـناء النــص علـى استعمــال تقنـية السـرد ، لتمثـيل المعنــى ، وهـو أسلــوب يجنــح إليــه الشــاعر كثيـرا في قصــائده، ولعلــه في هـذا السيـاق جـاء أكثـر فنيـة لكونــه يوفــر قـنـاعا فنيــا ، يستــتر الشــاعر وراءه ؛ فالفاعـل والمفـعول وحتـى الحيـز المكـاني والزماني تبــدو ، بهـذه الطريقـة معـزولـة عن الشـاعر تمــاما:

القنــاع الظـاهر	سمــع	الليـل	أنيـنا
الوجــه الخـفي	لا أحـد يسمـع	الــوحــدة	ألـم الـشاعر

إن الانزياح الفني القائم على الفعل السردي (سمع) المنسوب في فاعليته لـ (الليل) مجازا - أو تخيلا - يضعنا إزاء صورة متفجرة على حالة مأساوية من الوحدة ؛ فإذا كان الليل هو السامع ، وهو(في حالته السلبية) قرين الوحدة والهم والأرق والطول ، فإن المأساة تكون أكبر لانعدام الأنيس ، ولا يمكن تصور وطن (أو مكان مستحب) لا أنيس به ، هذا في الوقت الذي نجد فيه هذا الليل يمثل حيزا زمانيا جماليا (ذو النجوم = الصفاء..). فلماذا تحول إلى سامع للأنين(علامة الحزن والألم) ؟

والجواب: لأن الشاعر (في اللحظة الشعرية) لم يستطع أن يرى أو أن يتذوق المظهر الجمالي في الليل ، بل أسقطه على ذاته المعذبة بفعل الاغتراب والوحدة، وهو بذلك يقرر نقيض الفعل (سمع) وهناك تكمن المفارقة الفاعلة ؛ شأنه في ذلك شأن أبي فراس الحمداني الذي سمع صوت الحمامة (أو غناءها) نواحا وبكاء:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة : -*- أيا جارتا هل تشعرين بحالي ؟

أيضحك مأسور وتبكي طليقة -*- ويسكت محزون ويندب سالي ؟

ولعله يشبه - كذلك - موقف المتنبي ، بعد أن استعرض جمال طبيعة شِعْب "بوان"(*) فأنطق حصانه متعجبا :

يقول بشعب بوان حصاني : -*- " أعن هذا يسار إلى الطعان ؟

أبوكم آدم سن المعاصي -*- وعلمَكم مفارقة الجنان"(1)

فالقول (بالبداهة والحقيقة) للمتنبي الذي قضى حياته في الحروب (الطعان) والمغامرات والمخاطرات ، ولم يلتفت إلى التنعم والتلذذ بالحياة إلا متأخرا.

إن إنطاق الأشياء وجعلها ذات وظائف أو أفعال إنسانية(أنسنتها) يشير إلى مراوغة من الشاعر، تسعى إلى جعل القارئ يركز على النص، وينسى الشاعرَ(كما يقع تماما في الفنون القصصية) لكي يندمج مع فكرته أو أبعاده وهذا ما وقع في "الحجر الصغير":

---

*- سبقت الإشارة إلى القصيدة في مبحث " لمحة في تاريخ الشعر الوطني "، ينظر صفحة : 60 من هذا البحث.

1- ديوان المتنبي ، ص: 542 .

2-العـقـدة الفنـية في عنـصر الاستبطـان الذاتي :

غيّر أسلوب الخطاب، فمن استعمال الضمير(هو) تحول إلى الضمير(أنا)،على اعتبار أنه سيتحدث بالنيابة عن الحجر، لإزالة الحاجز(الراوي)..هذا فنيا (قصصيا). أما في الدلالة البعيدة (الخفية) فالشاعر يُحَدِّثُ عن ذاته بطريقة استبطانية تستكشف أغوار نفسه ومجاهلها ،وذلك في أثناء المرحلة الأهم من القصة وهي مرحلة العقدة:

أي شأن - يقول- في الكون شأني؟ -*- لست شيئا فيه ,ولست هباءَ

وهذا البيت يلخص العقدة فنيا ، وما يعقبه مجرد تفصيل لجزئياتها ، كما أنه يمثل العقدة النفسية ؛ فالشاعر برغم مكابرته وتعاليه عن وجع الغربة ، وآلام البعد إلا أنه وجد في هذا الوعظ الأخلاقي متنفَّسا يُخرج مِنه ما تراكم من معاناة مستمرة متجددة ما بقي اغترابه ، متزايدة ما لم يرجع إلى وطنه، ويخالط أرضه وأهله وأبناء أمته.

إن نفي الصفات الجميلة والمزايا الحسنة عن الحجر، هو نفي لذاته أن تكون لها قيمة في المهجر، ونفي لأي احتمال في الاندماج في أية أرض غير أرضه:

وطني ستبقى الأرض عندي كلها -*- حتى أعود إليه أرض التيه (*)

أما اختياره للحجر، فهو وإن كان في ظاهره للدلالة على معنى : اللا قيمة ،كما يؤكده متن النص، فهو غير مقنع ، إلا أني أستشف علاقة أخرى غير هذه وهي أن الحجر مثال جيد للتحجر وموت الإحساس والقلب؛ قال الله - Y - في كتابه الكريم:(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة](1)والتحجرفي الآية مقصود منه موت الضمير وفساد الأخلاق وقلة الإيمان بالله والخوف منه ،أما هنا(في الشاعر) فهو؛ موت العاطفة لقلة المشاركة؛ مشاركة الوطن فعليا وأبنائه الحياة معهم على أرضه، ولهذا كان الشاعر يقاوم هذا التحجر بين وحين بالفرار من المدينة والصناعة:

لغة الفولاذ هاضت لغتي -*- لا يعيش الشدو في دنيا اصطخاب(1)

---

*- البيت من قصيدة الشاعر " لبنان" التي سبق تحليلها في مبحث : الوطن الأم ، ص : 66.
1- سورة البقر ، الآية : 74.
2- الديوان ، ص : 74.

واللجوء إلى الطبيعة الجميلة الساحرة في قرى المهجر ومدنه ، بحثا عن شيء من الوطن، أو تَمَثُّل ِطبيعته في طبيعة المَهَاجر، بل إنه كثيرا ما يسقط ذاته في عنصر من عناصر الطبيعة ، حتى لا يموت شعوره وذاكرته ، وهذا ما تبين في مبحث" الوطن المهجر" (2)

3- الحل ؛ مأساة وراء مأساة :

تتدرج القصة لتصل إلى عنصر الحل(النهاية) الذي يبدأ من قول الشاعر- على لسان الحجر:(فلأغادر هذا الوجود)، ليعود الشاعر إلى السرد وينعزل نهائيا عن الحجر(وهوى من مكانه ، وهو يشكو..)، لكن : لماذا هذا التغير في الأدوار؟

إن الشاعر وهو يعبر عن معنى تخلي "الحجر" عن مكانه من السد أي نية الانتحار عبر نيابة عنه (أنا)، عندما كان المعنى عزما وقرارا، أما حين صار الانتحار واقعا فعليا ، أو فعلا تنفيذيا للانتحار عبر بالضمير(هو). وتفسير ذلك أن الشاعر في ذاته الباطنة كان منسجما مع معنى المغادرة فنسبها لنفسه لأنها تدل على الرحيل والسفر،وتلك رغبته العزيزة الممتنعة الوقوع ، وقد وجد فرصة لإبدائها ، ففعل،وعند التنفيذ نأى بنفسه عن فعل الانتحار فوصف به الحجر فهولا يؤمن بفكرة الانتحار مطلقا :

إن شر الجناة في الأرض نفس -*- تتوقى قبل الرحيل الرحيلا(1)

وهكذا فما كان يبدو مجموع تناقضات ومآخذ في النص صار بتفسير رمز المعادل الموضوعي انسجاما :« ولا حرج على القصيدة الرمزية إذا تخلى الشاعر عن البناء أو التتابع المنطقي ليواجه تتابعا انفعاليا ذا منطق خاص يعتمد على ارتباط عاطفة ذات مغزى بالرموز المستخدمة.»(4) التي تحمل ضمنيا دلالات خفية في خطة تضبطها الذات الشاعرة والقوى المتحكمة فيها ، فنيا ونفسيا وفكريا واجتماعيا . وليس الشاعر هو الذي يضبطها دائما . فللشاعر أن يقول ما شاء وللقارئ أن يفهم ما وراء قوله ، أو أبعد منه إذا وجد التفسير المبرر والحجة المقنعة والقراءة العميقة الفاحصة.

2- ينظر ؛ الوطن المهجر ، ص :
3- الديوان ، ص : 320 .
4- الصورة الأدبية ، ص : 167 .

خـــــا تمـــــــــــــــــــة

خـا تمـــــــــــــــــــــــــــة :

البحث العلمي شاق و ممتع معا ؛ شاق لأنه يتطلب الصبر و الأناة و طول النظر و إعمال الفكر , كما يستوجب امتلاك أدوات البحث و الإلمام بالمنهج المختار, و ممتع لأنه يفتح النوافذ مشرعة على المعرفة , وهي أعلى خصائص الكائن البشري و أرفعها , و يزود الباحث بالجديد دائما , و يدفعه أن يلامس معارف جانبية ربما كانت أسئلة في الذهن , و أن يقتحم أسئلة أخرى لم تكن لتثار لولا دخول هذا المعترك .

وإذا أنهى الباحث بحثه و أخرجه للناس , فإنه ما يفتأ أن يلاحظ غير ما لاحظه ؛ من أهمها أن اختتام البحث – أيا كان نصيب التوفيق منه – يكتشف ما يعتريه النقص لسبب أو لأسباب , فلا كمال في المعرفة ولا حدود . ومنها- أيضا- : أن الفراغ من أي بحث مدعاة لبداية بحث جديد , ربما يكون صاحبه أكثر توفيقا أو أكثر عمقا من منطلق أنه استفاد من عمله السابق و استدرك بعض نقائصه ...

و إذا كان لهذا البحث أن يتكلم عن بعض الجديد ، الذي توصل إليه الباحث واهتدى إليه بعد طول نظر وتقليب فإنه يرى :

- أن الشعر المهجري مادة دسمة و حية و ثرية نوعا و كما ، لمشاريع بحثية جديرة بالخوض فيها , لِما في هذا الشعر من خصائص تميزه و ظواهر تستوقف القارئ العادي والباحث على السواء ، ولعلني أجمل نتائج هذا البحث في التالي:

- أن الشاعر إيليا أبا ماضي شاعر مسكون بالوطن , يذكره صراحة وضمنا في شعره , و بمناسبة و بغيرها ..و يتمثله في المعاني الإنسانية و المواقف الصعبة دائما .

- كما تبين لي أن حبه للبنان" وطنه الأم" لم يحل دون حبه لأمته العربية ، والتفاعل مع قضاياها والتألم لأوجاعها ، ولو كان بعيدا كل البعد ، فقد ظل يعتز بالانتساب والانتماء إليها .

- أن تفاعل الشاعر مع المواطن التي سكنها وأقام فيها (المَهَاجر) طيلة اغترابه ، لا يؤكد شيئا مثلما يؤكد حضور الغربة في نفسه رغم احتفاظه بذكريات حميمة من هذه المهاجر ، فجعل يصفها ويتغنى بها ، لكنه كان يصف فيها لبنان ، أو الشرق ، أو ينحاز

في أوصافها إلى ما فيه مشابهة لطبيعة لبنان . مما يكشف عن عدم تأقلم الشاعر رغم النجاح في عمله ورفاهية الحياة في الغرب ليبقى انتماؤه الخالص حيث الجمال والطبيعة اللذين يحيلانه دائما على وطنه. لأجل ذلك ظل الشاعر يتألم بسبب البعد عن بلاده ، فقد ظهر في كثير من النصوص شبه نادم على بقائه بعيدا عن أرضه، وإن لم يصرح بذلك علنا . وهذا ما يفسر حرارة حنينه ، وشعوره الدائم بالاضطراب في غربته.

-أن الطبيعة تمثل عند الشاعر عنصرا هاما في التعبير، وأساسيا ؛من الجانبين الفكري والفني معا ، فهي مادة للتفلسف والتفكير والنظر والتساؤل في شؤون الحياة . وهي – كذلك – الصورة التعبيرية الناقلة لشعوره ، فمن ألوانها المتنوعة يشكل لوحاته الشعرية ، ومن مناظرها ومظاهرها ، يفجر الشاعر معانيه في انزياحات فنية بارعة ومؤثرة. وهي - بعد كل ذلك - مقابل موضوعي كثيرا ما كان الشاعر يرى فيها نفسه ، ويتعلم منها . وكثيرا ما تنفلت منه صور تبدو - ظاهرا- في الطبيعة ، لكنها قد تمثل انفلاتا رمزيا كثيف الدلالة يتجاوز فكرة وصف الطبيعة ، إلى فكرة إسقاطها على أحوال الشاعر، واعتبارها صورا مغلفة تصور ذاته.

- أن للشاعر نظرة إنسانية رحبة ، ففكرة المواطنة عنده والإخلاص للوطن الأم أو الوطن الأمة، ليس نقيضا للتفاعل مع العالم كله، واعتبار الإنسانية أمة واحدة ، فقد كان الشاعر يفرح للإنسانية ويتألم لها ، كما يفرح لوطنه ويتألم له ، مع مراعاة خصوصية انتمائه لوطنه . وهذا لا يتعارض مع حقيقة أنه لم يندمج في أوطان المهجر؛ فلم يكن ذلك إلا تأكيدا لمحبة وطنه وتعلقه به. وليس نتاج فكر عنصري ،وإنما نتاج خصوصيته إنسانا وفكرا وشعورا،وهو بعد ذلك نتاج

توجهه الفني الذي ينتصر للطبيعة الجميلة حيث كانت دون معاداة لأوطان المهجر هذه.

- وقد اتضح لي من خلال الدراسة التطبيقية ، أن المنهج السيميائي له من الإمكانيات التحليلية للنصوص ما يؤهله لقراءتها قراءات عميقة ؛ تستبطن أغوارها، وتخرج أسرارها ، وذلك يمتثل في :

1- أهمية الاستعانة بكل العلوم اللغوية التي من شأنها كشف إشارات النصوص وإشعاعاتها مثل علوم اللسان والبلاغة والعروض والإلمام بمناهج النقد.

2- تناغم دلالات النصوص المدروسة مع أدواتها التعبيرية ، واتحاد الشكل والمضمون لغاية واحدة.

3- أن القراءة السيميائية تعطي مدى لا نهائيا لتفسير النص ، بقابليتها لمنطق الاحتمال بشرط أن تتوفر الأدلة المؤيدة لأحكام الدارس وآرائه ومذاهبه.

وقد رأيت بعد هذه الجولة البحثية أن الموضوع المتناول (شعر أبي ماضي) قابل للطرق والمعالجة من زوايا عديدة ، فقد استوقفتني ظاهرة التدين عند أبي ماضي ؛ وغموض موقفه من الدين وتردده بين إيمان وإنكار. وهي تستحق أن تكون بحثا مفردا..كما انتبهت إلى أنه يمكن إعادة النظر في شعر الطبيعة عند الشاعر ؛ التي كثيرا ما يزاوج بينها وبين نفسه. بما يشكل مشروع دراسة نفسية وفنية معا.

كما أن هناك موضوعا رأيت أنه جدير بالطرح والبحث ؛ وهو تذبذب الشاعر في فكره وأسلوبه معا بين القديم والحديث طيلة حياته الشعرية، فضلا عن ظاهرة التناص عنده ، وتحديدا مع التراث العربي ، الأمر الذي يجعل هذا الشاعر مادة خصبة للدراسة والبحث العلمي المعمق.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم بشكري الجزيل لكل الذين ساندوني في هذا البحث ، وأمدوني بالعون والتشجيع ، ليصلوا مساندتهم بجهدي ، حتى يخرج هذا البحث ويكتمل، وعلى رأسهم أستاذي المشرف الذي أكرر له شكري الوافر، وأثني على مساعدته جميل الثناء.

مكتبة
البحث

مكـــتـبـة الـــبـحث :

المصـادر:

1- الـقـرآن الكريم
2- الحديث النـبوي الشريف : مختصر صـحيح مسلم، الحـافظ زكـي الدين عبد العظـــيم المـنـذري ، دار ابن حزم ، بـيروت ، لبنان، ط 1 ،2001 .
3- شرح ديــوان إيليا أبو ماضـي ، حـــجر عاصـي ، دار الــفكر العــربي ، بيــروت ، لبنان ، ط1، 1999.

4- أحلى ما قيـل في الوطن ، إيمان البقاعي ، دار الكتاب العربي ،بيروت، لبنان، 2006
5- أدب المهـجر ،عيــسى الناعوري ، دار المعارف، القاهـرة ، مـصر، ط 3 ،1977
6- إيليا أبو ماضي بين الشرق والغرب ، سالم المعوش، مؤسسة بحـسون ، بيروت ، لبنان،ط 1 ،.1997
7- مفاهـيم قـرآنيـة ، محـمد أحمـــد خلف الله ، المجلس الوطنـي للثـقـافة والفـنـون والآداب ، الكويت ، عـدد : 79 ، يوليو 1984

المـراجع :

أولا- العربيـــة :

1- الدواوين والمجموعات الشعرية:

1- أغاني الحياة (ديوان أبي القاسم الشابي) ، إعداد وتقديم : أبو القاسم محمد كرو ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط 1، .1999
2- روائع أشعار العلامـة القرضاوي (الأعمال الشعرية الكاملة)، يوسف القرضاوي،دار اليُمن للنشر والتوزيع والإعلام ، قسـنطينة ، الجزائر،2005 .
3- الشوقـيات ، أحمد شوقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، مج 1،ج 1
4- اللهب المقدس،(ديوان مفـدي زكريا)،المؤسســة الوطنية للكتاب،الجزائر،ط 2،1991
5- ديوان ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون، دار صادر، بيروت ،لبنان
6- ديوان الأمير عبد القادر الأمير عبد القادر الجزائري ، تحقيق وشرح وتعليق ؛ زكريا صيام ، ديوان المطبوعات الجامعية- المؤسسة الجزائرية للطباعة ، 1988،
7- ديوان حافظ إبراهيم ، حافـظ إبــراهيم ، ضـبــط وتصحـيح وشرح وتـرتـيب: أحـمد أمـين وأحمد الــزيـن وإبراهيم الأبـياري، الهيئة المصرية العامـة للكـتاب ، ط 3، 1978
8- ديوان حسـان بن ثابت ، شرح وتهميش ؛ عبدا مهنـا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،ط 3 ، .2002
9- ديـوان المتنبي ، أبو الطيب المتنـبي،دار صادر، بيروت، لبنان، ط15، 1994

2- الكتب والدراســات:

1- آثار الإمام محـمد البشير الإبراهيمي ، جمــع وتقــديم؛ أحمـد طالب الإبراهـيمي ، دارالغرب الإسلامي ، بيروت ، لبـنان ، ط 1 ، 1997 ، ج1

2- ابن باديس ، حياته وآثاره، جـمع ودراســة : عمار الطالبي ،الشــركة الجـزائرية ، ط 3 ،1997، مج:.3

3- الاتجاهات الوطنيـــة في الأدب المعاصــر، محمد محمــد حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط 8، ،1986،ج 1.

4- الاتجاه الإنسـاني في الشعر العربي المـعاصر ، محمــد مفيـد قميــحة ، دار الآفــاق الجـديدة ، بيــروت ، لبـنان ، ط 1 ، .1981

5- الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحريــر، نـور سلـمان ، دار العلـم للملايين ، بيروت ، لبنـان ، ط 1، يناير 1981

6- أدب الـرحلات ،حسـين محمـد فهـيم ، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب ، الكويت، عدد 138، يونيو1989.

7- الأدب العربي (الموسوعة الثقافية العامة) ،فواز الشعار ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان.

8- الأدب المـقارن، محمـد غنيـمي هـلال،دار العـودة ودارالثـقافة ، بيروت ، لبنان ،ط 5

9- الأدب وروح العصـر، عبـده بـدوي ومحمـد حسـن عبـد الله وأحمـد فـوزي الهيـب، منشـورات ذات السلاسـل، الكويت، 1985،

10- أروع ما قيل في الوطنيات، إميل ناصيف، دار الجيل، بيروت ، لبنان، ط1، 1992.

11- الإسـلام والشـعر ، سـامي مكـي العـاني، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب، الكويت،عدد : 66، أغسطس .1996

12- الإسـلام وحقـوق الإنسـان ، محمـد عمـــــارة ، المجلـس الوطـــني للثقافـة والفنـون والآداب، الكويت،عدد 89، مايو1985،

13- إشكاليات الخطـاب العربـي المعاصـر،كمال عبد اللطيف ونصـر محمـد عـارف،دار الفكر، دمشق، سورية- دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، ط1، مارس.2001

14- الأصـوات اللغـوية ،عبد القادر عبد الجليل ، دار صفـاء للنشر والتوزيع ، عمــان ، الأردن ، ط1 ، 1998 .

15- الأعمال الكاملة ، مصطفى لطفي المنفلوطي ، الـدار النموذجيـة ، صـيدا- بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2002 .

16- الأمة والعـوامل المكونة لها، محـمد المـبارك ، دار الفكر ، ط 3 ، 1975.

17- إيلـيا أبو ماضـي (باعث الأمل ومفجـر ينـابيع التفاؤل) ،عبد المجيــد الحر ، دار الفكر العربي، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1995 ،

18- إيليا أبو ماضي (رسول الشعر العربـي)، عيسـى النـاعوري ، منشـورات عـويدات، بيروت- باريـس، ط2، ديــسـمبر.1977

19- إيـليا أبو ماضي ، عبد اللـطيف شـرارة ، دار بـيروت، لبـنان ،1979.

20- بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد 164 أغسطس 1992 ،.
21- تاريخ العرب الحديث ، عبد الكريم محمود غرايبة ، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان .
22- التعبير الزمني عند النحاة العرب ، عبد الله بوخلخال ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1987 ،ج 1 .
23- الثقافة العربية وعصر المعلومات ، نبيل علي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد؛ 265، يناير 2001
24- الثورة العربية الكبرى ، مصطفى طلاس، دار الشورى ، بيروت ،لبنان، ط 3
25- جبران خليل جبران(المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية)، تقديم ومراجعة وترتيب: ميخائيل نعيمة ، دار صادر بيروت، لبنان ، ط 1 ، 2002 .
26- جواهر الأدب ، السيد أحمد الهاشمي ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان ،ج.1
27- جامع الدروس العربية ، مصطفى الغلاييني ، المطبعة العصرية ، صيدا – بيروت ، ط 1 ، 2004 ، الأجزاء1 ، 2 ،3.
28- جماعة الديوان في النقد ، محمد مصايف ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط 2 ، .1982
29- حركات ومذاهب في ميزان الإسلام ، فتحي يكن ، شركة الشهاب، الجزائر،1979 .
30- دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب – بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 2000 .
31- الدولة العثمانية (عوامل النهوض ، وأسباب السقوط) ،محمد علي الصلابي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، مصر، ط 2 ،.2004
32- الريف في الرواية العربية ، محمد حسن عبد الله ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، نوفمبر 1989 ،عدد143 .
33- الرومانتيكية ، محمد غنيمي هلال ،دار العودة ، بيروت ، لبنان ،ط 6 ،1981 .
34- ساعات بين الكتب ، عباس محمود العقاد ، دار الفكر ، القاهرة ، مصر 1978.
35- السيميائية الشعرية ، فيصل الأحمر ، جمعية الإمتاع والمؤانسة ، 2005 .
36- شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري المصري (المعروف بحاشية : السجاعي) ، تحقيق : عرفان مطرجي ،مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت ، لبنان ، ط .1
37- الشعراء العرب،ج2(الموسوعة الثقافية العامة)،فواز الشعار،دار الجيل، بيروت، لبنان.
38- شعر الثورة عند مفدي زكريا ،لـ: يحيى الشيخ صالح ، دار البعث للطباعة والنشر ، قسنطينة، الجزائر ، ط 1.

39- الصعاليك في العصر الجاهلي ،محمد رضا مروة ،دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط 1، .1990
40- الصورة الأدبية ،مصطفى ناصف، دار الأندلس ، بيروت،لبنان ،ط 3 ، 1983.
41- طبائع الاستبداد ومصرع الاستعباد ، عبد الرحمن الكواكبي ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر، 1991.
42- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 5 ، ج.3
43- العدالة والحرية في فجر النهضة العربية ،عزت قرني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت ، عدد : 30 ، 1980 ،
44- العرب في العصر الجاهلي،حسين شعيب، دار الفكر العربي، بيروت،لبنان، ط 1، 2004.
45- العرب والتحدي ، محمد عمارة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،عدد 29، مايو1980،
46- علم العروض وتطبيقاته ، محمد مصطفى أبو شوارب ، دار الوفاء لدنيا الطبع والتوزيع ، الإسكندرية ، مصر ، ط 1 ، 2004
47-الفكر العلمي عند ابن خلدون ، الصغير بن عمار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط 3 ،1981.
48- فن الأدب ، توفيق الحكيم ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ،ط 2 ،1973 .
49- في الغربال الجديد،ميخائيل نعيمة،مؤسسة نوفل،بيروت، لبنان،ط 2، مارس1983.
50- قصة الأدب المهجري ، محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط 2، 1973
51- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين، بيروت ، لبنان، ط 6، مارس1981،
52- القومية العربية في الفكر والممارسة (من مقال: ملاحظات حول نشأة الفكر القومي العربي وتطوره) ، أحمد صدقي الدجاني ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط 2، أكتوبر ، 1980 .
53- كيف تجود القرآن العظيم (أوضح البيان في أحكام تلاوة القرآن) ، محمد محمود عبد الله ، مكتبة القدسي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط 1 ، 1996 .
54- لامية العرب (للشنفرى)، جمع ودراسة : صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، لبنان ، ط 1، .2006
55- اللغة وبناء الذات (كتاب الأمة)عبد الرحمن بن محمد بودرع وأحمد شفيق الخطيب وعبد الله آيت الأعشير ، الدوحة ، قطر ،عدد101 ، ط 1 ، 2004
56- المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب)،محمد نور الدين أفاية ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان.
57- المتقن في تاريخ الأدب العربي،إيمان البقاعي ،دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان.

58- المجموعة الكاملة ، طه حسين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان، مج ؛ 6
59- المدينة في الشعر العربي الجزائري (1925-1962) ، إبراهيم رماني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2002 .
60- المدينة في الشعر العربي المعاصر، مختار علي أبو غالي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ،عدد 196، أبريل .1995
61- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب، دار الشروق،القاهرة- بيروت، ط 8 ،1993
62- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط 4، 1981، ج.2
63- المطالعة الأدبية الموجهة- س3ثانوي،إشراف:موهوب حروش(وفقا لمناهج وزارة التربية الوطنية)،موفم للنشر،1993،عن(المغتربون في أمريكا الشمالية)لـ: جورج طعمة.
64- مفتاح العروض والقافية ، ناصر لوحيشي ،دارالهداية ، قسنطينة ، الجزائر،2002،
65- المنهج الصوتي للبنية العربية ، عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ،1980
66- الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، حنا الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 2، 1991، مج: 1 ، مج 2
67- موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه ، عبد الرضا علي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 1997 ، ص : 168.
68- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، السيد أحمد الهاشمي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2005 ، ص: 50.
69- الميسر في أحكام الترتيل (برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق) ، رحيمة عيساوي ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر، 2000
70- نبض الفكر (قراءات في الفن والأدب)،صلاح عبد الصبور،دار المريخ، الرياض،وديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1985،
71- النقد الأدبي ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، مصر، ط 4 ، 1972
72- النقد الأدبي الحديث ، محمد زغلول سلام ،منشأة المعارف ،الإسكندرية ،مصر،1981،
73- هذا العصر وثقافته ، زكي نجيب محمود ، دار الشروق ، بيروت -القاهرة ،ط 2 .
74- الوجيز في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ،مكتبة دار الشرق ، بيروت ، لبنان،ط 3.

ثانيا – المترجمة :

1- الإنسان بين الجوهر والمظهر ، إيريك فروم ، ترجمة: سعد زهران ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد؛ 140، أغسطس ، 1989،

2- البدائية ، آشلي مونتاغيو ، ترجمة : محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عدد 53 ، مايو ، 1982،
3- السيميائية ؛ أصولها وقواعدها ، ميشال آريفيه وآخرون ، ترجمة : رشيد بن مالك ، منشورات الاختلاف ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر، 2002 .
4- الموسوعة الفلسفية ، (وضع لجنة من العلماء الأكاديميين السوفياتيين) بإشراف: م.روزنتال و: ب.يودين ، ترجمة: سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت، لبنان،ط2، فبراير2006.

ثالثا : القواميس والمعاجم والموسوعات :

1- القاموس الجديد ، علي بن هادية وبلحسن البليش و الجيلاني بن الحاج يحيى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ط 7 ، 1991 .
2- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي، دار الكتاب العربي، .د.ت.
3- قاموس مصطلحات علم الاجتماع ، فاروق مداس ، دار مدني ، 2003 .
4- لسان العرب،ابن منظور الإفريقي المصري،دار صادر، بيروت، لبنان،ط 3 ،.1994
5- المعجم الأدبي، جبورعبد النور،دار العلم للملايين، بيروت،لبنان، ط1، مارس.1979
6- المعجم الفلسفي المدرسي الميسر، أحمد الزعيبي ، دار الآثار، ط1 ،1996 .
7- معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)، أحمد رضا ، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، .1960
8- معجم المصطلحات العلمية والفنية(عربي ، فرنسي، إنجليزي ،لاتيني)،يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، د.ت
9- المنجد في اللغة والأعلام ، دار الشروق، بيروت ، لبنان، ط:31، .1991
10- موسوعة السياسة ،عبد الوهاب الكيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان، ط 1 .

رابعا- البحوث العلمية والرسائل الجامعية :

1- التوجيه اللغوي في قراءة " عبد الله بن مسعود" ،رسالة ماجستير في علوم اللسان ، إعداد : صالح لحلوحي ، إشراف : د/ بلقاسم دفة ، جامعة بسكرة ، 2003- 2004 .
2- - سيميائية العنوان في شعر مصطفى الغماري ،رسالة ماجستير في الأدب الجزائري لـ : عبد القادر رحيم ، إشراف أ.د / صالح مفقودة ، جامعة بسكرة ،2005- 2006 .

فهرس الموضوعات:

*- مقدمة : ..... أ – هـ

الفصل الأول: **بحث في المفهوم والموضوع**

أولا – المفاهيم المتعلقة بالوطن:

1- الوطن والوطنية : 01

2- الأمة والقومية : 07

3- الانتماء والولاء : 14

4- الغربة والحنين : 18

5- الإنسانية أو عالمية الوطن: 21

ثانيا - الشاعر والموضوع

1- ترجمة الشاعر : 24

2- الهجرة وأسبابها: 36

3- لمحة في تاريخ الشعر الوطني: 48

الفصل الثاني: **الوطن في شعر "إيليا أبو ماضي"**

دراسة تحليلية سيميائية

1- الوطن الأم (الصغير) : 66

2- الوطن الأمة (الكبير) : 85

3- الوطن المهجر : 98

4- الوطن العالم (أو الإنسانية) : 125

5- معادلات موضوعية للوطن : 143

*- خاتمة : 164

*- مكتبة البحث: 167

*- فهرس الموضوعات: 173